فلسفة التاريخ عند ڤيكو

تأليف

دكتـــورة

عطيــات أبــو الســعود

١٩٩٧

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حزى وشركاه

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حزى وشركاه

٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون / فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

رقم الصفحة

الباب الثالث

المعرفة التاريخية وآثرها

مقدمة

فلسفة التاريخ مبحث هام من المباحث الفلسفية حديثة العهد فى الفكر الفلسفى ، فلم تتضح كعلم مستقل إلا فى القرن السابع عشر ، ثم تحددت معالمها فى القرن الثامن عشر الذى شهد العديد من فلاسفة التاريخ أمثال ڤيكو ومونتسكيو وتورجو وفولتير وكوندورسيه وهردر وغيرهم . وبلغ الاهتمام بالدراسات التاريخية ذروته فى القرن التاسع عشر - حتى ليمكن أن نطلق عليه اسم " عصر التاريخ " - على يد أعلام هذا القرن أمثال هيجل وكونت وماركس . وترجع أهمية فلسفة التاريخ إلى حيوية موضوعها حيث تتناول بالدراسة حركة المجتمعات البشرية وتطورها وأسباب انهيارها وسقوطها فى مرحلة معينة من تاريخها ، والقوانين التى تحكم حركة التاريخ وتطوره .

ولا تذكر فلسفة التاريخ إلا ويذكر معها اسم ڤيكو . وهو فيلسوف ايطالى ولد وعاش فى نابولى وعانى الفقر وتجاهل معاصريه ولم يبدأ الاهتمام الحقيقى به إلا منذ عهد قريب . وعلى الرغم من هذا التجاهل الذى استمر طويلاً فهو يعد المؤسس الحقيقى لفلسفة التاريخ فى الفكر الفلسفى الغربى . ويمكن القول أن مكانته فى التراث الغربى تماثل مكانة ابن خلدون فى التراث العربى . حقاً لقد ذكره بعض فلاسفة القرن الثامن عشر وربما اطلعوا على شىء من انتاجه ، وخاصة على بعض أجزاء من العلم الجديد ، ولكنه لم يُكتشف اكتشافاً حقيقياً إلا عندما تُرجم إلى اللغة الألمانية لأول مرة عام ١٨٢٢ ، ثم عندما ترجم " ميشليه " مختارات من العلم الجديد عام ١٨٢٥ مع مقدمة كان لها أثرها فى توجيه الأنظار إلى أهمية أفكاره وأصالتها . والتفت إليه أبناء بلده بعد أن أغفلوه طويلاً وخاصة مع حركة البعث القومى الايطالى ، إلى أن جاء فيلسوف ايطاليا الأكبر بندتو كروتشه فأحيا فكره من جديد وأفرد له كتاباً مستقلاً . ثم توالت الدراسات العلمية الدقيقة التى سلطت الأضواء على جوانب فكره المختلفة سواء فى فلسفة التاريخ بوجه عام أو فقه اللغة والقانون

الرومانى أو نظريته فى اكتشاف حقيقة هوميروس . والواقع أن ڤيكو ليس مجهولاً فى حياتنا العقلية والعلمية ، فقد اهتم به بعض الأساتذة الذين يستحقون كل التقدير والعرفان ، فكتب عنه المرحوم الدكتور عبد العزيز عزت فصلاً فى كتابه " فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع "[1] وحاول أن يقدمه كمفكر اجتماعى قبل كل شىء . ثم قدم الدكتور أحمد حمدى محمود عرضاً موجزاً لحياته وكتابه الأساسى " العلم الجديد " فى مجلة " تراث الإنسانية "[2] وخصص المرحوم الأستاذ الدكتور محمد فتحى الشنيطى فصلاً عنه فى كتابه " دراسات فى الفلسفة الحديثة "[3] كماكتب عنه الأستاذ الدكتور أحمد محمود صبحى فصلاً قيماً فى كتابه " فلسفة التاريخ "[4] أبرز فيه بإيجاز منهج ڤيكو ومذهبه ونظريته فى التعاقب الدورى للحضارات . وكان آخر هذه الجهود مقال الأستاذ الدكتور حسن حنفى في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة فاس "[5] وقد قدم فيه عرضاً وافياً - إلى حد كبير - للعلم الجديد ختمه بتقييم شامل لتفكير ڤيكو وبيان حدوده وجوانب القصور فيه .

وعلى الرغم من أهمية هذه البحوث إلا أنها لم تستقص كل جوانب فلسفة ڤيكو ولم تقدم نظريته فى التاريخ بصورة وافية ، ومع اعترافنا بقيمة هذه الدراسات فإن المكتبة العربية كانت وما تزال فى أشد الحاجة إلى بحوث متخصصة فى فلسفة ڤيكو ، ولهذا حاولنا فى هذا البحث أن نقدم صورة واضحة عن هذا الفيلسوف معتمدين فى المقام الأول على نصوصه نفسها . والواقع أن هذا لم يكن أمراً سهلاً بسبب كثافة المادة التاريخية التى تناولها مما أعجزه عن تنظيمها والسيطرة عليها . فقد كان ينتقل من موضوع إلى آخر - ربما دون أن يدرى هو نفسه بهذا الانتقال -

---

(١) د. عبد العزيز عزت : فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، الجمعية المصرية لعلم الاجتماع ، ١٩٥١ ، ص ٧١ - ٩٨ .

(٢) د. أحمد حمدى محمود ، مجلة تراث الإنسانية ، المجلد السادس .

(٣) د. محمد فتحى الشنيطى ، دراسات فى الفلسفة الحديثة .

(٤) د. أحمد محمود صبحى ، فلسفة التاريخ ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ص ١٠٣ - ١٦٥ .

(٥) د. حسن حنفى مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس . العدد السابع ١٩٨٣ - ١٩٨٤ .

بحيث يصعب الفصل بين هذه الموضوعات . ومما زاد من صعوبة البحث أن فيكو لم يشر إلى هوامش ولم يقم بعمل إحالات للنصوص ، بل حشد فى النص الأصلى ما كان يجب أن يشير إليه في الهامش مما جعل العثور على الأفكار الأساسية أمراً شاقاً فى خضم التفصيلات الجزئية الكثيرة والمتشابكة .

وقد حاولت أن ألتزم بالنصوص وأن أقدمها تقديماً وافياً منظماً مع الحرص على عدم اغفال أية نقطة جوهرية فى الكتاب كله . وقد كانت قراءة النص وحدها مسألة شائكة لأنه يفترض إلمام القارىء بالثقافة الكلاسيكية (الثقافة اليونانية والرومانية) إلماماً تاماً ، وكذلك معرفة تاريخ القانون الرومانى . كما يستلزم قدراً كافياً من الإلمام باللغة اللاتينية بوجه خاص والقدرة على تتبع المؤلف فى تحليلاته الاشتقاقية المرهقة التى جعل لها أهمية كبرى فى تتبع تطور التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية من خلال التطور اللغوى .

والمنهج المتبع فى البحث هو المنهج التحليلى النقدي ، فقد توخينا عرض النصوص عرضاً أميناً بحيث لا نغفل شيئاً هاماً منها مع الحرص على ترتيب وتنسيق ما وجدناه محتاجاً إلى الترتيب والتنسيق . وعلى سبيل المثال وجدنا أنه من الضرورى تصنيف المسلمات إلى مجموعات رئيسية حسب موضوعاتها ووضع عناوين مناسبة لها ، إذ أن ڤيكو وضع مائة وأربعة عشر مسلمة فى موضوعات متعددة وتركها بغير تصنيف أو تنسيق . ومن الطبيعى أن عرض النصوص وحده لا يكفى ، فكان لابد من تحليلها وتقييمها بعد ذلك . كما اتبعنا المنهج المقارن لبيان أثر ڤيكو على بعض فلاسفة التاريخ فى القرنين الثامن والتاسع عشر .

وقد اعتمدنا على نصوص ڤيكو من خلال مؤلفاته الأصلية ، وخاصة أهم مؤلفاته " العلم الجديد فى الطبيعة المشتركة للأمم " ، وهو الذى شمل فلسفته بأكملها وفلسفته التاريخية بصفة خاصة بجانبيها النظرى الميتافيزيقى والتطبيقى

التجريبى ، كما اعتمدنا على الترجمة الانجليزية " للعلم الجديد " التى قام بترجمتها العالمان Fisch و Bergin عن الطبعة الثالثة للنسخة الايطالية الصادرة عام ١٧٤٤ أما عن بقية مؤلفاته فقد كانت بمثابة إرهاصات لفلسفته التى تبلورت فى النهاية فى المؤلف الكبير " العلم الجديد " الذى عكف على تأليفه وتعديله وتنقيحه أكثر من ربع قرن من حياته . ومع ذلك فقد رجعنا إلى ما توفر من بقية مؤلفاته مترجماً للغة الانجليزية ومن أهمها " السيرة الذاتية " و" مناهج الدراسة فى عصرنا " الذى عارض فيه بوضوح نظرية المعرفة الديكارتية . وأما عن مؤلفه " الحكمة الايطالية القديمة " فقد تعذر الحصول على ترجمة له بالانجليزية هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان موضوع هذا المؤلف لا يتعلق بالقضايا الأساسية التى تناولناها فى هذا البحث . أضف إلى هذا أن مضمون مؤلفات فيكو كلها - التى كتبها باللغة اللاتينية قبل أن يتحول إلى اللغة الايطالية فى العلم الجديد - متضمنة فى آخر مؤلفاته وأهمها وهو " العلم الجديد " . فبعد اكتشافه علمه الجديد كرس البقية الباقية من حياته لتنقيحه وإضافة فصول جديدة له ، ولهذا اعتمد البحث فى المقام الأول على النصوص الأصلية .

وقد قسمنا البحث إلى ثلاثة أبواب مترابطة يؤدى كل منها إلى الآخر ، عرضنا فى الباب الأول أصول العلم الجديد ، وحاولنا فى الفصل الأول منه تتبع نشأة العلم الجديد وتبلوره فى ذهن مؤلفه . وكان لزاماً علينا أن نعرض للظروف التاريخية والثقافية التى عاش فى ظلها وأثرت على تفكيره . فقد عاصر سيطرة الفلسفة الديكارتية العقلانية ، وكان له موقف محدد منها جعله يميل إلى تغليب منهج بيكون الاستقرائي وان كان فى النهاية قد جمع بين الاثنين دون أن يشعر . ويقدم الفصل الثانى أصول العلم الجديد ومبادئه ومنهجه .

ويتناول الباب الثانى قانون تطور الأمم ، وقد أفردنا الفصل الأول لقانون تطور الأمم وبينا كيف أنه قانون يحدد المراحل الثلاث التى مر بها تاريخ الأمم

الأممية (وهى الأمم الوثنية) . ثم انتقلنا إلى الفصل الثانى وعرضنا تطبيق هذا القانون على المسار الأول للأمم الأممية فى ضوء الحكمة الشعرية خاصة فى الحضارتين اليونانية والرومانية ، ثم تطبيقه على المسار الثانى للأمم فى العصور الوسطى الأوربية . وبنهاية الباب الثانى نكون قد عرضنا منهج ڤيكو ومذهبه عرضاً مستفيضاً ، وتعاطفنا مع فكره إلى حد كبير ، واقتربنا منه حتى يتسنى لنا فهم مذهبه فهماً صحيحاً . وربما نكون بذلك قد عملنا بنصيحة ڤيكو نفسه للباحثين فى التاريخ ، بألا يسقطوا ثقافة عصرهم على فكر العصور القديمة ، واستجبنا إلى دعوته لهم بالتعاطف الوجدانى مع فكر القدماء لكى يفهموا ما كان يدور فى عقولهم . وهذا ماحاولناه فى البابين الأول والثانى . وقد وجدنا من الضرورى أن نبتعد فى الباب الثالث قليلاً عن هذا المذهب لنتمكن من تقييمه ، ورأينا أن نفرد هذا الباب لنظرية المعرفة التاريخية وأثرها . فقدمنا فى الفصل الأول تقييماً وتحليلاً لنظرية المعرفة التاريخية انطلاقاً من مبدأ ڤيكو الأساسي فى المعرفة ، وهو أن " الإنسان لا يعرف إلا ما يصنعه بنفسه " ، وقد وقفنا عند هذه النظرية لإلقاء الضوء على جوانبها المختلفة ومضمونها الاجتماعى والتاريخى . وقد كان من الطبيعى أن نعرض لموقف ڤيكو من فلسفة عصر التنوير الذى عاش فيه فأوضحنا أن مفهوم التقدم عنده يختلف إلى حد كبير عنه عند فلاسفة هذا العصر . ثم انتقلنا فى الفصل الثانى من هذا الباب إلى بيان أثر نظرية المعرفة التاريخية على أهم فلاسفة التاريخ الذين جاءوا بعده ومن أهمهم هردر وكونت وماركس . وأخيراً بلورنا الرؤية الكلية للبحث فى خاتمة قدمنا فيها تقييماً للأفكار الأساسية العامة فى مذهب ڤيكو ، وهى الأفكار التى وردت فى ثنايا البحث . أما عن بعض التفاصيل الجزئية فقد عقبنا عليها أثناء عرضها فى ثنايا الفصول ، ورأينا أن نتناولها فى موضوعها حتى يكون التقييم النهائى للبحث منصباً على الأفكار الرئيسية واستخلاص أهم النتائج التى أمكننا التوصل إليها .

وأخيراً نقول لعل أهمية فيكو تكمن فى أنه يعدُ بحقٍ أحــد آباء الوعى التاريخى فى وقت كان فيه الضمير الأوربى فى حاجة إلى هذا الوعى ، ولما كنا نحن العرب نمر بمرحلة تشتد فيها حاجاتنا إلى الوعى التاريخى لإدراك دورنا فى التاريخ المعاصر وتوجيه خطانا من التمزق إلى الوحدة ومن الغيبوبة إلى الوعى ، فما أحوج أمتنا العربية - فى مرحلتها الراهنة - إلى هذه الدراسات . وعسى أن يكون هذا البحث مساهمة متواضعة فى ايقاظ وعينا التاريخى وتوجيه خطانا نحو التقدم والمشاركة الفعالة فى الحضارة الإنسانية .

الباب الأول

أصول العلم الجديد

الفصل الأول

مدخل إلى فلسفة ڤيكو وعصره

الفصل الأول

" مدخل إلى فلسفة ڤيكو وعصره "

أولاً : حياة ڤيكو ومؤلفاته :-

جامباتيستا ڤيكو *Giambattista Vico* مؤرخ وفيلسوف ايطالي ولد فى نابولى فى ٢٣ يونيو عام ١٦٦٨ فى حجرة متواضعة فوق مكتبة يملكها والده ، نشأ فى أسرة رقيقة الحال فكان والده إبناً لفلاح نزح إلى نابولى عام ١٦٥٦ ، وكانت أمه ابنة صانع عربات كما كانت هى الزوجة الثانية لأبيه . كان جامبا تيستا هو الطفل السادس لأسرة مكونة من ثمانية أطفال ، التحق فى سن مبكرة بمدرسة الآباء اليسوعيين وفيها درس اللغات القديمة ، وخاصة اللاتينية وبعض اليونانية ، كما درس الآداب والبلاغة والفلسفة والمنطق واللاهوت والتشريع ، وخاصة التشريع الرومانى ، بالإضافة إلى ما حصله من فترات اعتكافه فى مكتبة والده .

انشغل بالقانون الرومانى والقانون الكنسى واضطره الفقر إلى الاشتغال بالمرافعات القضائية فى ساحات المحاكم ، وفى ذلك الوقت تدهورت صحته وشعر بالاشمئزاز من صخب ساحات القضاء ، وقلت موارد أسرته واشتعلت فيه رغبة التفرغ للدراسة ، فكانت فرصة سانحة عندما عرض عليه أحد الأساقفة من عائلة روكا *Rocca* أن يعمل مدرساً لابن أخيه فى قلعة تشيلنتو *Cilento* في فاتولا وهى تتميز بالموقع الجميل والمناخ الصحى الذى أفاد صحة ڤيكو كثيراً . ولم يجد من معاشرته لهذه الأسرة سوى المعاملة الكريمة فكان بمثابة أحد أبنائها . عاش فى هذه القلعة لمدة تسع سنوات ، ووجد الفراغ الكافى للدراسة فعكف على دراسة القانون الطبيعى للشعوب ، وبدأ بأصول القانون الرومانى والقانون المدنى للأمميين ، ودرس اللغة اللاتينية وبدأ بمؤلفات شيشرون ثم الشعراء اللاتين مثل فرجيل وهوراس وغيرهم[1] .

(1) Vico; Autobiography; p. 117 - 119.

عاد ڤيكو بعد ذلك إلى نابولى عام ١٦٩٥ ليجد أن ديكارت قد تربع على عرش الفكر وسادت فلسفته العقلية فى جامعات نابولى ، فكان إحساسه بعد العودة احساس الغريب فى وطنه ، وبعد أربع سنوات وفى عام ١٦٩٦ تولى منصب كرسى البلاغة بجامعة نابولى وظل فى هذا المنصب حتى عام ١٧٤١ .

عانى ڤيكو كثيراً من الفقر والأزمات المادية ، وكان أجره زهيداً متواضعاً فظل يأمل فى تحسين أحواله المادية ، وتقدم عام ١٧١٧ لمسابقة أكاديمية للفوز بمنصب كرسى القانون المدنى الذى كان شاغراً ولكنه أخفق ، ولم يكن اخفاقه فى الفوز بهذا الكرسى لسبب يتصل بكفاءته العلمية ، بل كان راجعاً لعدم معرفته بلعبة السياسة الاكاديمية التى لم يفكر فى خوضها ، ولهذا عكف على بحث فى القانون ليتقدم به فى المسابقة التالية .

لم تكن كتابات ڤيكو حتى ذلك الوقت إلا بالتكليف من بعض الأمراء ، إذ عهد إليه ابن أحد الأمراء بكتابة تاريخ عمه مارشا كارافا *Marshat Carafa* ونشر هذا الكتاب عام ١٧١٦ . وقد اطلع أثناء تأريخه لهذه الأسرة على كتاب جروسيوس (١٥٨٣ - ١٦٤٥) " قانون الحرب والسلام " ، كما كلفته الدولة بتأريخ مؤامرة ماكيا *Macchia* فكتب مقالاً لم يُنشر .

وسعياً وراء الكسب وبدافع من الفقر والعوز وضع ڤيكو كتابات مرتبطة بمناسبات خاصة كخطب المديح والخطب الجنائزية وقصائد الزفاف ، بالإضافة إلى محاضراته فى البلاغة والخطب الأفتتاحية التى بلغ عددها ست خطب كتبها باللغة اللاتينية وتبنى فيها مبادىء تربوية تؤمن بتحديث التراث الإنسانى ، وقد نُشرت إحدى هذه الخطب فى كتاب تحت عنوان " مناهج الدراسة فى عصرنا " عام ١٧٠٩ ثم كتب بعد ذلك رسائل عن الشعر والشعراء مثل دانتى ، ورسائل عن ديكارت ورسائل دفاع عن العلم الجديد ضد معارضيه . وفى عام ١٧١٠ كان كتابه " الحكمة الايطالية القديمة " أول مؤلف يكتبه بدون تكليف وبغير ارتباط بالمناسبات ، وقد قدم

فيه نظرية جديدة فى المعرفة والميتافيزيقا (تعارض نظرية ديكارت) رأى فيها ياكوبى *Jacobi* (١٧٤٣ - ١٨١٩) فيما بعد حدساً بمذهب كانط فى المبادىء القبلية للإدراك الحسى والعلم الطبيعى .

والواقع أن دراسات ڤيكو سواء كانت لغوية أو أدبية أو فلسفية أو قانونية أو تاريخية كانت ارهاصاً لفلسفة المجتمع البشرى . ففى أثناء اعداد نفسه لكرسى القانون المدنى الذى خلا فى يناير عام ١٧٢٣ ألف المسودة الأولى لهذه الفلسفة تحت اسم " القانون العالمى " وجعل شعاره عبارة مشهورة من كتاب " القوانين " لشيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق . م) : " ان علم القانون ليس مستمداً من قرارات إدارية ، كما يعتقد أغلبية الناس ، ولا من قانون الألواح الأثنى عشر ، كما اعتقد البعض قديماً ، ولكنه مستمد من أعمق أعماق الفلسفة " وأصدر ڤيكو مؤلفه " القانون العالمى " فى ثلاثة أجزاء ، ظهر الجزء الأول منها عام ١٧٢٠ والثانى عام ١٧٢١ والثالث عام ١٧٢٢ ، وكان أحد فصول هذا الكتاب بعنوان : " محاولة عن العلم الجديد " . وتقدم ڤيكو بمؤلفه هذا للمسابقة ، ولكنه أخفق للمرة الثانية . ولعل من سخرية القدر أن يفوز فى المسابقة أفاق يُدعى دومينيكو جنتيله *Domenico Gentile* وقد كان زير نساء يهتم بمغازلة الخادمات حتى انتهت حياته بالانتحار مع إحداهن ، ولم يسبق له أن كتب شيئاً يستحق الذكر عدا محاولته الوحيدة فى وضع كتاب فشل بسبب انتحاله . ذهبت كل آمال ڤيكو فى الفوز بهذا المنصب ولم يعد الكرة مرة أخرى ، وما كان منه إلا أن هجر اللغة اللاتينية ، وهى لغة العالم الأكاديمى فى ذلك الحين ، أى لغة المنصب الذى يشغله (كرسى البلاغة) والمنصب الذى كان يريد أن يشغله (كرسى القانون المدنى) وتحول إلى الإيطالية لغة أهله ومواطنيه .

وبشخصيته المثابرة العنيدة ارتفع فوق كل هذا الاحباط الذى صادفه فى حياته ، وآمن بأنه قد اهتدى إلى فكرة علم جديد وضع يديه على بدايته بحيث لا يحتاج منه إلا أن يؤصله ويتفرغ له . وبعد أن كان العلم الجديد فصلاً فى الجزء الأول من مؤلفه " القانون العالمى " - الذى قال عنه جنتيله ، منافسه فى منصب

القانون المدنى ، أنه غيرمفهوم ويكاد أن يكون ملحقاً للدراسات التشريعية[1] أفرد له ڤيكو مؤلفاً خاصاً وآمن فى هذه الفترة بأن العناية الآلهية وحدها هى التى هدته إلى هذا الكشف الجديد ، وعكف على هذا المؤلف وبذل أقصى جهده حتى انتهى من الجزء الأكبر من العلم الجديد فى أواخر عام ١٧٢٤ وأطلق عليه اسم " العلم الجديد فى صورته السلبية " وفيه ينقد أصحاب نظريات القانون الطبيعى ، أمثال جروسيوس وسيلدن وبافندروف (١٦٣٢ - ١٦٩٤) ، والمذاهب النفعية للرواقيين والابيقوريين ، كما يوجه نقده لهوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) وأسبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) ولوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) وفى ديسمبر من العام نفسه حصل ڤيكو على تصريح من الكاردينال لورنسو كورزينى *Lorenzo Corsini* باهداء الكتاب له ، وقد وعده الكاردينال - كما جرت العادة فى ذلك الوقت - بتحمل نفقات الطباعة والنشر .

وبينما كان فيكو مشغولاً بإتمام كتابه تلقى دعوة من أحد نبلاء البندقية بورشيا *Porcia*[٢] لكتابة سيرته الذاتية ، رفض ڤيكو فى البداية عدة مرات إلا أنه وافق بعد إلحاح ، وبعد أن انتهى من اعداد كتابه " العلم الجديد فى صورته السلبية " فى ١٥ يوليو ١٧٢٥ وفى انتظار أن يفى الكاردينال بوعده كتب الجزء الأول من سيرته الذاتية . ولكن سوء الحظ الذى لازم ڤيكو كظله صفعه مرة أخرى بتخلى الكاردينال عن وعده بتحمل نفقات الطباعة والنشر . وقد كانت صفعة تعادل ضربة القدر عندما أخفق فى الفوز بمنصب كرسى القانون المدنى قبل ذلك التاريخ بعامين .

(1) Ibid; p. 11.

(٢) بورشيا أحد نبلاء البندقية تولى مشروعاً لاصدار كتاب يتألف من ٥٠٠ صفحة يصدر كل ثلاثة شهور بعنوان (مجموعة دراسات علمية وفيلولوجيه) يتضمن مقالات فى شتى المجالات من العلوم الطبيعية والفن واللاهوت والتاريخ المقدس والرياضيات والشعر . ومن بين هذه المقالات جزء خاص بعنوان (اقتراحات الباحثين الايطاليين) يعرض فيه كبار المبدعين والمفكرين سيرتهم الذاتية ليحتذى بها الطلاب ، ويروى كل كاتب ظروف ميلاده ونشأته والثقافة التى تلقاها ويعبر عن رأيه الحر فى المناهج الدراسية للوصول لما هو أمثل ثم يتدرج إلى مادة تخصصه من علم أو فن وقصة كفاحه مع الحياة ، وقد انتشرت هذه الفكرة فيما بعد فى سائر أنحاء أوروبا .

واهتدى ڤيكو- أثناء تعثر الطبع والبحث عن ناشر - إلى أن الكتاب بمنهجه السلبى خطأ وأنه لو أعيدت كتابته على أساس منهج إيجابى لاختصره لربع حجمه ولحقق بذلك كسباً عظيماً . وآمن ڤيكو ان إخلاف الكاردينال لوعده كان بتدبير من العناية الإلهية مرة أخرى حتى يصدر الكتاب فى صورة أفضل . وعكف على إعادة صياغة الكتاب طوال شهرى أغسطس وسبتمبر فكانت الطبعة الأولى بعنوان " مبادىء العلم الجديد الخاص بالطبيعة المشتركة بين الأمم والذى يسمح باكتشاف مبادىء نسق آخر للقانون الطبيعى للشعوب "[1] . واجتهد ڤيكو أن يصدر الكتاب بامكانياته المتواضعة فى أكتوبر عام ١٧٢٥ ومعه اهداء لنفس الكاردينال الذى نكث عهده معه من قبل . وأرسل له نسخة من الكتاب مع خطاب رقيق يقول له فيه : " كنت أود أن أرسل لسموك نسخة فى طباعة أفخم وتغليف أفخر وحروف أوضح ولكن ضعف امكانياتى لم يسمح لى إلا بهذا "[2] . بيد أن الكاردينال أهمل الكتاب ولم يقرأه بل أعطاه للماركيز كابونى *Capponi* . وبعد موت هذا الأخير ظل الكتاب مع بقية مخلفات الماركيز فى مكتبة الفاتيكان حتى اليوم .

وفى ديسمبر عام ١٧٢٥ وبعد نشر الطبعة الأولى من العلم الجديد كتب ڤيكو الجزء الثانى من سيرته الذاتية ، وهى سيرة طريفة يروى فيها تفاصيل مشوقة عن مراحل تطوره العقلى والجهود المضنية التى بذلها لإخراج كتابه العظيم " العلم الجديد " . غير أن هذا العمل المبدع لم يلق من أبناء عصره إلا التجاهل والجحود ، وقد عبر ڤيكو عن ذلك فى رسالة له لأحد أصدقائه الرهبان شرح له فيها كيف ان كتابه لم يجد صدى فى مدينته ومسقط رأسه التى وصفها بالتبلد ، وان من أهدى إليهم كتابه لم يترك لديهم أثراً ولا أدنى استحسان ، وكأن الكتاب قد سقط فى صحراء قاحلة . ويذكر ڤيكو فى رسالته أن كل أعماله السابقة كان لها غايات محددة

---

(1) " P rinciples of New Science of Giambattista Vico Concerning the Common Nature of the Nations by which are found the principles of another system of the Natural Law of the Gens ".

(2) Vico; Autobiography; p. 13.

وهى شغل أحد الكراسى بالجامعة ، ولكن هذه الأخيرة اعتبرته غير كفء مما جعله يعكف على علمه الجديد وهو الكتاب الوحيد الذى تمنى أن يبقى بعد موته . وقد أثبت التاريخ صدق حدسه ، وعبر فى رسالته أيضاً عما لقيه فى حياته من سوء الحظ وطعنات الحقد وفساد الحياة الثقافية فى عصره . ولكنه بعد أن أتم كتابه شعر أن العناية الإلهية كانت رحيمة به ، وأنها قد توجت آلامه بتاج العلم الجديد مما جعله ينسى كل ما صادفه من عذاب وبؤس وفقر وشقاء فكتب يقول : " أمدنى هذا الكتاب بروح بطولية حتى أننى لم أخش المنافسين بل لم أعد أخشى الموت نفسه " .

ولم يمر يوم ١٠ مارس من عام ١٧٢٨ إلا وأرسل ڤيكو الجزء الثانى من سيرته الذاتية لبورشيا مع تصحيح واضافات للجزء الأول ، هذه السيرة التى لم تكن من قبيل السير الذاتية الأدبية بل تميزت بطابع تعليمى يجعلها قدوة لطلاب المدارس وناشئة الباحثين . وفى العام نفسه طلب منه الناشر إعادة طبع " العلم الجديد " فى البندقية طبعة جديدة تكون أحسن حظاً فى الطباعة والتغليف وبحروف أوضح مع كتابة شروح ومقدمة للكتاب تلقى الضوء على فكرته[1] ، واعتكف ڤيكو ما يقرب من عام ونصف العام لإضافة تعليقات وهوامش للنص الأصلى وأرسل إليه المخطوطة فى أكتوبر عام ١٧٢٩ . ولكنه اختلف مع الناشر على ما وصفه الأخير بأنه تكرار غير مترابط للكتاب واسهاب فى التفاصيل فضلاً عن صعوبة فهمه ، مما دعا ڤيكو إلى استعادة مخطوطته فكان هذا آخر عهده بالناشرين فى البندقية . وبذلك واجه ما واجهه من قبل عندما أخلف الكاردينال وعده ، فى الوقت الذى كان يعانى فيه من جحود النقاد وهجومهم على العلم الجديد واعتلال صحته بجانب المتاعب التى واجهته فى بيته ، فقد كان له أربعة أبناء لويزا الأبنة الكبرى وكانت شاعرة مرهفة الحس ، والابن الثانى وهو ابن عاق اقترف كل الآثام فكان مصدر شقاء لأبيه الذى بذل ما فى وسعه لتقويمه ووضعه على الطريق السليم ولكن ضاعت جهوده هباء ، وقضى الابن سنوات طويلة من عمره فى السجن بعد أن طاردته الشرطة ، ولم يصغ

(1) Ibid; p. 184.

لتوسلات أبيه للعدول عن طريق الضلال إلى أن مات هذا الابن فى ١٧٣٦ ، وفى غمرة شقاء الأب بعقوق ابنه الأكبر مرضت ابنته الصغرى مرضاً شديداً حفر فى نفسه حزناً عميقاً لأنه كان شديد التعلق ببنتيه اللتين وجد فيهما عوضاً عن ابنه الضال . أضف إلى هذا ما سببه له هذا المرض من ارهاق مادي[1] أما جنيارو ثالث أبنائه فقد شارك والده اهتماماته الفكرية إلى أن خلفه فى القاء محاضرات البلاغة فى الجامعة . وعلى الرغم من هذه المعاناة تمكن ڤيكو بعناده المعهود وإيمانه بعلمه الجديد من إعادة صياغة الكتاب باكمله على أساس خطة جديدة ، فكانت الطبعة الثانية التى اختصر فيها العنوان عما كان عليه فى الطبعة الأولى فأصبح " مبادىء العلم الجديد الخاص بالطبيعة المشتركة للأمم " .[2] ونشرت هذه الطبعة الثانية فى ديسمبر عام ١٧٣٠م مطبوعة بصورة لم تكن أكثر حظاً من سابقتها ولنفس السبب وهو فقر مؤلفها .

فى ١٧ مايو ١٧٣٠ التحق فيكو باكاديمية *Assorditi* ، وكان قد التحق من قبل عام ١٧١٠ باكاديمية اركاديا *Arcadia* وهى أكاديمية علمية أدبية ، وفى عام ١٧٣٥ التحق باكاديمية *Oziosi* وفى نفس العام عُين مؤرخاً ملكياً للملك شارل بوربون الذى غزا نابولى ١٧٣٤ وجدير بالذكر هنا أن مملكة نابولى تعاقب عليها ثلاثة نظم ملكية فى عصر ڤيكو ، فقد حكمها نواب ملوك أسبانيا من عام ١٥٠٩ إلى ١٧٠٧ ثم حل الحكم النمسوى محل الحكم الأسبانى من عام ١٧٠٧م وحتى غزو شارل بوربون لنابولى ١٧٣٤ . ويذكر بعض المؤرخين أن الحكم الملكى المستنير ساد فى عهد هذا الأخير . وفى عام ١٧٤١ بدأ ڤيكو يعانى من ضعف صحته وذاكرته فتوقف عن دروسه الخصوصية وتوقف أيضا عن إلقاء محاضراته فى الجامعة . وتقدم بطلب إلى الملك ليتابع ابنه محاضراته فى الجامعة ، فخلفه ابنه الثانى جينارو *Gennaro* فى الأستاذية .

---

(1) Ibid; p. 203.

(2) " Principles of the New Science Concerning the Common Nature of Nations ".

وتوفر ڤيكو فى آخر سنوات عمره على كتابة اضافات لسيرته الذاتية وأيضا اضافات وتعديلات لكتابه الأساسى " العلم الجديد " وانتهى منها عام ١٧٤٣ وأرسلها للمطبعة فكانت الطبعة الثالثة عام ١٧٤٤ ، ولكنه توفى فى يناير ١٧٤٤ قبل أن يشهد الطبعة الثالثة لعلمه الجديد الذى كان الهدف الأوحد لحياة مؤلفه فلم تكن السيرة الذاتية مجرد تتبع الخطوات التى أدت به للوصول إلى العلم الجديد وإنما كانت أيضا ، كما لاحظ كروتشه ، تطبيقاً للعلم الجديد على حياة مؤلفه .

وقضى ڤيكو أيامه الأخيرة معتكفاً فى بيته هادئاً صامتاً فى أحد الأركان ، غير قادر - فى أحيان كثيرة - على التمييز بين الأشخاص أو الأشياء . وحين اقتربت النهاية استرد وعيه وتعرف على أولاده الذين التفوا حوله . وحين شعر بقرب النهاية استدعى القسيس ليكون بجانبه فى اللحظات الأخيرة ، وأخذ يصلى ويتلو مزامير داود إلى أن أسلم الروح فى سلام فى ٢٠ يناير ١٧٤٤ . ولقد لاحقه سوء الحظ الذى لازمه فى حياته حتى بعد وفاته . فقد كانت تقاليد الجامعة الملكية تقضى بأن يصطحب الأساتذه رفات زميلهم الراحل لمثواه الأخير ، وعندما حانت ساعة الجنازة حضر زملاؤه الأساتذة وزملاؤه فى الأكاديمية وتم نقل الرفات إلى فناء الدار ووضعت عليه علامة الجامعة الملكية . ولكن ما لبث أن دب الخلاف بين زملاءالجامعة وزملاء الأكاديمية ، إذ رفض أعضاء الأكاديمية أن يحمل أساتذة الجامعة الجثمان وانتهى الخلاف بانسحاب أعضاء الأكاديمية تاركين الجثمان ، ولم يستطع أساتذة الجامعة الملكية أن يقوموا بالطقوس الجنائزية بمفردهم فأعيد الجثمان إلى مكانه . وحزن ابنه جينارو حزناً شديداً فقام فى اليوم التالى بالاتفاق مع الكاتدرائية على نقل الجثمان إلى مثواه الأخير وتحمل النفقات الزائدة ، ودفن ڤيكو فى ركن منزو من الكنيسة وظلت رفاته مجهولة وغير معروفة حتى عام ١٦٨٩ حين قام ابنه بعمل نقش على قبر والده وسجل فى هذا النقش اسم جامباتيستا ڤيكو استاذ البلاغة الملكى والمؤرخ الملكى ، كم كان رقيقاً فى حياته عظيماً فى كتاباته ، توفى فى٢٠ يناير عام ١٧٤٤ عن ستة وسبعين عاماً .(١)

(1) Vico; Autobiography; p. 206 - 208.

وقد جمع ابنه جينارو السيرة الذاتية والاضافتين التاليتين لها اللتين لم تنشرا ووجدتا بين أوراقه بعد وفاته عام ١٨٠٦ وسلمها للماركيز فيلاروزا *Villarosa* الذى تعهد بنشرها والحق بها هو الآخر بعض الاضافات التى جمعها من بعض الروايات الشفوية وبعض الاشاعات عنه . وأيا كان الرأى فى هذه الاضافات فهى تعد المرجع الوحيد عن السنوات الأخيرة من حياة فيكو .

ثانياً : بداية التفكير التاريخى فى القرن الثامن عشر :-

يعرف القرن الثامن عشر بأنه عصر التنوير وسيادة فلسفة عقلية تجريبية تتخذ من الميتافيزيقا والدين موقفاً نقدياً حراً وتهتم بالرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعى والجغرافيا والطب ، فلسفة تؤمن بالتقدم وتسعى إلى التجديد في كل شيء ، تحدوها ثقة مطلقة فى العقل ويدور التفكير فيها حول الإنسان ، ولهذا كان الاهتمام بالتاريخ فى هذا القرن مظهراً من مظاهر الاهتمام بالإنسان .[1] وتعد سيطرة النزعة الإنسانية في هذا القرن رد فعل لما ساد أوروبا فى العصور الوسطى من سيطرة الكنيسة وقتلها روح الاجتهاد بنظرتها للإنسان كمخلوق ضعيف وتسليمها بعجز العقل البشرى وضعف الإرادة الإنسانية مما جعل الإنسان بحاجة إلى عقل أسمى من عقله وإرادة أقوى من إرادته ألا وهما العقل الإلهى والإرادة الإلهية التى تسير التاريخ البشرى . كانت إحدى النتائج المترتبة على هذا التفكير كما يقول كولنجوود[2] (١٨٨٩ - ١٩٤٣) فى كتابه فكرة التاريخ أن المؤرخين زعموا بأن فى مقدورهم التنبؤ بالمستقبل وانهم انصرفوا إلى البحث عن جوهر التاريخ خارج نطاق التاريخ نفسه ، وبذلك انصرفوا عن أعمال الإنسان للبحث عن الخطة التى رسمتها المقادير لتوجيه أحداث التاريخ .

هكذا كانت المشكلة الرئيسية التى عرض لها التفكير فى ذلك الوقت تتعلق بفلسفة الأديان ، فتناولت الصلة بين الله والإنسان ، وانتشر التفسير الدينى الذى

---

(١) د. أحمد صبحى ، فى فلسفة التاريخ ، ص ٨٢ .

(٢) كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ص ١١٦ .

ساد فيه الإيمان على العقل كما يقول القديس انسلم (١٠٣٣ - ١١٠٩) " أنا لا أعقل لأومن وإنما أومن لأعقل " وبذلك جعل العقل تابعاً للإيمان يسبح بتعاليمه ولا يجد منه مخرجاً ويجعل نفسه حبيس الحدود الدينية .(١)

ولما جاء القرن السادس عشر انصرف الفكر إلى وضع أسس العلوم الطبيعية . وكان الموضوع الرئيسي الذى عرضت له الفلسفة هو العلاقة بين العقل الإنسانى ، بوصفه أداة التفكير ، وبين الكون المادى من حوله بوصفه موضوع التفكير ، ومن ثم جاء التفكير التاريخى - على الرغم من الاهتمام بالماضى والتراث - تفكيراً بدائياً ضعيفاً من حيث النقد والتحليل فلم يستهدف الدراسة العلمية الدقيقة للحقائق التاريخية ، حتى جاء القرن الثامن عشر فبدأ الاهتمام بدراسة التاريخ على أسس من النقد والتحليل ولم تكن حركة الاستنارة ، كما قال كولنجوود(٢) ثورة ضد سلطان الديانة التقليدية فحسب ، بل ضد الدين كيفما كان ، فقد اعتبر فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) نفسه قائد حملة تستهدف القضاء على المسيحية ، إذ اعتبر أن الدين دالة على كل ما هو رجعى بربرى فى الحياة الإنسانية . كان هدف عصر التنوير انهاء العصر الدينى فى تاريخ الحياة البشرية وبداية عصر جديد متعقل ، وكان القرن الثامن عشر بداية التفكير الحر بالقدر الذى سمح بتقديم علوم كثيرة منها العلوم التجريبية والدراسات التاريخية . وإذا كانت فلسفة التاريخ لم تظهر بصورة واضحة إلا فى القرن الثامن عشر على يد ڤيكو ، إلا أن هناك بدايات للتفكير التاريخى قبل ذلك ساعدت ڤيكو بطريقة غير مباشرة على بلورة أفكاره الرئيسية فى فلسفة التاريخ ، على الرغم من أن هذه البدايات يمكن أن توصف بأنها ارهاصات ساذجة لم تتخذ الشكل العلمى وأن كانت دفعات قوية للاهتمام بالدراسات التاريخية كما فى حركة الاصلاح الدينى التى تزعمها مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) .

وإذا كانت حركة الاصلاح الدينى قد ساعدت ، كما ساعد أصحاب النزعة

---

(١) د. عبد العزيز عزت ، فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، ص ١٧ .

(٢) كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ص ١٤٨ .

الإنسانية بوجه عام ، على احياء تراث المؤلفين والكتاب القدامى والاقتداء بنماذجهم ونشر مخطوطاتهم وتيسيرها للعلماء والدارسين ، فان حركة الاصلاح المضادة قد اضطرت هى الأخرى إلى محاربة التاريخ بالتاريخ ، مما اتضح أثره فى تأسيس علوم تاريخية مساعدة كعلم النقوش أو الكتابة القديمة (الباليوجرافيا) *(Paleography)* الاغريقية واللاتينية الذى أسسه كل من مابيلون *Mabillon* ومونتفيكون *Montfaucon* ، فنشر مابيلون كتابه عن الوثائق *"De re diplomatica* عام ١٦٨١ ووضع فيه نظام الوثائق والباليوجرافيا اللاتينية . وبعدها بأربع سنوات وكان ڤيكو يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً – عكف مابيلون فى نابولى على البحث عن الكتب والمخطوطات ، وحضر مونتفيكون أيضاً لنابولى عام ١٦٩٨ وصدر كتابه " النقوش الاغريقية " *Palacographia Gracca* عام ١٧٠٨ وقد قدم كلاهما اسهامات فى التاريخ الفرنسى وتجاوزت أعمالهما فى عصر ڤيكو كل الأعمال السابقة لها من حيث الدقة والشمول .[1]

ولابد من القول ان كل ما تمخضت عنه حركة الاصلاح الدينى والاصلاح المضاد لم يؤد إلى دراسة التاريخ بالمعنى الحديث ولم يتعد تهيئة الأدوات والمواد المساعدة على دراسته ، كما يمكن القول بأن نشأة الدول القومية الأوروبية وحاجتها إلى مؤرخين قد جعلت المؤرخين الايطاليين يتأثرون بفيلسوف العصر ليبنيز (١٦٤٦ – ١٧١٦) فكتب موراتورى *Muratori* الذى كان أمين مكتبة نابولى ، تاريخ أسرة إسته *Este* على غرار التاريخ الذى كتبه ليبنتز لأسرة برونشفيك *Brunswick* ولكن ظلت الغاية الأساسية من التاريخ عند ليبنتز مثل الغاية النهائية من الشعر أن يعلمنا الحكمة والفضيلة عن طريق الأمثلة التى يقدمها لنا من خلال التاريخ وأن يعرض الرذيلة فى صورة تدعو إلى تجنبها وكراهيتها . ساهم أصحاب النزعة الانسانية فى عصر النهضة فى نشر مؤلفات الكتاب القدامى وبعث التراث الكلاسيكى فى البلاغة والأدب والنحو والفلسفة والتاريخ ، فاهتموا بنشر كتابات المؤرخين الرومان مثل

---

(1) Vico; Autobiography; p. 21 - 22.

ليفيوس (٥٩ ق . م ١٧م) وتاسيتوس (٥٥ - ١٢٠م) لاستخلاص ما فيها من عبرة وقيم تربوية وتعليمية وأخلاقية ، وتاريخ بلوتارك (٤٦ - ١٩٠) الذى يزخر بالشخصيات العظيمة مثل الاسكندر وهانيبال وقيصر ، غير أن النزعة الإنسانية قد اقتصرت على النظر للتاريخ نظرة عملية أخلاقية بحيث لم تظهر لديها النظرة العلمية .

ثم كان كتاب بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) " تقدم العلم " بداية الانتقال من الناحية الفلسفية إلى الناحية التاريخية ، من النظر إلى العمل ، وفيه وجه بيكون الأنظار إلى ضرورة الاهتمام بالتاريخ بجانب الاهتمام بالأخلاق . وبالرغم من قول بيكون " أن المعارف كالأهرامات قاعدتها التاريخ " إلا أنه لم ينظر للتاريخ بوصفه مبادىء لفلسفة اخلاقية وتم الانتقال من النظر للتاريخ كمصدر للعظة الأخلاقية والتربوية ، واعتباره رصيداً نافعاً يستخلص منه القدوة والمثل ، إلى الاهتمام بدراسة الوقائع التاريخية نفسها وكيفية دراسة التاريخ دراسة علمية .[1] ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا أن هذا التحول بدأ عند هوبز متأثراً بما وصلت إليه علوم الطبيعة من الدقة والاحكام . فتطور علوم الطبيعة ووصولها إلى اليقين والدقة والاحكام فى مناهجها على أيدى رواد العلم الحديث خاصة جاليليو وبعده نيوتن ، جعل المؤرخين يحاولون بالتدريج أن ينظروا إلى عملهم نظرة علمية ويحاولوا أن يصلوا فيه إلى اليقين .

واستمر هذا الانتقال إلى النظرة العلمية للتاريخ عند الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز ، فقد تحول فى بداية حياته عن المناهج المدرسية وتعمق دراسة الكتاب القدامى من اغريق ورومان ، وخاصة المؤرخين والشعراء والفلاسفة وبوجه أخص مؤلفات أرسطو فى الأخلاق والسياسة ، واتجه إلى هوميروس وترجم الالياذة ، واهتم بقراءة توكيديديس (٤٦٠ - ٣٩٦ ق . م) الذى اعتبره أهم المؤرخين السياسيين وترجم كتابه عن الحرب الأهلية (البليبونيزيه) بين اثينا واسبرطه ، وكان هوبز عند

---

(1) Ibid; p. 24.

ترجمته هذا الكتاب لا يزال ينظر للتاريخ من ناحيتيه الأخلاقية والتربوية ويؤكد على أهمية دراسة الماضى بالنسبة للحاضر والمستقبل . ثم عكف هوبز بعد ذلك على دراسة اقليدس (٣٦٥ - ٣٠٠ ق . م) وجاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) وتوصل إلى نظرية فى المعرفة قابل فيها بين العلم باعتباره معرفة بالنتائج أو معرفة مشروطة وبين المعرفة المطلقة أو معرفة الوقائع التى يسجلها التاريخ ، ولكنه ظل حتى النهاية على رأيه فى أن التاريخ ليست له إلا قيمة أخلاقية بل لقد استبعد المعرفة التاريخية من كتابيه " التنين " و" الجسم " ثم انتهى إلى رأى فى التاريخ يشبه رأى ديكارت ، الذى يحتمل أن يكون قد تأثر به ، وهو أن التاريخ مجرد حكايات يمكن أن تساعدنا ، كما تساعدنا الأسفار والرحلات ، على تكوين أحكامنا والارتقاء بعقولنا وتعريفنا بعادات الأمم الأخرى ، ولكن الإمعان فى قراءة التاريخ قد يجعل صاحبه يعرف العادات السيئة فى الماضى مع جهله كل الجهل بالعادات السائدة فى الحاضر ، وقد انتهى الأمر عند ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) إلى التفرقة بين المعرفة العقلية الدقيقة القائمة على أسس رياضية وبين المعرفة التى تقوم على الخبرة البشرية كما نجدها فى معرفة اللغات والتاريخ والجغرافيا التى تثقل فى رأيه ذاكرة الإنسان بأعباء غير ضرورية وبذلك يكون ديكارت قد تشكك فى القيمة العلمية للتاريخ وقلل من شأنه .

والخلاصة أن حركة الاصلاح الدينى والاصلاح المضاد ونشأة الدول القومية ساعدت جميعاً على دراسة التاريخ كما ساعدت على احياء البحث التاريخى والاهتمام بالمؤرخين والكتاب القدامى بحيث ظهرت مؤلفات عديدة كانت فى الواقع مجاميع تضم ذخيرة من الوثائق والنقوش القديمة ولكنها لم تكن تاريخاً بالمعنى الدقيق ، أضف إلى هذا ما ذكرناه من قبل من أن أصحاب النزعة الإنسانية قد شجعوا الاقبال على دراسة التاريخ القديم أو بالأحرى نشر كتب المؤرخين القدامى ولفتوا الأنظار إلى فائدة التاريخ . لكن المؤرخين الذين كتبوا بهذا الأسلوب لم تكن كتاباتهم دقيقة ولم تكن لهم دراية بالوقائع التاريخية ، أما نزعة الشك فى اصالة الوثائق التاريخية - وهى النزعة التى تأثرت بشك ديكارت - فلم ترق إلى مستوى

الشك النقدى أو المنهجى ولم تحاول أن تضع الفروض التى تختبرها بطريقة صحيحة بحيث انصب اهتمام المؤرخين فى تلك الفترة على معرفة ما تم فى الماضى لا على معرفة كيف تم وكيف تطور حتى وصل إلى حالته ، أى أنه لم يخرج من الرواية التاريخية إلى التفسير والتعليل وبالتالى تفسير حركة التاريخ على أساس فروض ومبادىء تبين وجهته ومساره .

ولعل الكتاب الذى جمع بين هاتين الناحيتين هو كتاب جانونه *P. Giannone* عن التاريخ المدنى لملكة نابولى ، فكان الكتاب الوحيد الذى قدم تاريخاً عاماً اهتم فيه بالقوانين والنظم الاجتماعية كما أكد نظريته النقدية ، خاصة فيما يتعلق بتاريخ السلطة الكنسية . وقد نشأ ڤيكو فى نفس البيئة الثقافية التى نشأ فيها جانونه فكانت نابولى فى ذلك الحين مزدهرة بالثقافة والتفكير الحر والحماس الوطنى وانتعشت فيها الفلسفة الابيقورية والنزعة الذرية .

ثالثاً- الاتجاهات الفكرية فى فلسفة ڤيكو :-

هكذا نشأ ڤيكو في المجتمع الايطالى فى زمن كانت فيه نابولى ملتقى تيارات ثقافية عديدة ، فدرس في صباه المذهب الذرى والابيقورى ، الذى كانت نابولى فى ذلك الحين مركزاً له ، وتأثر تأثراً كبيراً فى بداية حياته بالفلسفة الذرية القديمة عند ديمقريطس وأبيقور ولوكريتوس (٩٤ / ٩٩ - ٥١ / ٥٥ ق . م) وخاصة هذا الأخير . يظهر هذا جلياً في قصيدته " عواطف يائس " التى كتبها فى شبابه المبكر عام ١٦٩٢ متأثراً بدراساته للوكريتوس وقصيدته الكبري " طبائع الأشياء " وعبر فيها عن تأثره بشخصية هذا الشاعر الرومانى ومزاجه المكتئب ، وقرأ الكلاسيكيين أمثال أفلاطون وأرسطو وتاسيتوس . كما توفر كذلك على دراسة مذاهب السابقين لعصر النهضة ورواد النزعة الطبيعية الحديثة (أمثال تيلزيو وبرونو وكامبانيلا) كما أثر عليه المنهج العلمى التجريبى عند جاليلو وبيكون وبويل (١٦٢٧ - ١٦٩٢) تأثيراً قوياً . ولا ننسى أن هذا العصر هو عصر سيادة الفلسفة العقلية لديكارت وهوبز وأن

الفكر المسيطر كان فكر ديكارت ومعارضه جاسندى (١٥٩٢ - ١٦٥٥) اللذين لم يجتمعا إلا على شيء واحد ألا وهو معارضتهما لأرسطو وجالينوس (١٢٩ - ١٩٩) والمدرسيين .

كل هذه التيارات الفكرية مجتمعة كانت هى الفكر السائد في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وهى الفترة الزمنية التى عاشها ڤيكو والتى انتشرت فيها تيارات فلسفية جديدة للاعلاء من شأن العلم وتمجيده . ولم تكن مراكز هذه الدراسات الجديدة في الأديرة أو الجامعات وإنما كانت فى بعض الصالونات الأدبية والأكاديميات التى أسسها رواد النهضة الإيطالية على نمط الأكاديميات العلمية فى فرنسا وانجلترا . واتهم أنصار الفلسفة الجديدة من قبل الكنيسة بالالحاد وقدم بعضهم لمحاكم التفتيش التى كانت تجثم على الأنفاس فى ذلك الوقت . وإذا كان ڤيكو لم يذكر شيئاً عن محاكم التفتيش فى سيرته الذاتية رغم نشاطها فى نابولى طوال فترة حياته ، إلا أن كتاباته لا تُفهم إلا من خلال هذه الخلفية القاتمة ، فقد مُزقت المدينة نتيجة الصراع بين المكاتب المقدسة الأسبانية والرومانية التى أخذ الأهالى يقاومونها مطالبين بإبعاد محاكم التفتيش ، وقد انعزلت محاكم التفتيش الأسبانية قبل مولد ڤيكو ، ولكن المحاكم البابوية أو الكاثوليكية استمرت طوال حياته وحتى بعد مماته . ثم لم تلبث هذه المحاكم الاسقفية أن لجأت إلى نفس الأسلوب الذي اتبعته محاكم التفتيش .

وفى عام ١٦٨٨ قدم بعض أصدقاء ڤيكو المقربين إلى هذه المحاكم بتهمة الزندقة . عاش ڤيكو إذن فترة الارهاب الدينى والفكرى التى تصدت فيهامحاكم التفتيش للنهضة الايطالية وكادت أن تخمد أنفاسها ، ولعل هذا - كما يؤكد بعض الباحثين - أن يكون هو سبب لجوء ڤيكو إلى حجب أفكاره بدلاً من توضيحها ، واستخدام أسلوب يغلب عليه الغموض ولاسيما في المواضع التى احتاج فيها إلى اخفاء نزعاته الفكرية عن محاكم التفتيش أو الحكام المستبدين الأجانب من ملوك نابولى سواء كانوا من الأسبانيين أو النمسويين . وإذا كان ڤيكو يزعم فى سيرته

الذاتية أنه نأى بنفسه عن الفلسفة الجديدة أثناء وجوده فى فاتولا من ١٦٨٦ إلى ١٦٩٥ ، إلا أن الواقع يشهد أنه لم يمض عام حتى حضر إلى نابولى وعاش بالقرب من هذه الفلسفة وعلى صلة بها طوال فترة شبابه وتمثلت مبادئها فى تطوره الفكرى وتأثره بالمفكرين القدامى والمحدثين ابتداء من ديمقريطس (٤٦٠ - ٣٧١ ق . م) وأبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق . م) ولوكريتوس حتى ديكارت . وعلى الرغم من انتقاده الشديد للفلسفة الديكارتيه إلا أنه ظل ديكارتياً حتى سن الأربعين ، وهى السن التى تسجل بداية تبلور أفكاره بوضوح وظهور مبدأه الأصلى . والغريب أن أعظم من نقد ديكارت كان هو نفسه أعظم ديكارتى فى ايطاليا . وحتى إذا صدقنا زعمه باعتزال الحياة الثقافية لمدة تسع سنوات فى فاتولا ، فقد كان متأثراً بديكارت وحياته المتوحدة أثناء اقامته فى هولندا إذ قال عن نفسه أنه كتب " المقال في المنهج " بعيداً عن كل أصدقائه معتزلاً كأنه يعيش فى الصحارى المقفرة .

وفى الفترة بين سنتى ١٦٩٩ و ١٧٠٦ كان فيكو لا يزال يشارك ديكارت ومالبرانش (١٦٣٨ - ١٧١٥) فى ازدرائهما للتاريخ الذى لم يرق فى نظرهما إلى مستوى العلم كما عبر عن ذلك فى احدى محاضراته . ولكنه بدأ يتخلص من تأثير ديكارت بعد ذلك بعشر سنوات ، بل بدأ يستنكر أحكامه على علم اللغة على الرغم من اعترافه بفضله فى تحرير العقول من سلطان أرسطو ومناهج المدرسيين ، ويكفى أن نذكر سخريته من ديكارت فى هذه العبارة : " لقد أصبحت دراسة اللغات هذه الأيام تعد فى نظر الناس شيئاً عقيماً لا فائدة منه ، ويرجع هذا إلى سلطان ديكارت الذى يقول أن من يعرف اللغة اللاتينية لن يعرف أكثر مما كانت تعرفه خادمة شيشرون " .

أخذ فيكو بعد تخلصه من تأثير ديكارت يستعيد فى ذهنه عداوته السابقة للتاريخ التى كان متأثراً فيها بديكارت ، ويكفى أن نقرأ الفقرة التالية من فصل بعنوان " محاولة عن العلم الجديد " فى كتابه " القانون العالمى " عام ١٧٢١ لنرى كيف يسخر من إهمال الفلاسفة لعلم اللغة وكيف ينصحهم بالتعمق فيه واستنباط مبادئه الفلسفية : " لقد ظللت طوال حياتى أجد السعادة فى استخدام العقل أكثر

من استخدام الذاكرة ، وكلما ازددت معرفة فى علم اللغة ازددت احساساً بجهلى ، وكان يبدو لى فى ذلك الحين أن ديكارت ومالبرانش كانا على حق عندما قالا أن التعمق فى دراسة اللغة يضر بالفيلسوف ولا يلائمه ، ولكنه كان من الواجب على هذين الفيلسوفين المرموقين أن يشجعا الفلاسفة على دراسة علم اللغة وأن يبحثا امكانية رد هذا العلم لمبادئه الفلسفية " .(١)

وإذا كان هذا يدل على شيء فإنما يدل على اقتناعه فى تلك الفترة بأن دراسة اللغة شرط لا غنى عنه لدراسة القانون واللاهوت ، بل ولتحقيق مجد المسيحية قبل مجد الفلاسفة . أضف إلى هذا أنه بدأ فى هذه الفترة يفكر فى علمه الجديد الذى سيعتمد على المنهج اللغوى اعتماداً كبيراً فى تحليلاته لأصول الكلمات ودلالتها على نشأة الأنظمة الاجتماعية .

رابعاً : موقف ڤيكو من فلسفات عصره :

أولا: موقفه من الفلسفة الديكارتية :ـ

كانت نقطة الانطلاق فى فلسفة ڤيكو هى نقده لنظرية المعرفة الديكارتية ، فقدم نظرية جديدة تعارض بوضوح نظرية المعرفة الديكارتية واحتقار ديكارت للدراسات الإنسانية *Litterae Humanitores* وخصوصاً اللغات والتاريخ ، وتتم معارضته لديكارت عن معرفة لكتابى " المقال فى المنهج " و" قواعد لهداية العقل " . وقد كانت بداية ظهور هذه النظرية فى الخطبة الافتتاحية التى ألقاها عام ١٧٠٨ عند توليه منصب التدريس فى الجامعة بعنوان " مقارنة المناهج الدراسية القديمة والحديثة " ونشرها عام ١٧٠٩ فى كتابه " مناهج الدراسة فى عصرنا " ، وكان رأيه أنه إذا كان المحدثون قد أدخلوا اصلاحات كبيرة على العلوم الطبيعية ، فقد قللوا من شأن الدراسات التى تقوم على الإرادة الإنسانية مثل اللغات والشعر والبلاغة

(1) Ibid; p. 37.

والتاريخ والتشريع والسياسة ، بل حاولوا أن يطبقوا المنهج الرياضي والهندسي على علوم لا تصلح لهما .

ونمت هذه البذور الأولى وتفتحت في شكل نظرية متكاملة للمعرفة أفرد لها كتاب " الحكمة الايطالية القديمة " (١٧١٠) ومنه انطلق في هجومه على نظرية المعرفة الديكارتية وخاصة نظرتها للتاريخ كمجموعة من الحقائق المضطربة وسلسلة رديئة من الحكايات السخيفة .

هاجم ڤيكو الأسس الثلاثة التي استند إليها ديكارت : **أولاً** : الكوجيتو الديكارتي الشهير الذي يستند إلى الوعي الذاتي كمبدأ أول لليقين ، فالكوجيتو في رأي ڤيكو لا يلغي الشك ولا يقدم أساساً للعلم ، لأن الشاك يكون على يقين كاف من تفكيره ووجوده معاً ولكن يقينه هو يقين الشعور البسيط لا يقين العلم . ان الكوجيتو يترك الأمر على هذه الحال ، غير أن معيار الحقيقة كما يراه ڤيكو هو صنعها ، لأن ما نعرفه ونحن على يقين منه هو ما نفعله . فالفعل الإنساني لا الوعي الذاتي هو مبدأ الحقيقة في علم التاريخ ، وليست الأفكار الواضحة المتميزة للعقل هي معيار الحقيقة كما رأى ديكارت ، وإنما المعيار هو صنع الحقيقة . ولهذا فان الفكرة الواضحة المتميزة لا تصلح لأن تكون معياراً لحقائق أخرى ، بل لا تصلح أيضاً في رأيه لأن تكون معياراً لحقيقة العقل نفسه ، لأن العقل عندما يتأمل أو يفهم نفسه لا يصنع نفسه ، ولأنه لا يصنع نفسه فهو يجهل الشكل أو الأسلوب الذي يفهم به نفسه . **ثانياً** : أدلة وجود الله التي تستند إلى وجود معرفة أولية سابقة على التجربة . نقد فيكو كذلك الأدلة العلمية المزعومة على وجود الله ، ولعله قد سبق كانط في هجومه على الميتافيزيقا التأملية الدوجماطيقة التي تزعم أنها تثبت وجود الله بأدلة عقلية بحتة . ويكفي أن نقرأ هذه العبارة لڤيكو في "الحكمة الايطالية القديمة" : "ان الذين يحاولون أن يثبتوا وجود الله بصورة قبلية يرتكبون إثم الفضول البعيد عن التقوى والورع ، لأن من يفعل ذلك يجعل من نفسه إلهاً يصدر حكمه على الله وبذلك ينكر الوجود الإلهي الذي كان يبحث عنه" . **ثالثاً** : اليقين الرياضي كمعيار للوضوح والبداهة وبالتالي كمعيار للحقيقة . لم يطعن ڤيكو في صدق المعرفة الرياضية وإنما

طعن فى نظرية ديكارت للمعرفة بما تضمنته من انكار ألوان أخرى من المعرفة . لذلك طعن فى مبدأ ديكارت القائل بأن مقياس صدق المعرفة هو الفكرة الواضحة المتميزة ، وزعم أن هذا المقياس إن هو إلا مقياس ذاتى سيكولوجى ، فإن ظهر لى أن أفكارى واضحة ففى هذا دليل تصديقى لها . ويرى ڤيكو أن أية فكرة مهما تكن خطأ قد تكون باعثة على اقتناعنا بها ما دامت واضحة كل الوضوح فى حين أنها لا تعدو أن تكون من قبيل الخرافة التى لا أساس لها . ولهذا يري أن ما نحتاج إليه هو قاعدة نستطيع قياساً إليها أن نميز بين ما يمكن معرفته وما لا يمكن .[1]

إن الأساس الذى يقوم عليه يقين القضايا الرياضية التى أخذها ديكارت وأتباعه مقياساً للبداهة ، ليس فى الواقع فى البداهة ذاتها بل فى أن النظم الرياضية هى نظم صنعها البشر أنفسهم ، فالحقائق الرياضية تعلو على التناقض لأنها تصورات واصطلاحات تحكمها رموز وقواعد هى من صنع البشر . والرياضة علم ابتكره الإنسان بعقله ، لذا فإن اليقين الرياضى ليس مسألة بداهة ووضوح كما زعم ديكارت ، وإنما هو علم بنائى أو افتراضى وضعه عالم الرياضيات . وقد أدى الأمر بديكارت إلى اعتبار العلوم يقينية بقدرما تطبق المنهج الرياضى ، وأدى هذا بدوره إلى تصور أن العلوم التى لم تقتصر على التجريدات الرياضية وحدها أقل يقيناً ، فالميكانيكا أقل يقيناً من الهندسة والحساب ، والفيزياء أقل يقيناً من الميكانيكا ، وعلم النفس والتاريخ أقل يقيناً من الفيزياء ، وهكذا ...

ويؤكد ڤيكو أن علم الفيزياء لا يقترب من العلم الحقيقى بتطبيق المنهج الهندسى على طريقة ديكارت ، بل باستخدام المنهج التجريبى الذي طبقه كل من فرنسيس بيكون وجاليليو . ويرجع هذا فى رأيه إلى أن العالِم الذى يقوم بتجربة ما ، يخلق الظروف التى يجمع فيها مشاهداته . كان رأى ڤيكو هذا سابقاً لأوانه وغريباً على عصره لأنه يختلف عن الرأى العام السائد حينذاك ، لذا لم يتنبه أحد لأهمية أفكاره إلا بعد مرور ما يقرب من مائة عام على موته .

---

(١) كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

هكذا ميز فيكو بدقة بالغة بين الحقيقة التي نحصل عليها من الرياضيات والحقيقة التي تخص العلوم التجريبية كالطبيعة . فالطبيعة بالضرورة أقل يقيناً من الرياضيات لأن الطبيعة من صنع الله ، ولهذا فهو وحده القادر على معرفتها معرفة تامة . ويرى الأستاذ اميل بربيه في كتابه تاريخ الفلسفة أن الفكرة الواضحة في نظر ڤيكو هامة بدون شك ولكنها محدودة ، وهي تصور خاص بالرياضيات والمفاهيم الذهنية المجردة . ولكنه يعود في موضع آخر فيؤكد أن الوضوح والتميز رذيلة وآفة للعقل البشري أكثر منه فضيلة ، وأن الفكرة الواضحة فكرة محدودة وقاصرة . ان احساسي بالألم على سبيل المثال ادراك لا أعرف شكله ولا حدوده ، والادراك اللامتناهي يشهد على عظمة الطبيعة البشرية . هذا الجانب الغامض اللامتناهي من الطبيعة الذي يدركه كل المؤرخين والشعراء بالحدس والذي يفسر حياة الإنسان الدينية والسياسية والاخلاقية هوموضوع ڤيكو في كتابه " العلم الجديد في الطبيعة المشتركة للأمم ".[1]

ويرى كل من *Bergin, Fisch* في مقدمتهما لكتاب ڤيكو " مناهج الدراسة في عصرنا " أن نقد ڤيكو للديكارتية ينحصر في النقاط التالية : " ١ " انكار قدرة المنهج الذي عرضه ديكارت في المقال على الكشف والاختراع . " ٢ " اتهام هذا المنهج بأنه أحادي الجانب أي أنه يهتم بجانب واحد في الإنسان وهو العقل . " ٣ " تأكيد ڤيكو أن المنهج التأليفي متفوق على المنهج التحليلي ورفضه أن ترد الفيزياء بل والفسيولوجيا والكونيات إلى الرياضيات . والهدف من هذا كله تأكيد أن الإنسان شخصية متكاملة ، وأنه ليس عقلاً فحسب بل خيال وانفعال وعاطفة ، فنقد ڤيكو لديكارت يقوم على تأكيد البعد التاريخي والاجتماعي للإنسان . ولعل أصالة ڤيكو تكمن في هذه النقطة . وهذا ما وضحه ڤيكو في الفصل الخامس من " مناهج الدراسة في عصرنا ".[2]

(1) Bréhier; Émile; Histoire de la philosophie; Tome II (Le dix - huitiéme Siécle) p. 366.

(2) Vico; on Methods of our Time; p. XVI.

وينتهى ڤيكو من نقده لنظرية المعرفة الديكارتية إلى أن دراسة التاريخ تختلف عن دراسة الرياضيات والطبيعة ، فالفلسفة الديكارتية تقف عقبة فى سبيل البحث التاريخى نظراً لاغفال ديكارت دور التجربة ، والقول بفطرية الأفكار الواضحة يعزلنا عن الواقع . فكيف نطبق ذلك على التاريخ ؟ هل نتصور أفكاراً ثم نزعم أن هكذا كان مجرى التاريخ ؟[1] أن فكرة موضوع التاريخ قد تبلورت لأول مرة لدى ڤيكو فى نظرته إلى العملية التاريخية بوصفها عملية تمكن الإنسان من ابتكار النظريات الخاصة باللغة والعادات والقانون والحكومة ، أى أنه ينظر إلى التاريخ بوصفه نشأة الجماعات الإنسانية وأنظمتها وتطورها . لقد خلق الإنسان صرح الحياة الاجتماعية من العدم . لهذا كانت كل صغيرة أو كبيرة فى هذا الصرح عملاً من أعمال الإنسان يعرفه العقل على حقيقته حق المعرفة .

ثانياً : موقف ڤيكو من أصحاب نظريات القانون الطبيعى :-

على الرغم من أن ڤيكو كتب ونشر فى القرن الثامن عشر إلا أن طفولته كانت فى القرن السابع عشر ، هذا القرن الذى تميز بالنزعة العقلية والعلمية وبناء المذاهب الفلسفية الشامخة . وقد ساعدت البيئة الثقافية التى عاش فيها ڤيكو على إثارة طموحه لإيجاد علم جديد للمجتمع البشرى يؤدى لعالم الأمم ما أداه جاليليو ونيوتن لعالم الطبيعة .

وقد اطلع ڤيكو أثناء كتابته لتاريخ أسرة كارافا *Carafa* على الكتاب المشهور ، " قانون الحرب والسلام " لجروسيوس ليهيىء نفسه لكتابة التاريخ العالمى الذى دُفع لكتابته أثناء تأريخه لهذه الأسرة ، ونبهته قراءته لجروسيوس إلى أن الفلسفة وفقه اللغة يجب أن يتحدا ليقيما نسق القانون العالمى . وقاده جروسيوس إلى أصحاب نظريات القانون الطبيعى سيلدن وبافندروف ، ثم قاده نقد بافندروف لهوبز إلى الاطلاع على هوبز نفسه . ومن هؤلاء جميعاً ، جروسيوس وبافندروف

---

(١) كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ص ١٥٥ .

وهوبز ، أيقن أن مؤسسي المجتمع المدنى الأول لم يكونوا فلاسفة ولم تنشأ المجتمعات الأولى من الحكمة الفلسفية العميقة كما كان يُعتقد قديماً ولكن الإنسان الوحشى البعيد عن الحضارة هو الذى دفعته غرائزه الفطرية ورغبته فى البقاء وحاجاته ومنافعه الضرورية إلي أن يتطور مع الزمن فيصبح انساناً اجتماعياً ويضع أول حجر فى بناء الحضارة .

تصدي ڤيكو لنقد نظريات القانون الطبيعى لأن أصحابها في رأيه قد وقعوا فى خطأين أساسيين أولاً : افتقارهم للحس التاريخى أو الرؤية التاريخية ، إذ سلموا فى مناقشتهم لأصول المجتمع البشرى والمؤسسات الاجتماعية بسكون الطبيعة البشرية وجمودها وأنها طبيعة غير متغيرة فكانت مناقشاتهم ضرباً من الجدال المجدب انتهى فى رأيه إلى تجريدات جوفاء مثل القانون الطبيعى والعقد الاجتماعى . ثانياً : الخطأ الثانى الذى وقع فيه أصحاب نظريات القانون الطبيعى والنظريات السياسية فى القرن السابع عشر هو محاولتهم اسقاط ثقافة عصرهم وتفكيرهم العقلى المنطقى على بدايات المجتمع البشرى ففقدوا بذلك المفتاح الأساسى لسيكولوجية الشعوب الأولى وافترضوا أن أولئك البشر كانوا يفكرون مثلهم ، كما حاول هؤلاء الفلاسفة تفسير الماضي تفسيراً يتوافق مع مصالح عصرهم وحاضرهم . من هنا كانت أولى مسلمات ڤيكو في أصول العلم الجديد " أن العقل البشرى يجعل من نفسه مقياساً للحكم على الأشياء جميعاً كلما ضل فى الجهل " . لقد فرض هؤلاء الفلاسفة على مشاعر البدائيين وتفكيرهم أفكاراً فلسفية لم تعرفها المجتمعات القديمة ، فجاءت مسلمة ڤيكو الثانية التى تقرر صفة أخرى من صفات العقل البشرى وهى حكمه على الأمور المجهولة والبعيدة على أساس الأمور المألوفة له والقريبة منه . ولقد ذكر ڤيكو هاتين المسلمتين فى معرض كلامه عن غرور الباحثين ، ولعله قصد بذلك أصحاب نظريات القانون الطبيعى والنظريات السياسية فى القرن السابع عشر الذين تصوروا البدايات الأولى للبشرية على ضوء حياتهم وثقافة عصرهم المستنير . ولهذا وصف ڤيكو نظرياتهم بأنها " القانون الطبيعى

للفلاسفة " وعارضهم " بالقانون الطبيعى للشعوب " ووجد أنه لا مفر من العودة للوراء لقراءة ما بداخل قلوب الشعوب الأولى وعقولها ، وكيفية شعورهم وتفكيرهم ونشأتهم نتيجة فترات طويلة من التطور التاريخى . وبهذا يكون قد شق طريقه عائداً من العصر الذى يتسم بالعقل والإنسانية إلى العصور الأولى البربرية التى لم تعرف التفكير العقلى ولا يمكن فهمها إلا بعناء مضن . من هذه الحقيقة الهامة نستطيع أن نتتبع بدايات المجتمع البشرى وأصوله كما نستطيع أن نفهم مسلمته الأساسية : " ان كل نظرية يجب أن تبدأ من حيث يبدأ الموضوع الذى تتناوله " وبذلك تكون مشكلة تكون المجتمع المدنى هى مشكلة الأصول التاريخية لهذا المجتمع . وهى نقطة أساسية أخفقت التشريعات الكبرى والنظريات السياسية للقرن السابع عشر فى التعرف عليها .

بهذا يكون " القانون الطبيعى للفلاسفة " ، وهو الذى تمخض عن التصور والتحليل الفلسفى ، قد تحول عند ڤيكو إلى " القانون الطبيعى للشعوب " الذى ينمو نمواً طبيعياً مع نمو المجتمع ويؤكد أن مراحل تطور هذا المجتمع تكون من داخله ، وأن " القانون الطبيعى للشعوب " ليس هو حكمة الحكماء أو فلسفة الفلاسفة بل هو الحكمة الشعبية للشعوب نفسها . يقول بربيه فى كتابه تاريخ الفلسفة : ان النتائج التى توصل إليها ڤيكو تعارض ما توصل إليه كل من هوبز ولوك اللذين يقولان أن شكل الدولة قد صاغه الحكماء من البشر ، فلا يوجد في رأيه حكماء ولا فلاسفة إذا لم توجد دولة أو حضارة . والميزة الكبرى لڤيكو أنه يستند على الوثائق الحية[1] فلم يلجأ إلى التنظيمات والتشريعات أو إلى النزعة العقلية لتفسير نشأة المجتمعات الأولى ، وإنما اعتمد على التاريخ نفسه وعادات الشعوب ، وعصمته عودته إلى التطور التاريخى والإجتماعى للأمم من السقوط فى النزعة العقلية واللجوء إلى فكرة العقد الاجتماعى التى كان يتجنبها . ويرى كل من *Bergin, Fisch* فى ترجمتهما لسيرة " ڤيكو الذاتية " ، أنه يتابع تطور المجتمع المدنى بكل فروعه وبقائقه

---

(1) Bréhier; Histoire de la philosophie; p. 370.

كما يتعقب تطور العناصر الحضارية الأخرى الموازية له لكي يدعم فكرته الأساسية وهي أن الدولة توجد وجوداً طبيعياً وتاريخياً ولا تنشأ بالمواضعة والاتفاق وأن هذا يصدق على الحضارة البشرية في مجموعها .[١]

ومن الأمور الأساسية في العلم الجديد أن " القانون الطبيعي للشعوب " نشأ نشأة طبيعية في كل شعب على حدة وعُرف فيما بعد نتيجة الحروب والسفارات والأحلاف والتجارة ، أي أنه مشترك بين الجنس البشري كله لنشأته من الحس المشترك وعادات الشعوب وتقاليدها . وقد عبر ڤيكو عن هذا المعنى في مسلمات العلم الجديد تعبيراً واضحاً ، ويكفي أن نقرأ المسلمات التالية لنتأكد من هذا " ولما كانت حرية الإنسان بطبيعتها غامضة وغير محددة فإن الذي يؤكدها ويحددها هو الاحساس المشترك بين الناس بحاجاتهم ومصالحهم وهما المنبعان الأساسيان للقانون الطبيعي للشعوب " . " ان الحس المشترك هو حكم بغير تفكير يشترك فيه أفراد طبقة كاملة أو شعب بأسره أو أمة أو الجنس البشري كله " . " ان نشأة الأفكار المتشابهة عند شعوب مختلفة لا يعرف بعضها بعضاً لابد أن يكون لها أساس مشترك من الحقيقة " .

والواقع ، كما سنرى ؛ أن القانون الطبيعي للشعوب قد نشأ بطريقة أولية وبدائية في كل الشعوب مع جهل كل منها بالآخر ، كما عُرف فيما بعد نتيجة للحروب والسفارات والأحلاف والتجارة وظهر أن له أساساً مشتركاً في الجنس البشري بأكمله .[٢] لهذا اهتم ڤيكو بوضع نظام علم جديد يتعلق بطبيعة الشعوب ويختلف عن القانون الطبيعي لفلاسفة القرن السابع عشر . ويكفي أن نقف قليلاً عند عنوان كتابه " مبادىء العلم الجديد المتعلق بالطبيعة المشتركة للشعوب " *"Principles of the New Science Concerning the Common nature of nations"* لنعلم أن المقصود بهذه الطبيعة هو ميلاد ونشأة الشعوب ، فكلمة *Nature* يستعملها ڤيكو

(1) Vico; Autobiography; p. 56 - 60.

(2) Vico; New Science; p. 21 - 22.

بدلالتها الأصلية فى اللغة اللاتينية على معنى الميلاد والنشوء ، وهى طبيعة تبدأ في كل الأحوال بالعقيدة ثم تكمل بألوان أخرى من العلوم والفنون والمعرفة . وإذا كان فيكو قد اختصر العنوان فى طبعتيه الثانية والثالثة فإنه لم يتخل عن الموضوع نفسه وهو نظام القانون الطبيعى لنشأة الأمم عبر مراحل تطورها . وهذه النظرة الجديدة للتاريخ قد أبعدته بغير شك عن التفسير اللاهوتى الخالص للتاريخ كما نراه عند أوغسطين وبوسويه ، وجعلته يستعين بعلوم أخرى مساعدة مثل الانثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع وعلم الميثولوجيا المقارن وعلم القانون المقارن . ويرى *Bergin, Fisch* أن الاستعانة بكل هذه العلوم لمعالجة فلسفة التاريخ يعد اكتشافاً عظيماً لو حاولنا أن نرمز له برجل واحد وكتاب واحد لكان هذا الرجل هو فيكو وكان الكتاب هو " العلم الجديد " . أما عن عنوان الكتاب نفسه فيحتمل أن يكون فيكو قد استوحاه من " الأورجانون الجديد " لفرنسيس بيكون الذى كان له أكبر الأثر عليه ، كما يرجح أيضا أن يكون قد استوحاه من عنوان كتاب " محاورات عن العلوم الجديدة " لجاليليو .

ولعل من العوامل التي ساهمت أيضا فى نشأة العلم الجديد عند فيكو اطلاعه فى شبابه على الكتاب الخامس من طبائع الأشياء للوكريتوس الذي عرف من خلاله كيف عاش الإنسان الوحشى البدائى بغريزته فقط ، وكيف كان الإنسان الأول يعيش فى كهوف بعيداً عن العقيدة واللغة والقانون ويتناول طعامه من ثمار الأشجار والفواكه ويصطاد الوحوش بالأحجار ويجامع النساء فى العراء ، وكيف عرف النار لأول مرة من احتكاك الأشجار فى العاصفة واستخدامها فى طهى طعامه ، ثم كيف تأسست المدن والقلاع ونشأ أصل القوانين وأصل العقيدة من الخوف عندما أرعدت السماء وأبرقت .

وقد استفاد فيكو كذلك من آراء شيشرون وأرسطو وأفلاطون فى تنظيم المجتمع البشرى ولم يعبأ بالفلسفة الأخلاقية عند الابيقوريين والرواقيين لأنها فلسفات بشر متوحدين ، كما نفر من ميتافيزيقا أرسطو واتجه إلى المثل الخالدة عند

أفلاطون وتأثر بفلسفته الأخلاقية التى تقوم على مثل الفضيلة والعدالة . ولهذا بدأ ڤيكو يفكر فى نظام اجتماعى مثالى يحقق عدالة مثالية ، وأشرقت فى ذهنه الفكرة الأساسية التي استحوذت عليه وهى فكرة قانون أبدى مثالى يُراعى فى مجتمع مثالى فى ظل العناية الإلهية .

وقد عرف ڤيكو أيضا عن طريق قراءته لكل من فرنسيس بيكون ولوكريتوس كيف كان الأصل فى الحديث هو الايماءات التى تعبر عن الكلمات ، وكيف نشأت الكتابة بالرموز أو الكتابة الهيروغليفية قبل اختراع الحروف الهجائية . واجتمعت كل هذه الخيوط فى ذهن ڤيكو وتبلورت الفكرة الكاملة للعلم الجديد الذى يعد اكتشافاً هاماً فى فترة زمنية لم تتوافر فيها الدراسات العلمية للتاريخ ولا المادة التاريخية الغزيرة ولم يدون التاريخ العالمى وبالرغم من ذلك استطاع أن ينجز شيئين هامين . **أولهما** : أنه أحسن الاستفادة من التقدم الذى طرأ على منهج البحث التحليلى النقدى الذى جاء ثمرة لجهود مؤرخى القرن السابع عشر ، ثم تقدم بهذا الأسلوب التحليلى مرحلة أخرى أثبت فيها كيف أن الفكر التاريخى يمكن أن يكون انشائياً إلى جانب النقد والتحليل ، ثم فصل بينه وبين الاعتماد على المصادر المكتوبة محتفظاً له بطابعه الأصيل الذى يستطيع عن طريق التحليل العلمى للمادة المكتوبة أن يكشف عن حقائق أتى عليها النسيان . **ثانيهما** : تطويره للأسس الفلسفية المتضمنة فى تصويره للأحداث التاريخية إلى الحد الذى يستطيع عنده أن يقوم بهجوم مضاد على الأسس العلمية والفلسفية لمدرسة ديكارت والمطالبة بأساس أعمق وأوسع مدى لنظرية المعرفة منتقداً ما اتسمت به العقيدة الفلسفية القائمة وقتئذ من ضيق وتفكير نظري مجرد .[(١)]

هكذا نكون قد ألممنا إلمامة سريعة بالظروف التاريخية والعوامل الثقافية التى مهدت لاكتشاف مبادىء العلم الجديد الذى يعد البداية الحقيقية لنشأة علم التاريخ على أساس وطيد من التطور الاجتماعى للإنسان . ويبقى علينا الآن أن ننظر فى مبادىء هذا العلم الجديد نفسه والأصول والمسلمات التى يقوم عليها .

---

(١) كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ص ١٤١ .

الفصل الثاني

أصول ومبادئ العلم الجديد

الفصل الثاني

" أصول ومبادىء العلم الجديد "

أولاً : الأصول :-

تتركز فلسفة ڤيكو فى أهم مؤلفاته " العلم الجديد " . ويتناول القسم الأول منه الجانب النظري من العلم الجديد ويتضمن ثلاثة موضوعات رئيسية : الأصول والمبادىء ثم المنهج . وقد يخلط المرء بين الأصول والمبادىء لاقتراب اللفظين فى المعنى ، ولكن الواقع أن الأصول تحوى مجموعة من المسلمات أو البديهيات يلتزم بها الباحث أو يفترضها عند دراسته تاريخ تطور الشعوب بصفة عامة والقديمة منها بصفة خاصة ، فهى القواعد التى يجب أن يقوم عليها هيكل البناء التاريخى .

أما المبادىء فهى التى اكتشفها العلم الجديد فى كل المجتمعات البشرية وتتمثل - كما سنوضح فى الجزء الخاص بها - فى ثلاثة : الدين ، الزواج ، دفن الموتى . وأما عن المنهج فقد حدد ڤيكو منهج علم التاريخ بالنسبة لمناهج العلوم الأخرى كالرياضيات والعلوم الطبيعية لاختلافه عن كل منهما وإن لم يكن التاريخ بعيداً كل البعد عن العلوم الطبيعية ، لذا كان المنهج الذى سار عليه هو المنهج الاستقرائي الذى سنتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد ، إذ حاول - كما أشرنا فى الفصل السابق - أن يقوم في التاريخ بدور بيكون فى العلوم الطبيعية ، وحاول أن يدرس عالم الأمم من خلال البديهيات أو المسلمات التى تتألف منها هذه الأصول وابتداء من تلك المبادىء وباستخدام هذا المنهج ليقيم صرح البناء التاريخى .

لقد حاول ڤيكو وضع أصول للعلم الجديد ، متشبهاً من الناحية الشكلية بطريقة أقليدس فى وضع أصول علم الهندسة ، وقدم مجموعة من المسلمات الفلسفية واللغوية يبلغ عددها مائة وأربع عشرة مسلمة تنطوى على مجموعة من المصادرات والتعريفات . وتتعدد موضوعات هذه المسلمات وتتشعب وتتسم بالتكرار

وتتداخل وتتشابك أحياناً ويشوبها الغموض أحياناً أخرى . وربما كان هذا الغموض سبباً من أسباب عدم فهم ڤيكو فى عصره واغفاله فترة زمنية طويلة بعد ذلك . وإذا كان قد تم اكتشافه فى القرن التاسع عشر ، فإن الاهتمام الحقيقى به لم يبدأ بصورة علمية جادة إلا فى القرن العشرين . ونظراً لتكرار المسلمات وتعدد موضوعاتها وتشابكها سنحاول تصنيفها فى مجموعات رئيسية تبعاً للموضوعات ، كما سنحاول وضع عناوين مناسبة لها . والتزاماً بالأمانة العلمية سنقدم مسلمات هذه الأصول كما وردت فى النص الأصلى وبنفس أرقامها - وان لم يكن بنفس الترتيب إذ اقتضى الأمر فى مواضع قليلة بعض التغيير فى ترتيب المسلمات - ثم نقوم بالتعليق عليها فى الفصول التالية التى تعد تطبيقاً لها . وعلى الرغم من كثرة المسلمات وتنوعها إلا أنها تتناول بعض الأفكار الرئيسية الهامة التى يكاد ڤيكو أن يؤكدها في كل سطر من سطور مؤلفه ، وهى الأفكار التى تدور حولها فلسفته بأكملها . أهم هذه الأفكار أن الإنسان هو صانع تاريخه وأنه لا يستطيع أن يعرف إلا ما يصنعه بنفسه ، وهذه هى الفكرة الرئيسية التى تقوم عليها نظرية المعرفة عنده . وتقابل هذه الفكرة فكرة أخرى رئيسية لا تقل عنها أهمية وهى فكرة العناية الإلهية التى وجهت البشر بطريقة غير مباشرة . فالعلم الجديد يدرس الطبيعة البشرية المشتركة للأمم فى ضوء العناية الإلهية ، ويكشف عن أصول التنظيمات الدينية وغير الدينية بين الأمم الأممية . وقد كانت البداية التاريخية بداية شعرية ، فالأشعار والأساطير كانت سجلاً مدنياً لتاريخ الأمم والشعوب ، والعلم الجديد يدرس تاريخ الأفكار البشرية ليجد في النهاية أن هناك تاريخاً مثالياً أبدياً مرت به كل الشعوب - كل على حدة - فى مرحلة نشأتها ونموها وتطورها ونضوجها ثم تدهورها وسقوطها .

تأثر ڤيكو تأثراً كبيراً بما قال به المصريون القدماء من وجود ثلاث مراحل للتاريخ هى المرحلة الإلهية وما تتميز به من لغة سرية مقدسة والمرحلة البطولية وما تتميز به من لغة رمزية والمرحلة البشرية وما تتميز به من لغة شعبية وهى لغة الرسائل . أضف إلى هذا اهتمامه بالاشتقاقات اللغوية - وليس هذا بغريب عليه

وهو عالم اللغويات - وكيف تطورت اللغات إلى لهجات وتطور الشعر إلى النثر ، وكانت المراحل التى مر بها هذا التطور هى الشواهد التاريخية علي عادات العصور الأولى . كانت هذه هى أهم الأفكار الرئيسية التى تناولها ڤيكو فى مسلمات علمه الجديد وإن لم تكن كل أفكاره ، لأننا سنتعرض لها بالتفصيل فى سياق هذا الفصل . ولنبدأ حديثنا عن الأصول بمجموعة المسلمات التى تتعلق بمعوقات البحث التاريخى فى رأى ڤيكو ، وتتناول الأوهام والأخطاء التى وقعت فيها الشعوب كما وقع فيها الباحثون وأصبح من الضرورى التخلص منها .

ا - أوهام الشعوب والباحثين :-

تأثر ڤيكو ببيكون فيما ذكره فى الجزء الأول من كتابه " الأورجانون الجديد " عن أوهام الفكر ، فاعتبر أن المؤرخين عُرضة لأوهام مماثلة حصرها فى أربعة وانتقد فيها الآراء القديمة عن مبادىء التاريخ البشري ، وهذه الأوهام أو الأخطاء وقعت فيها أمم كاملة كما وقع فيها العلماء والباحثون إذ تصوروا البدايات الأولى للبشرية على ضوء حياتهم وثقافتهم وعصرهم المستنير ، وكان من الطبيعى أن يقع كلاهما فى الخطأ والوهم . وفى هذا المعنى قدم المسلمات التالية فى خصائص العقل البشرى وهى المسلمات التى ترتب عليها وقوع كل من الشعوب والباحثين فى الخطأ .

- " العقل الإنسانى يجعل من نفسه مقياساً للحكم على الأشياء جميعاً كلما ضل فى الجهل " . (مسلمة ١)
- " حكم العقل البشرى على الأمور المجهولة والبعيدة على أساس الأمور المألوفة له والقريبة منه " . (مسلمة ٢)
- " وقعت الأمم فى الخطأ عندما تصور كل منها - كما يقول المؤرخ ديدروس الصقلى - أن تاريخ العالم بدأ مع بداية تاريخ شعبه وأمته ، وأنها سبقت جميع الأمم فى اكتشاف أسباب الراحة والترف للإنسان " . (مسلمة ٣)

- " وقع الباحثون فى نفس الخطأ عندما بالغوا فى تصوير الحكمة الفذة لبعض الشعوب القديمة ".[1] (مسلمة ٤)

وقد وقع - على حد زعم فيكو - كل من الكلدانيين والسكيثيين والمصريين والصينيين فى هذا الوهم ، ولا يستثنى من ذلك غير الشعب اليهودى لأنه شعب منقطع الصلة بالشعوب الأخرى . فالتاريخ العبرى كما يقول التاريخ المقدس أحدث عهداً من التاريخ القديم . وقد استثنى فيكو التاريخ المقدس من دائرة علمه الجديد ، وربما لجأ إلى هذا تجنباً لمشاكل كثيرة كان من الممكن أن يتعرض لها لو طرح التاريخ المقدس على مائدة النقد التاريخى . وهنا يجب ألا نتجاهل الظروف التى عاش فيها ، فقد كان عصره هو عصر محاكم التفتيش والاستبداد الدينى .

وقع الباحثون أيضاً فى نفس الخطأ عندما ضخموا أقوال زرادشت وحكمة هرمس مثلث الحكمة ، والأشعار الأورفية المنسوبة لاورفيوس ، والأبيات الذهبية المنسوبة لفيثاغورس وبالغوا في قيمتها أكثر مما تستحق . ويصدق هذا أيضاً على محاولة العلماء استكناه الأسرار الصوفية فى اللغة الهيروغليفية القديمة واستخراج الرموز الفلسفية من الأساطير اليونانية .

٢ - الفلسفة وفقه اللغة :-

يؤكد فيكو على وظيفة الفلسفة ورسالتها فى خدمة الجنس البشرى . وهنا يظهر تأثره بمثالية أفلاطون ، إذ سمح للفلاسفة السياسيين وخصوصاً الأفلاطونيين بالانضمام إلى مدرسة علمه الجديد ، ويرجع ذلك فى رأيه إلى أمور ثلاثة : اعترافهم بالعناية الإلهية ، الاعتدال فى الانفعالات البشرية والإيمان بخلود الروح وهى - كما سنرى فيما بعد - المبادىء الثلاثة للعلم الجديد . وعلى هذا استبعد فيكو الرواقيين لأنهم يميتون الجسد ويحاربون اللذة ، كما استبعد الابيقوريين لأنهم يعتبرون الاحساس هو المعيار ، وكلا الاتجاهين فى رأيه خاطىء لأن الرواقيين ربطوا

---

(1) Vico; New Science; p. 8 - 19.

أنفسهم بأغلال القدر ، كما أن الابيقوريين تركوا أنفسهم للمصادفة وزعموا أن الروح الإنسانية تموت مع الجسد . نعود إلي الفلسفة والدور الهام الذى تقوم به لتوجيه الشعوب لما هو أفضل فنجد المسلمات التالية :-

- " يجب أن تساهم الفلسفة فى الأخذ بيد الإنسان وتوجيهه عندما يضعف ويسقط " . (مسلمة ٥)

- " تنظر الفلسفة إلى الإنسان باعتبار ما ينبغى أن يكون عليه بحيث تنفع القلة الضئيلة من الناس ، وهم أولئك الذين يتمنون أن يعيشوا فى جمهورية أفلاطون " . (مسلمة ٦)

ويضع ڤيكو التشريع في مقابل الفلسفة . فإذا كانت الفلسفة تنظر إلى الإنسان كما ينبغى أن يكون ، فإن التشريع ينظر إلى الإنسان كما هو كائن فى الواقع ويحول رذائله إلى فضائل . ان التشريع يصنع السعادة المدنية من الرذائل التى كان يمكن أن تدمر الجنس البشرى . فالإنسان قادر على أن يحول غرائزه وانفعالاته الطبيعية إلى فضائل اجتماعية لأنه يملك حرية الاختيار ، كما يتضح من المسلمة الآتية " :-

- " ينظر التشريع للإنسان فى واقعه بحيث يصبح نافعاً للمجتمع البشرى ، وهو يحول القسوة والبخل والجشع ، وهى الرذائل الثلاث التى تدفع الجنس البشرى بأسره ، إلى فضائل تقوم عليها الطبقات العسكرية والتجارية والحاكمة ، وبهذا يدعم قوة المجتمعات وثرواتها وحكمتها " .[1] (مسلمة ٧)

ويميز فيكو بين الوعى أو الضمير وبين العلم أو المعرفة ؛ فالأول يطلب اليقين المؤكد ووسيلته فى البحث عنه هى فقه اللغة ، والثانى يطلب الحق ووسيلته الفلسفة . والعلم الجديد يجمع بين الفلسفة وفقه اللغة ويطلب تضامن علماء اللغة والفلاسفة لتحقيقه . ومفهوم علم اللغة لا يقتصر على مفهوم علماء اللغة والنحو وإنما يتسع

(1) Ibid; p. 19 - 20.

للمؤرخين والنقاد الذين عكفوا على دراسة لغات الناس وأعمالهم سواء فى ملاحظة عاداتهم وشرائعهم التى يتبعونها فى بلادهم ، أو فى حروبهم وسلامهم وأحلافهم وتجارتهم وأسفارهم إلى الخارج .

ويؤكد ڤيكو أنه إذا كان الفلاسفة يبحثون عن الحقيقة فإنهم لم يدركوا إلا نصف هذه الحقيقة لأنهم أهملوا الرجوع إلى بحوث علماء اللغة ، وعلماء اللغة بدورهم لم يبلغوا إلا نصف اليقين لأنهم لم يلجأوا إلى تأملات الفلاسفة ليضفوا مسحة الحقيقة على بحوثهم الواقعية ، ولو أنهم فعلوا ذلك لكانوا أكثر نفعاً لمجتمعاتهم ولسبقوا ڤيكو نفسه فى تصور العلم الجديد . والمسلمات الآتية تعبر عن أفكاره عن المعرفة الإنسانية : ـ

- " ان الذين لا يستطيعون التوصل للحقيقة يحرصون على البحث عن اليقين فى الواقع ، فكلما عجزوا عن اشباع عقولهم بالمعرفة والعلم اتجهت ارادتهم على أقل تقدير إلى الوعى بكل ما هو يقينى مباشر من أحداث وعادات وقوانين ومؤسسات اجتماعية " . (مسلمة ٩)

- " الفلسفة تتأمل العقل لمعرفة الحقيقة ، أما علم اللغة فيرتكز على الوعى باليقين ، وهو الوعى الذى يأتى من الاختيار الحر للإنسان " . (مسلمة ١٠)

ويرى ڤيكو أن ما يؤكد حرية الإنسان هو احساس البشر بمصالحهم ، وهذا الاحساس مشترك بين الجنس البشرى كله : ـ

- " لما كانت حرية الإنسان بطبيعتها غامضة وغير محددة ، فإن الذى يؤكدها ويحددها هو الإحساس المشترك بين الناس بحاجاتهم ومصالحهم وهما المنبعان الأساسيان للقانون الطبيعى للشعوب " . (مسلمة ١١)

- " ان الحس العام أو المشترك هو حكم بغير تفكير يشترك فيه أفراد طبقة كاملة أو شعب بأسره أو أمة أو الجنس البشرى كله " . [1] (مسلمة ١٢)

(1) Ibid; p. 21.

٣ - القانون الطبيعى للشعوب :-

يؤكد ڤيكو نشأة الحس المشترك للجنس البشرى كمعيار علمته العناية الإلهية للشعوب ليحدد اليقين فى قانونها الطبيعى . وتصل الشعوب لهذا اليقين بالتعرف على وجوه الاتفاق الأساسية التى تتضمن فيما بينها - بالرغم من اختلافها فى التفاصيل - احترام هذا القانون . ويحسم ڤيكو الجدل القديم بين أصحاب القانون الطبيعى والقائلين بأن القانون اجتماعى ، فالقانون الطبيعى للشعوب نشأ عن العرف أو العادة ولم يفرض بالقانون ، ومحافظة الشعوب على عاداتها أعطى هذه العادات شكل القوانين ، لأنه ليس هناك شىء أحب إلى البشرمن الاعتزاز بعاداتهم . وفى هذا الشأن يستشهد ڤيكو بعبارة " لديو كاسيوس " تقول : " ان العادة تشبه الملك ، والقانون يشبه الطاغية (مسلمة ١٠٤) فالشعوب بطبيعتها ترفض القانون الذى يفرضه الطاغية أو أية قوة خارجية ، ولكنها بطبيعة الحال تحتفظ بالقانون الذى فرضته على نفسها ، لذا كان القانون الطبيعى للشعوب هو قانون فرضته الشعوب على نفسها من خلال عاداتها وتقاليدها وأعرافها .

والطبيعة البشرية التى نشأت عنها هذه الأعراف طبيعة اجتماعية ، وبهذا حسم ڤيكو الخلاف بين القائلين بأن القانون كائن فى الطبيعة أى طبيعى ، وبين القائلين بأنه كائن فى العادات الاجتماعية وعبر عن هذا بالمسلمة التالية :-

- " ان الجنس البشرى كان منذ بدايته الأولى يحيا حياة اجتماعية ، فالإنسان كائن اجتماعى بطبيعته " (مسلمة ٨) .

ويرى ڤيكو أنه لكى نتناول مذهبا أو نظرية بالدراسة يجب أن نتتبع البداية الأولى لنشأتها كما يقول فى مسلمته : " يجب أن تبدأ المذاهب والنظريات من حيث تبدأ الموضوعات التى تتناولها " (مسلمة ١٠٦) .

فالقانون الطبيعى للشعوب نشأ بطريقة طبيعية وبدائية لدى كل الشعوب مع جهل كل منها بالآخر ، وعُرف القانون الطبيعى فيما بعد نتيجة للحروب والسفارات

والأحلاف والتجارة ، كما عرف أن له أساساً مشتركاً فى الجنس البشرى بأكمله ، كما تقول هذه المسلمات .

- " ان نشأة الأفكار المتشابهة عند شعوب مختلفة لا يعرف بعضها بعضاً ، لابد أن يكون لها أساس مشترك من الحقيقة " . (مسلمة ١٣)

- " تنشأ التنظيمات الاجتماعية نشأة طبيعية فطرية مع البشر رغم أنها تختلف أحياناً فى التفاصيل طبقاً للزمان والظروف " . (مسلمة ١٤)

- " ترجع طبيعة التنظيمات الاجتماعية وخصائصها إلى أسلوب نشأتها ومولدها وزمن هذه النشأة وظروفها " .[1] (مسلمة ١٥)

ويستبعد فيكو كل الأفكار القديمة المتعلقة بالقانون الطبيعى والتى جعلت أصحابها يعتقدون أنه انطلق من إحدى الأمم الأولى ثم انتقل إلى الأمم الأخرى ، هذا الخطأ وقع فيه المصريون القدماء والاغريق فى ادعائهم - على حد قوله - انهم نشروا الحضارة فى العالم ، وكان نتيجة هذا الخطأ أن أطلق الخيال عنانه بالقول أن قانون الألواح الأثنى عشر انتقل إلى روما من اليونان ، ولو كان الامر كذلك لكان هذا القانون مدنياً ووصل للشعوب الأخرى عن طريق الاتفاقيات البشرية ، ولم يكن قانوناً طبيعياً ينظم بواسطة العناية الإلهية فى كل الشعوب على حدة مع عادات البشر أنفسهم : " القانون الطبيعى للأمم يسير جنباً إلى جنب مع عادات الشعوب وتقاليدها بدون أن تتخذ أى أمة أمةً أخرى نموذجاً لها وبدون أى عمد أو تفكير طبقاً للحس المشترك بين البشر . (مسلمة ١٠٥)

بذلك يعارض فيكو القانون الطبيعى لفلاسفة القرن السابع عشر كما أشرنا فى الفصل السابق - بالقانون الطبيعى للشعوب . ويرى فيكو أن من هذه الطبيعة المشتركة للأمم ينبع قاموس عقلى مشترك بين كل الأمم ممثلاً فى التراث الشعبى . فاللغات الشعبية - قبل تطورها - شاهد حى على عادات الشعوب الأولى ، واللغات

---

(1) Ibid; p. 22.

وحدها - وخاصة الشعر - قد حفظت عادات الشعوب الأولى وتقاليدها ، مثلما حفظت أشعار هوميروس عادات وتقاليد الشعب الاغريقى ، وحفظ قانون الألواح الأثنى عشر عادات وتقاليد الشعب الرومانى . فالتراث الشعبى له الفضل فى حفظ التاريخ مثلما حفظ التاريخ البطولى لروما . ويؤكد ڤيكو أن دراسة الحكم والأمثال الشعبية لدى الشعوب الأولى قد أثبتت أن للتراث الشعبى أساساً مشتركاً لدى كل الشعوب المبكرة . وفى هذا الصدد يقدم ڤيكو هذه المسلمات :-

- " الإرث الشعبى له أسس مشتركة بفضلها ظهرت التقاليد للوجود واحتفظت بها شعوب كاملة لفترات طويلة من الزمن " . (مسلمة ١٦) .

- " ينبغى أن تكون اللغات الشعبية شواهد عظيمة الشأن عن العادات القديمة التى كانت تمارسها الشعوب فى الوقت الذى نشأت فيه هذه اللغات " . (مسلمة ١٧) .

- " ان لغة أمة قديمة حافظت على نفسها كلغة سائدة قبل أن تتطور ينبغى أن تكون شاهداً كبيراً على عادات العصور الأولى " . (مسلمة ١٨) .

- " لو لم يكن قانون الألواح الأثنى عشر هو سجل عادات الشعوب اللاتينية لما دونوها في ألواح برونزية ولما اهتموا بها كل هذا الاهتمام الدينى وحفظه التشريع الرومانى . هذا القانون دليل على القانون الطبيعى للشعوب اللاتينية " (مسلمة ١٩) .

- " إذا سلمنا بأن قصيدتى هوميروس (الالياذة والاونيسة) تقدمان تاريخاً مدنياً للعادات الاغريقية القديمة ، فانهما ستكونان منجمين عظيميين للقانون الطبيعى للأمم الاغريقية " . (مسلمة ٢٠) .

- " عجل الفلاسفة الاغريق بمسار أمتهم فى الوقت الذى عاشت فيه أمتهم الاغريقية فى المرحلة البربرية المتوحشة ، ومنها سرعان ما تقدموا لمرحلة أرقى منها وهى مرحلة التفكير الدقيق بينما حافظوا على أساطيرهم فى كل من المرحلة الإلهية والبطولية ، وفى الجانب الآخر نشأت وتطورت عادات الرومان سريعاً مغفلين تاريخ الآلهة ، لكنهم احتفظوا فى أقوالهم الشعبية بالتاريخ البطولى" .(مسلمة ٢١)

- " يجب أن يكون في طبيعة المؤسسات البشرية لغة عقلية مشتركة بين كل الشعوب تشكل جوهر الأشياء العلمية في الحياة الاجتماعية وتعبر عن مظاهر تكيفهم مع الأشياء ويظهر هذا في الأمثال والحكم الشعبية ".[1] (مسلمة ٢٢)

٤ - أصل الجنس البشري :ـ

يقدم فيكو مجموعة من المسلمات التي تتناول أصل الجنس البشري والتي اعتمد فيها اعتماداً كبيراً على التاريخ المقدس ، ولذلك نجده يفرق بين دين العبرانيين الذي أسسه الله ودين الوثنيين القائم على الكهانة ، كما نراه يقيم الدليل على أن أصل الجنس البشري ينقسم إلى قسمين : أولهما : قسم قائم على الكائنات الخرافية وهي الأمم الأممية ، وثانيهما : قسم قائم علي منزلة إنسانية أرفع قدراً يمثلها العبرانيون . وهذه التفرقة تأتي في رأيه نتيجة التعليم البوهيمي للجانب الأول والتعليم الإنساني للجانب الثاني ، لذلك رفض التفسير الخرافي الذي قدمه الفلاسفة للعمالقة ذوي الأجسام الضخمة وأخذ بتفسير تاسيتوس وقيصر للعمالقة الجرمان بأنها ترجع للتربية البربرية لأولادهم . وهذه مسلمات فيكو عن أقدم أنواع التاريخ :ـ

- " التاريخ المقدس أقدم من كل التواريخ الدنيوية التي انحدرت إلينا لأنه يروي بالتفصيل عن الحالة الطبيعية التي عاش فيها البشر في ظل آباء الأسر لفترة تزيد على ثمانمائة سنة ، أي أنه يروي عن حالة الأسر التي نشأت منها الشعوب والمدن في وقت لاحق كما يتفق على هذا كل المُنظرين السياسيين " . (مسلمة ٢٣)
- " الإله الحق هو الذي أسس الديانة العبرية علي أساس تحريم الكهانة التي انطلقت منها كل الأمم الأممية " . (مسلمة ٢٤)
- " التاريخ الطبيعي - كما بينت لنا الأساطير - أثبت الفيضان الذي غطى الأرض" .(مسلمة ٢٥)

---

(1) Ibid; p. 23 - 25.

- " قدم الفلاسفة للعمالقة ذوى الأجسام الضخمة والبشعة تفسيراً خرافياً " .
(مسلمة ٢٦)

- " بدأ التاريخ اليونانى - وتاريخ كل الأمم الأممية ما عدا الرومان - بدأ بالطوفان والكائنات الخرافية " .[١] (مسلمة ٢٧)

٥ - قانون المراحل الثلاث لتطور الأمم :-

أخذ ڤيكو فكرة قانون تطور الأمم من المصريين القدماء فى تصورهم لتطور التاريخ عبر مراحل ثلاث : المرحلة الإلهية ، المرحلة البطولية ، المرحلة البشرية . وتصاحب كل مرحلة لغة خاصة بها ، فاللغة الهيروغليفية أو السرية المقدسة - كما عند المصريين القدماء - هى لغة المرحلة الإلهية . واللغة الرمزية - كما فى أشعار هوميروس - هى لغة المرحلة البطولية . واللغة الشعبية - كما فى لغة الرسائل - هى لغة المرحلة البشرية . وبعد دراسة ڤيكو لحضارات الشعوب القديمة أكد أن قانون المراحل الثلاث يمكن اعتباره مسلمة من مسلمات العقل البشرى ، فهو حقيقة تاريخية أكدها استقراؤه للتاريخ .[٢]

- " انحدرت إلينا من العصور المصرية القديمة فكرتان : إحداهما أن المصريين القدماء لخصوا تاريخ العالم السابق فى ثلاث مراحل : المرحلة الإلهية ، المرحلة البطولية والمرحلة البشرية . أما الفكرة الأخرى فتقول أنه كانت هناك أثناء هذه المراحل ثلاث لغات وهى الهيروغليفية أو السرية القديمة ، واللغة الرمزية وهى خاصة بالمرحلة البطولية ، واللغة الشعبية أو لغة الرسائل وهى تعبر عن المرحلة البشرية وتقوم على علامات أو اشارات اصطلاحية للاتصال وقضاء الحاجات المشتركة " . (مسلمة ٢٨)

---

(1) Ibid; p. 26 - 27.

(٢) وربما تكون هذه إجابة على السؤال الذى طرحه الأستاذ الدكتور حسن حنفى فى مقاله عن " فلسفة التاريخ عند ڤيكو " المنشور بمجلة كلية الآداب ، والعلوم الإنسانية بفاس صفحة ٤٩ من المقال : هل هذه المراحل بديهية ، أم حقيقة تاريخية من اكتشاف المصريين ؟ أم أنها استقراء تاريخى لتطور الشعوب ؟

ثم يؤكد ڤيكو المراحل التاريخية الثلاث التى تبدأ بالمرحلة الدينية ، ويوضح حقيقة هامة هى أن كل الشعوب قامت على أساس الدين وأن التاريخ بدأ بداية دينية . فكانت المرحلة الأولى من مراحل تطور التاريخ هى المرحلة الدينية وفيها نشأ الشعر الدينى . ويستشهد ڤيكو على هذا ببضع فقرات من ملحمتى هوميروس فكانت هذه المسلمة :

- " أشار شاعر الالياذة والاوديسة فى خمسة مواضع من ملحمتيه إلى لغة أكثر قدماً يدعوها اللغة الإلهية أو لغة الآلهة " . (مسلمة ٢٩)

ومن المعروف أن لغة هوميروس كانت لغة بطولية ، وأن شعره من قبيل الشعر البطولى . فالشعوب الأولى كانت شعوباً دينية أسقطت رغباتها وعواطفها وحاجاتها الطبيعية والأخلاقية على أسماء الآلهة كما توضح هذه المسلمة التى يستشهد فيها ڤيكو بالمؤرخ الرومانى فارو :

- " اجتهد المؤرخ الرومانى فارو *Varro* (١١٦ - ٢٧ ق . م) فى جمع ٣٠ ألف اسم للآلهة تلبى الحاجات الطبيعية والأخلاقية للبشر كما تصور الحياة الاجتماعية فى العصور المبكرة " .[١] (مسلمة ٣٠)

ويتتبع ڤيكو نشأة المرحلة الدينية عند البشر الأولين مبيِّناً أن الخوف هو المسئول الأول عن إيجاد الآلهة على الأرض ، ويربط هذه النشأة بضعف القدرة على التفكير في طفولة البشرية . فالدين - وهو أول مبادىء العلم الجديد - يلقى الضوء على نشأة التاريخ البشرى والتنظيمات الاجتماعية . فعندما تتوحش الشعوب ولا تقوم لقوانينها قائمة تلجأ إلى قوة أعلى منها وليس هناك ما هو أسمى من الله - ومعنى هذا أنه كلما توحش البشر نتيجة للحروب المشتعلة بينهم بحيث لا تقوم لقوانينهم قائمة فان الوسيلة الوحيدة لترويضهم هى الدين . والعناية الإلهية هى التى هدت هؤلاء المتوحشين إلى إنسانيتهم وتكوين دولهم ، وذلك بأن أيقظت فيهم تصوراً

(1) Vico; New Science; p. 27.

غامضاً للألوهية ، وقد كان جهل هؤلاء المتوحشين هو المسئول عن نسبة الألوهية لكائنات أخرى ، والجهل خاصية مشتركة بين الشعوب الأولى ، فأسقط الإنسان الأول طبيعته الخاصة على طبيعة الأشياء التى يجهلها ، ونشأت الميتافيزيقا الشعبية من جهل الإنسان الأول بالطبيعة ، ونتج الجهل من ضعف القدرة على التفكير فأطلق الخيال عنانه ونشأ الشعر الدينى الذي أضفى العاطفة على الأشياء الجامدة ، ومن الجهل تنشأ الدهشة وحب الاستطلاع وهما أصل المعرفة ، ومن خصائص العقل البشرى أن يتجه للخرافة عندما يشعر بالخوف ، وهذه الخرافة تثير الرعب ، فكانت بداية الوثنية والتضحية بالقرابين وتقديم ضحايا بشرية وارتباط هذا بالعقائد الوحشية عند البشر المتوحشين الأول ، وها هى ذى مسلمات فيكو التى ذكرها فى هذا الصدد :ـ

- " إذا نما أى شعب أينما كان – فى ظل جيوش عاتية حيث لا تجد القوانين الإنسانية أى مكان لها – كانت القوة الوحيدة هى اللجوء إلى الدين" . (مسلمة ٣١)
- " عندما يجهل الإنسان طبيعة الأشياء يجعل من نفسه مقياس كل شئ " . (مسلمة٣٢)
- " تصور الجهلاء للطبيعة هو بمثابة ميتافيزيقا شعبية يحاولون بها أن ينسبوا للإرادة الإلهية أسباب الأشياء التى يجهلونها دون أن ينكروا الوسائل التى تستعين بها الإرادة الإلهية " . (مسلمة ٣٣)
- " عندما يصاب العقل بالخوف يميل إلى الخرافة ، وهذه خاصة من خصائص العقل البشرى " . (مسلمة ٣٤) .
- " الدهشة ابنة الجهل " . (مسلمة ٣٥)
- " كلما ضعفت القدرة على التفكير ازداد الخيال قوة " . (مسلمة ٣٦)
- " هدف الشعر هو اضفاء الحس والعاطفة على الأشياء الجامدة " . (مسلمة٣٧) .

- " هناك نص كلاسيكى عن أصل الشرك يقول : أن البشر الأوائل أطلقوا أسماء الالهة على فضائل متميزة اعجاباً بهم وتقرباً لهم لما يملكونه من قوة " . (مسلمة٣٨) .

- " ان حب الاستطلاع - وهو صفة طبيعية موروثة فى الإنسان - هو ابن الجهل وأبو العلم أو المعرفة ، فعندما توقظ الدهشة عقولنا عند رؤية أى ظاهرة طبيعية نسأل مباشرة : ماذا يعنى هذا ؟ (مسلمة ٣٩)

- " إن الساحرات يفعلن أشياء تثير الرعب ، وهن يمتلئن بالخوف مما يقمن به من خرافات فتظهر قسوتهن إلى حد التطرف فى تمزيق الأطفال لممارسة سحرهن " .(١) (مسلمة ٤٠)

هكذا نرى من المسلمات السابقة أن الدين نشأ نشأة طبيعية فطرية مع الإنسان ، فالخوف هو أول من خلق الآلهة على الأرض ، والإنسان هو صانع الدين مثلما هو صانع تاريخه . ولا ندرى إذا كانت هذه الأفكار التى انتهى إليها ڤيكو من بحثه فى النشأة الطبيعية للإنسان قد فرضت نفسها عليه فلم يستطع أن يغير فيها ، أم أنه انتبه إلى خطورتها فغلفها بكثير من الغموض نظراً للظروف السياسية والدينية التى عاشها . (٢)

٦ - الميثولوجيا التاريخية :-

ثم يقدم ڤيكو مجموعة من المسلمات عن البداية التاريخية للمجتمع البشرى ، وهى بداية مستمدة من الميثولوجيا التاريخية واختلاط الأساطير القديمة بالدين كأسطورة الخلق والفيضان ونشأة الكون لدى الشعوب القديمة . حدد ڤيكو البداية التاريخية بالطوفان وأقامها على افتراض أن الأجناس الكافرة لأولاد نوح الثلاثة سقطوا فى المرحلة الوحشية وطافوا غابات الأرض الواسعة مع الوحوش الضارية

---

(1) Ibid; p. 28 - 29.

(٢) انظر الفصل السابق .

وأصبحوا عمالقة . ثم أرعدت السماء بعد الطوفان فشعر العمالقة بالخوف ، وتصوروا أن هذا الرعد تعبير عن غضب الإله من حياتهم البهيمية وممارستهم للجماع في العراء فلجأوا إلى الكهوف والجأهم الخوف من الإله الذي دعوه جوبيتر إلى الكهوف . وهنالك بدأ أول شكل من المساكن البدائية الثابتة ومعها نشأت العادات والسلوك الديني الذي يحدد سلوك كل فرد ازاء الآخرين كما ينظم الزواج من واحدة .

لم تكن هناك من قوة إلا قوة الدين التي سادت فترة حكم الآلهة ، وتبعتها المرحلة البطولية عند الشعوب الأولى فتصورت هذه الشعوب تصوراً خاطئاً أن الأبطال من أصل إلهي – كما صورت الأساطير القديمة أن هرقل هو ابن جوبيتر – مما يؤكد فكرة ڤيكو أن الأمم لا يمكن أن تقوم أو تنشأ بدون دين ، أي بدون هذا الشعور الفطري الذي تنطوي عليه الطبيعة البشرية ، فكل الأمم الأممية لديها آلهة خاصة بها مما يؤكد المسلمة التي تنص على أن الأفكار المشتركة تنشأ بين شعوب لا تعرف بعضها بعضاً ، وهذا يتضح في المسلمات التالية عن نشأة الميثولوجيا التاريخية :-

– " نحن نفترض – وهذا افتراض معقول – أن مياه الفيضان تسربت منذ مئات السنين إلى الأرض وغمرتها " . (مسلمة ٤١)

– " قذف جوبيتر – وكل الأمم الأممية لديها جوبيتر – سهمه فصرع كل العمالقة " . (مسلمة ٤٢)

– " كل الأمم لديها هرقل ، ابن جوبيتر ".[1] (مسلمة ٤٣)

ثم يؤكد ڤيكو أن البشر الأولين في هذه المرحلة الدينية كانوا شعراء لاهوتيون ، وأن الشعراء كانوا بمثابة المؤرخين الأول للشعوب البدائية ، فكان شعرهم سجلاً للأحداث التاريخية في عصرهم وكانت البداية التاريخية مزيجاً من التاريخ والأساطير :-

---

(1) Vico; New Science; p. 30 - 31.

- " كان حكماء اليونان القدامى شعراء لاهوتيين ، وقد انتشروا بغير شك قبل الشعراء البطوليين مثلما كان جوبيتر أباً لهرقل " . (مسلمة ٤٤)

- " يميل البشر بطبيعتهم للاحتفاظ بذكرى القوانين والنظم التى تربطهم بمجتمعاتهم " . (مسلمة ٤٥)

- " التاريخ البربرى كله كان خرافياً فى بدايته ، والشعر هو الذى سجل هذه البداية " . (مسلمة ٤٦)

فالتاريخ القديم نوع من اللاهوت . ولكن بعد فترة طويلة تغيرت العادات وتغير تبعاً لذلك تفسير الأساطير وفقدت معناها الأصلى وانغمست فى عصور الفساد حتى فى العصر السابق لهوميروس . ولكى تبرر هذه الشعوب عاداتها السيئة الصقت هذه الصفات بالآلهة فتشوهت بذلك الأساطير . وهذا ما حدث للكاهن والمؤرخ المصرى مانيتو[1] *Mantho* عندما فسر كل التاريخ المصرى وترجمه وهذبه إلى لاهوت طبيعى .

٧ - الحكمة الشعرية :-

يؤكد ڤيكو على شاعرية الشعوب الأولى ويوضح كيف كان البشر الأولون شعراء بالفطرة ، ويشبه الشعراء بالأطفال فكلاهما لديه خيال قوى وكلاهما يفكر من خلال تصورات خيالية ، لم يكن الجنس البشرى فى طفولته قادراً على تكوين تصور واضح للأشياء ، تماماً كالأطفال العاجزين عن التجريد ، لذلك بدأت المعرفة البشرية بالحس ولم تبدأ بالعقل ، وتكونت الجمل الشعرية عن طريق الأحاسيس العاطفية ، ثم تكونت بعد ذلك الجمل الفلسفية عن طريق التفكير والعقل أو المقولات العقلية ولذلك كانت أكثر اتجاهاً نحو العام وأقرب إلى الحقيقة . أضف إلى هذا أن كل الفنون

---

(١) مانيتو كاهن مصري قديم عاش فى القرن الثالث ق . م وله كتاب عن تاريخ مصر لم يبق منه سوى شذرات . قسم التاريخ المصري إلى دول ، وعمل قائمة بأسماء الملوك المصريين وكتبها باليونانية وكان عليماً بالهيروغليفية .

الضرورية والنافعة أبدعت فى العصور الشعرية قبل مجىء الفلاسفة . ويرى فيكو أن لدى العامة نزعة طبيعية لخلق الأساطير على نحو مناسب ، وهذه عادة متأصلة لدى أى شعب ، فهو يبتكر لكل إنسان مشهور حكايات تلائم ما جرى له فى تلك الظروف .

ويستنتج من هذا ملاحظة هامة تتصل بالنظرية الشعرية ، فالشعراء قد رسموا صوراً ونماذج شعرية بالتصور الخيالى صدقتها الشعوب ونسبت إليها بطولات خارقة وإن كانت فى الواقع المادى بعيدة عن الحقيقة التاريخية . والآن نتابع المسلمات التى يثبت فيكو من خلالها الميل الفطرى للعقل البشرى لخلق الأساطير وابداع الشعر :-

- " يميل العقل البشرى إلى كل ما فيه وحدة ونظام " . (مسلمة ٤٧)
- " من طبيعة الأطفال أن أفكارهم عن الرجال والنساء والأشياء التى عرفوها فى طفولتهم يقيسون عليها كل الاشياء والرجال والنساء الذين عرفوهم بعد ذلك على أساس المشابهة " . (مسلمة ٤٨)
- " نسب المصريون إلى هرمس مثلث الحكمة كل الاختراعات النافعة والضرورية للحياة الإنسانية " . (مسلمة ٤٩)
- " ان الشعوب الأولى لديها خيال قوى وكان هذا أساس الخيالات الشعرية عند البشر الأولين " . (مسلمة ٥٠)
- " الشعراء شعراء بالفطرة لا بالصنعة " . (مسلمة ٥١)
- " يتفوق الأطفال فى التقليد ليسلوا أنفسهم حتى يصبحوا قادرين على الفهم " . (مسلمة ٥٢)
- " كان تفكير البشر الأولين غير دقيق ، وكانوا يعتمدون على الشعور قبل أن يبدأوا فى التفكير بعقل واضح " . (مسلمة ٥٣)

- " أن الأساطير الأولى كانت تلائم الشعوب فى طبيعتها وعواطفها وعاداتها " . (مسلمة ٥٤)

- " هناك نص كلاسيكى يقول بأن " النظرية اللاهوتية للمصريين القدماء كانت مزيجاً من التاريخ والأساطير ، فنشأت الأجيال بعد ذلك تخجل منها ، ولكن بالتدريج تُرجمت إلى معنى صوفى " . (مسلمة ٥٥)

- " أن المؤلفين القدامى من شرقيين ومصريين وأغريق ولاتين ، وحتى فى عودة البربرية ممثلة فى اللغات الأوربية للعصور الوسطى ، كانوا شعراء " .[1] (مسلمة ٥٦)

ويرى ڤيكو أن مبادىء اللغات والحروف تكمن فى حقيقة أن الأمم الأممية الأولى كانت شعوباً شاعرية وذلك بحكم الضرورة الطبيعية . وهو يؤكد أن هذا هو المفتاح الأساسى للعلم الجديد ، لأننا مع تعين طبيعتنا فى العصر الحديث لا نستطيع أن نتخيل ولا نستطيع أن نفهم الطبيعة الشعرية للشعوب الأولى إلا بعناء خشن . فالبشر الأولون كانوا يتحدثون بالأساطير والحكايات الخرافية ، وكانت الأمم الأولى مفتقرة إلى القدرات العقلية ، فمن الطبيعى أن تكون عواطفها جياشة ومشاعرها قوية . وهناك مصدران لكل تعبير شعرى : الفقر فى اللغة ، والحاجة إلى التفسير والافهام . وتطور اللغات يسير جنباً إلى جنب مع تطور المجتمعات البشرية ، ففى عصر الآلهة كانت اللغة خرساء تعبر بالأفعال والأشياء نفسها التى ترتبط بعلاقات طبيعية بالأفكار التى كانوايحاولون التعبير عنها . ثم بدأت الشعوب تتلعثم بالغناء الذى درب ألسنتهم على النطق ، فكان النطق بكلمات من مقاطع واحدة . أما فى عصر الأبطال فقد ظهرت اللغة الشعرية التى اعتمدت على الاستعارات والتشبيهات والمقارنات والاستعانة بالصور الحسية والوصف الطبيعى للأشياء .[2]

---

(1) Vico; New Science; p. 31 - 34.

(٢) سنتعرض بالتفصيل لنظرية ڤيكو عن نشأة اللغات وتطورها فى حديثنا عن المنطق الشعرى فى الفصل الثانى من الباب الثانى .

هكذا نجد أن التطور الطبيعى للتنظيمات البشرية جعل اللغة تبدأ بالشعر ثم تستقر فى النثر ، وهذا ما يشهد عليه تاريخ الشعراء القدامى وتطور الأوزان الشعرية من الأوزان البطيئة إلى الأوزان السريعة . غير أن التطور قد جعل اللغة فى العصر البشرى تستخدم كلمات تواضع عليها الناس ، فهى اللغة التى صاغوها بإرادتهم وعبرت عن التحالفات الشعبية والحكومات الملكية على السواء ، وهى كذلك اللغة التى ثبت الشعب فيها معانى القوانين التى تسرى على النبلاء مثلما تسرى على العامة من الناس بعد أن كان النبلاء قديماً ، فى الأمم الأممية ، يحتفظون بالقوانين فى لغة سرية كشىء مقدس ، وكان هذا سبباً طبيعياً لسرية القوانين لدى أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى إلى أن قامت الحريات الشعبية .

ويوضح فيكو كيف أن الأفكار واللغات تطورت فى خطوات متشابهة ، وأن الأمم بدأت بلغة شعرية ثم جاءت اللغة النثرية بعد ذلك ، كما سيتضح فى المسلمتين ٦١ ، ٦٢ ، وفيكو لا يلقى الضوء على بدايات اللغات وحدها بل على بدايات الحروف التى يئس علم اللغة القديم من العثور عليها ، إذ اعتقد علماء اللغة أن اللغات كانت أسبق فى الوجود من الحروف ، بينما الواقع أن الحروف واللغات توأمان ولدا وسارا معاً بسرعة عبر المراحل الثلاث . ويهتم فيكو اهتماماً بالغاً بدراسة اتيمولوجيا (اشتقاق) اللغات (أى دراسة الكلمة وتاريخها) كما سيتضح فى مسلمة ٦٥ وكما سنرى فى الفصول التالية . ونتابع قراءة المسلمات عن تطور اللغات فنجده يقول فيها :-

- " اللغة الخرساء تعبر بالأفعال والإيماءات والأشياء نفسها التى ترتبط بعلاقات طبيعية بالأفكار التى يحاول البشر التعبير عنها " . (مسلمة ٥٧)
- " اللغة الخرساء تعبر بالغناء عن أصوات ليس لها شكل والتلعثم بالغناء يعلم ألسنتهم (أى البشر) النطق " . (مسلمة ٥٨)
- " يعبر البشر بالأغنية عن عواطفهم الجياشة كما نلاحظ فى حالات الحزن العميق والفرح " . (مسلمة ٥٩)

- " يجب أن تبدأ اللغات بكلمات من مقاطع واحدة " . (مسلمة ٦٠)

- " القصيدة البطولية هي أقدم أشكال القصيدة ، والسبوندى هو أبطؤها وسنرى أن القصيدة البطولية كانت أصلاً من البحر السبوندى " .[١] (مسلمة ٦١)

- " القصيدة العمبقية تكون أقرب إلى النثر ، والبحر العروضى يكون أسرع على نحو ما وضعه هوراس *Horace* " . (مسلمة ٦٢)

وتتطور الأفكار في خطوات مشابهة لتطور اللغات ، فقد بدأ كلاهما بالحس وتكشف هذه الأفكار عن أنواع التنظيمات البشرية وتطورها . بل ويعد العلم الجديد هو تاريخ الأفكار البشرية - على حد تعبير ڤيكو نفسه - كما تؤكد ذلك المسلمات التالية :-

- " يميل العقل البشرى بطبيعته لأن يرى نفسه مجرداً من المضمون ليفهم نفسه بالتفكير العقلى المجرد " . (مسلمة ٦٣)

- " نوع الأفكار لابد أن يتبعه نوع المؤسسات الاجتماعية أو الأنماط السلوكية " . (مسلمة٦٤)

- " تتابعت النظم الاجتماعية على هذا النظام فبدأت بالغابات ثم الأكواخ ثم القرى والمدن وأخيراً الأكاديميات العلمية .[٢] (مسلمة ٦٥)

وهذا التتابع للمؤسسات البشرية يعد نموذجاً لتاريخ تطور معانى الكلمات في اللغات المختلفة ، فنلاحظ أن معظم كلمات اللغة اللاتينية ذات أصول مشتقة من الحياة في الغابات أو الريف . ونأخذ على سبيل المثال كلمة *Lex* التي كان معناها في البداية قطف أو جمع شجر البلوط ثم اشتق منها كلمة *ilex* وهي شجرة البلوط ، وتطورت الكلمة في الحياة الريفية فأصبح معناها مجموعة من الخضروات ، وفي فترة

---

(١) السبوندى وزن شعرى قديم استخدمه الاغريق والرومان ويتركب من أربعة أزمنة وطولين وترجع تسميته إلى الاحتفالات الطقوسية .

(2) Vico; New Science; p. 34 - 36.

لاحقة وقبل أن تُكتشف الحروف العادية اقتضت الطبيعة المدنية استعمالها بمعنى مجموعة من المواطنين أو البرلمان العام أو مجلس شعبي عام ، لأنها تعني التجمع نفسه . وأخيراً كانت كلمة *legere* تعني تجميع حروف الكتابة بجانب بعضها ، أي تجميع الحروف في كلمات وتجميع الكلمات في جمل ، وهذا ما تم في الأكاديميات العلمية التي كانت آخر شكل من أشكال تطور التنظيمات البشرية ويمثل قمة التطور . ثم يرتد هذا التطور ويتردى في الانحلال إلى أن يسقط .

٨ - التاريخ المثالي الأبدي :ـ

ينتهي فيكو إلى وضع مبادىء تاريخ مثالي أبدي مرت به كل أمة في نشأتها وبنائها وتطورها ونضوجها ثم تدهورها وسقوطها . أي أن هذا التاريخ الأبدي يتتبع كيف نشأت الأمة ، وكيف تطورت أشكال الحكم فيها ونضجت ثم كيف تدهورت بالتدريج وسقطت . ونظرية التاريخ المثالي الأبدي هي لب فلسفة فيكو التاريخية وهي النظرية التي قام عليها مذهبه التاريخي . وسوف نتناول هذه النظرية بالتقييم في الباب الثالث ، ونكتفي في هذا المكان بتتبع كيف نشأت المجتمعات البشرية الأولى من الحاجات الضرورية للإنسان ، ثم كيف اتجه الإنسان إلى كل ما هو نافع ، ثم أخذ يلتمس الراحة ويبدأ يسعى وراء الملذات ، ثم انغمس في الترف إلى حد التدهور إلي أن سقطت التنظيمات البشرية .

ويقرر فيكو مبدأ سياسياً هاماً وهو أن نشأة التنظيمات السياسية ترجع لطبيعة الشعوب بحيث توافق هذه التنظيمات طبيعة الشعوب المحكومة ، ولهذا تطورت أشكال الحكم لدى الأجناس البشرية الأولى ومرت بمراحل ست أو أنواع ستة : النوع الأول (السيكلوب) كان ضرورياً في المرحلة الأسرية وضرورة وجود فرد واحد يخضع له الآخرون . النوع الثاني الذي يتصف بالزهو والغرور (مثل أخيل) كان ضرورياً لبناء النظم الارستقراطية على قاعدة النظام الأسري . النوع الثالث الذي يتصف بالشجاعة (مثل ارستيدس) كان ضرورياً لفتح الطريق للحرية الشعبية .

النوع الرابع (مثل الاسكندر وقيصر) لإقامة ملكيات أو امبراطوريات جديدة . النوع الخامس (مثل تيبرس) كان ضرورياً لإقرار هذه الامبراطوريات واستقرارها .النوع السادس (مثل نيرون وكاليجولا) لتدميرها .. ويلخص ڤيكو مبادىء التاريخ المثالى فى المسلمات التالية :ـ

- " شعر البشر الأولون بالحاجات الضرورية فبحثوا عن الأدوات النافعة ، ثم اتجهوا إلى أساليب الراحة ، ثم انغمسوا فى الترف ليسعدوا أنفسهم ، وأخيراً أصابهم الجنون فضيعوا ثروتهم وفقدوا جوهرهم الحقيقى " . (مسلمة ٦٦)

- " كانت طبيعة الشعوب الأولى فى البداية قاسية وتدرجت من الخشونة إلى الاعتدال والرقة وأخيراً إلى الانغماس فى اللذات أو التحلل " . (مسلمة ٦٧)

- " ظهرت الأجناس البشرية الأولى فى أشكال غريبة (مثل السيلكوب) ثم أجناس تتصف بالزهو والغرور (مثل أخيل) ثم الشجاعة (مثل ارستيدس) ثم أجناس حققت نصراً شعبياً ومجداً حقيقياً (مثل الاسكندر وقيصر) ثم أجناس يغلب عليها طابع " التأمل (مثل تيبرس) وأخيراً الانغماس فى الملذات والجنون (مثل نيرون وكاليجولا) " . (مسلمة ٦٨)

- " يجب أن تتكيف الحكومات أو تطابق وتوافق طبيعة المحكومين " .[1] (مسلمة٦٩)

ويفسر ڤيكو نشأة نظم الحكم فى الشعوب الأولى مبتدئاً بالنظم الملكية وهى أول شكل من أشكال الحكم فى العالم ، فبعد أن استقر الجنس البشرى فى الأرض واحترف الناس الزراعة وكونوا الأسر ، وأصبح لهم طقوس عبادة وإله يعبدونه . كان آباء الأسر هم الملوك والحكماء الذين يتلقون التكهنات من الآلهة ويبلغونها لأسرهم وهذا ما تؤكده المسلمات التالية :ـ

- " بدأت كل الأمم بطقوس العبادة ، أى عبادة إله معين ، وكان آباء الأسر هم

(1) Ibid; p. 37.

الحكماء المطلعون على نبوءات الآلهة ، وكانوا يبلغون أسرهم بالقوانين الإلهية " . (مسلمة ٧٢) .

- " يقضى التراث الشعبى بأن أول من حكم العالم ملوك " . (مسلمة ٧٣)

- " أن الشعوب تنتخب أكثر الناس جدارة " (مسلمة ٧٤)

- " أن الملوك فى العصور الأولى كانوا حكماء ، ولذا اشتاق أفلاطون إلى العصور القديمة التى كان فيها الفلاسفة ملوكاً أو كان الملوك فلاسفة " . (مسلمة ٧٥)

- " أن الشكل الأول لكل حكومات العالم القديم كانت حكومات ملكية " .[1] (مسلمة٧٦)

ثم يقدم ڤيكو مجموعة من المسلمات التى تقوم على افتراض أساسى لتفسير نشأة التجمعات البشرية *Commonwealths* ؛ فبعد أن طاف العمالقة كما ذكرنا فى غابات الأرض الواسعة وأرعدت السماء لأول مرة بعد الطوفان ، لجأ بعض العمالقة إلى الكهوف ودفعهم الخوف من الإله إلى نظام الزواج من امرأة واحدة ، وكونوا أسراً واستقروا فى الأرض وزرعوها وظل باقى العمالقة فى تجوالهم البهيمي خارجين عن القانون . وبعد مرور حقبة طويلة من الزمن لجأ هؤلاء العمالقة إلى الأراضى المزروعة لآباء الأسر لطلب الحماية والاستقرار ، فاتخذهم الآباء كأتباع أو عبيد للأرض يفلحونها . وبمرور الزمن بدأ هؤلاء العبيد فى التمرد ، فتحالف الآباء ووحدوا أنفسهم فى تنظيمات لمواجهة عبيد الأرض الثائرين ، وأقروا لهم بنوع من الاقطاع الريفى كسباً لطاعتهم ، وسمى رؤساء التنظيمات أنفسهم ملوكاً وواجهوا هؤلاء العبيد المتمردين ، وأصبحت السلطة العائلية لآباء الأسر - التى لا يمكن أن نفهمها إلا على أنها كانت نوعاً من اقطاعات النبلاء - خاضعة للقوى السياسية لهذه التنظيمات الحاكمة . وأصبحت التجمعات البشرية ارستقراطية من تلقاء نفسها ، إذ نشأ النظام الارستقراطى عن ضرورة ملحة هى الضرورة التى فرضها عبيد الأرض

---

(1) Ibid; p. 38.

على آباء الأسر . ويقدم فيكو هذا الفرض لتفسير نشأة التجمعات البشرية ، ويدعونا إلى التسليم بأنه صحيح لأنه فرض بسيط وطبيعي ، ولأن الآثار السياسية المترتبة عليه لا حدَّ لها . وإذا لم نسلم به فلن نفهم كيف نشأت سلطة الدولة من سلطة أخرى ولا كيف تمخضت السلطة الاقطاعية العامة عن الاقطاع الخاص ، ولا كيف تألفت الجماعة من تنظيم يضم عدداً قليلاً يصدر أوامره وأغلبية من العامة تخضع لهذه الأوامر . ولنقرأ الآن المسلمات التي تتناول نشأة التجمعات البشرية :-

- " يجب أن نسلم أن بعض الناس الخارجين عن القانون انسحب منهم مجموعة من الاقوياء وكونوا أسراً وزرعوا الأرض ، وبعد فترة طويلة من الزمن جاء باقي الخارجين عن القانون ليعيشوا في نفس الأرض المزروعة لآباء الأسر " . (مسلمة٧٠)
- " العادات الفطرية لا تتغير كلها دفعة واحدة ، وإنما تتغير تدريجياً وتستغرق فترات طويلة من الزمن " . (مسلمة ٧١)
- " أن أسماء الأسر ترجع إلى عبيد الأرض الذين أطلقوا على الأسر أسماءها " . (مسلمة٧٨)
- " لا يمكن أن نتصور قيام اتحادات قبل وصول أولئك اللاجئين الذين جاءوا للآباء لكي ينقذوا حياتهم وتعهدوا بزراعة الأرض رداً لهذا الصنيع " .[1] (مسلمة ٧٩)

هكذا نشأ المجتمع الارستقراطي الأقطاعي ومنح النبلاء اقطاعات من الأرض كانت أول قانون زراعي في العالم ، وانقسم المجتمع إلى طبقتين طبقة نبلاء وطبقة عبيد . وأقسم النبلاء على العداء الأبدي للعامة فنشب الصراع الطبقي . وكان النبلاء هم الأبطال المحاربون ولهم وحدهم شرف البطولة ، كما كانوا حريصين دائماً على ألا تنال العامة هذا الشرف . ويوضح فيكو كيف ينشب الصراع البطولي في الحكومات الارستقراطية التي كانت تفتقر إلى القانون المدني الذي ينظم العلاقات

(1) Ibid; p. 37 - 39.

بين الأفراد ، وهذا يبين قسوة النبلاء تجاه العامة مما يتجلى بوضوح فى التاريخ الرومانى حيث كانوا يلقون بهم فى أهوال الحروب ويغرقونهم فى الديون والفوائد ويضربونهم بالسياط على أجسادهم العارية فيدفعون الثمن سخرة فى العمل . وتحليل فيكو للصراع الطبقى يقوم على أمور ثلاثة : - طموح طبقة العامة للمشاركة فى الحقوق المدنية والقوانين التى كان يتمتع بها الآباء - اصرار الآباء على الاحتفاظ بهذه الحقوق داخل طبقتهم .(١) - حكمه المشرعين فى تفسير تلك القوانين ومد منفعتها شيئاً فشيئاً وتعديلها لما يستجد من حالات أخرى . وهذه هى المسلمات عن نشأة النظام الارستقراطى والنظام الأقطاعى كضرورة تطلبتها الحياة المدنية :-

- " كان طبيعياً أن يتجه المجتمع البشرى بعد ذلك للنظام الأقطاعى الذى يقوم على المقايضة ، لأنهم رأوا فيه أفضل المنافع والفوائد التى يتطلعون إليها فى الحياة المدنية " . (مسلمة ٨٠)

- " من صفات الأقوياء أن ما كسبوه بالقوة لا يتخلون عنه بسهولة أو لا يترددون فى الدفاع عنه ، وإنما يتخلون عن جزء منه عندما تقتضى الضرورة وبالتدريج وفى أضيق الحدود الممكنة " . (مسلمة ٨١)

- " كل الشعوب القديمة كان لها أتباع أو عبيد للأرض " . (مسلمة ٨٢)

- " أن قانون الأقطاع الريفى (الذى يقر للعبيد بجزء من الأرض) هو القانون الزراعى الأول فى العالم لأننا لا نستطيع على الاطلاق أن نتصور نظاماً آخر يعطى أقل من هذا القدر " . (مسلمة ٨٣)

ويستدل فيكو على صحة رأيه بنص هام من كتاب السياسة لأرسطو يتحدث فيه عن أشكال الدول ويذكر الممالك البطولية التى كان فيها الملوك يطبقون القوانين فى الداخل ويوقدون الحروب فى الخارج كما كانوا فى نفس الوقت هم رؤساء الكهنة فى الطقوس الدينية .

---

(١) تحليل فيكو للصراع الطبقى فيه سبق للماركسية فى فكرتها الأساسية عن صراع الطبقات كما سنرى فى الباب الثالث من هذا البحث .

- " من كتاب السياسة لأرسطو : ان الجماعات القديمة لم يكن لديها قوانين لمعاقبة العدوان على الأشخاص ، أى لم يكن لديها قانون يحمى الأشخاص من الظلم الواقع عليهم ، لقد كان هذا هو أسلوب الشعوب البربرية لأن الشعوب فى بدايتها كانت فى حالة توحش ولم تستطع بعد أن تنظم عاداتها تنظيماً قانونياً " . (مسلمة ٨٥)
- " نص آخر ورد فى سياسة أرسطو يقول أن الحكومات القديمة تبين أن النبلاء يقسمون على أن يكونوا أعداء دائمين لعامة الناس " . (مسلمة ٨٦)
- " أن الحكومات الارستقراطية لا تميل للحروب لكى لا تجعل العامة جنوداً محاربة " . (مسلمة ٨٧)
- " حافظت الحكومات الارستقراطية على ثروة النبلاء لأن هذه الثروة عنصر من عناصر قوة هذه الطبقة " . (مسلمة ٨٨)
- " الشرف هو أسمى وأنبل الحوافز للشجاعة فى الحروب " . (مسلمة ٨٩)
- " لابد للشعوب فى أوقات الحرب أن تستبسل أو أن تسلك سلوك الأبطال إذا أرادت أن تنال الشرف فى أوقات السلام " . (مسلمة ٩٠)
- " ان صراع الطبقات من أجل الحصول على نفس الحقوق من أقوى العوامل على تقوية الدول " . (مسلمة ٩١)
- " ان الضعفاء يريدون القوانين ، والأقوياء يقاومونها ، وأصحاب الطموح يشجعونها ليكسبوا أتباعاً لهم " . (مسلمة ٩٢)

ويستمر الصراع الطبقى وتظل العامة تتطلع للمساواة فى الحقوق المدنية وحقوق الشرف مع طبقة النبلاء إلى أن يضطر النبلاء للخضوع لسلطة القانون ، فتتكون الجمهوريات الشعبية الحرة وتقوم المساواة بين النبلاء والعامة فى الحقوق المدنية ، وتبدأ العامة فى سن القوانين ثم تضع نفسها فوق القانون فتسود الفوضى

ويعم الاستبداد والطغيان وتنهار نظم الحكم الشعبية فيضطر كل من النبلاء والعامة إلى الخضوع لسلطة رجل واحد ينصب نفسه ملكاً وتعود نظم الحكم الملكية . ويصور ڤيكو هذا فى المسلمات التالية :-

- " كان الطريق مفتوحاً أمام العامة لاشباع نهمها فى الحصول على حقوق الشرف والمناصب الكبيرة ، لذلك نشأت الحروب الأهلية فى الداخل والحروب العدوانية فى الخارج " . (مسلمة ٩٣)
- " تزداد الحرية الطبيعية شراسة كلما دافع الفرد عن ملكيته الشخصية " . (مسلمة ٩٤)

ويستشهد ڤيكو بالتاريخ الرومانى فى تصوير الصراع الطبقى وتطور نظم الحكم فى (مسلمة ٩٥) :-

- " أن الناس تتطلع للمساواة وترفض حالة الخضوع . هكذا كان سلوك طبقة العامة فى الحكومات الارستقراطية الرومانية التى تحولت بفضل هذا السلوك إلى جمهوريات شعبية حرة . ثم حاول الأفراد أن يتفوقوا على بعضهم البعض ففسدت الجمهوريات الشعبية وتحولت إلى جمهوريات يتسلط عليها بعض الأفراد . وأخيراً حاولت العامة أن تخضع القوانين لسيطرتها فنشأت الفوضى . وهذه الحالة هى أسوأ حالات الطغيان إذ يكثر عدد الطغاة ، وعند هذا تشعر العامة ببؤسها فتسترد وعيها وتحاول أن تنقذ نفسها بالخضوع لسيطرة فرد واحد ، وفى هذه الحالة يسود القانون الملكى الطبيعى الذي حاول به تاسيتوس أن يبرر الملكية الرومانية تحت سيطرة أغسطس " . ويجمل ڤيكو هذا الصراع مرة أخرى فى (مسلمة ٩٦) فيقول : " بفضل الحرية الطبيعية التى لا تخضع لقانون تحلل النبلاء من كل الالتزامات والقيود عندما بدأ تأسيس المجتمعات الأولى على أساس أسرى ، فنشأت الحكومات الارستقراطية التى كانوا هم سادتها . ثم اضطر النبلاء أن يتساووا مع العامة فى الأعباء والقوانين بعد أن أجبرهم العامة على الخضوع لسلطة القانون . وعلى هذا

استقر وضع النبلاء فى الجمهوريات الشعبية ، ولكنهم مالوا بصورة طبيعية إلى الخضوع لسلطة رجل واحد لكى يضمنوا لأنفسهم حياة مريحة وكان هذا هو حالهم فى ظل الملكية .[1] ولا شك أننا نلاحظ فى مسلمة ٩٤ نوعاً من التنبوء بما قاله روسو والاشتراكيون الأوائل وما أكده ماركس بعد ذلك من أن الملكية الخاصة هى أصل الشراسة والعدوان والاستعباد ، أى تتحول الحرية الطبيعية فى الإنسان إلى شراسة كلما مس أحد أملاكه الشخصية .

٩ - اثر الجغرافيا فى تاسيس الشعوب :ـ

استعان فيكو بعلم الجغرافيا لدراسة الطبيعة المشتركة للأمم ليبين كيف أن العامل الجغرافى له أثر كبير فى تأسيس الشعوب ، إذ عاش البشر فى البداية داخل الجبال ثم انتقلوا إلى السفوح والسهول وأخيراً عاشوا على شواطىء البحار . ويستشهد فيكو بنص من أفلاطون يؤيد به صحة رأيه ويوضح أن البشر فى كل العصور يبدأون حياتهم داخل الجبال ثم بالتدريج ينتشرون فى السهول . ويستدل كذلك بأمثلة من التاريخ القديم عن تأسيس مدينة صور داخل البلاد ، ثم نقلها إلى شاطىء البحر إلى أن جاء الاسكندر ونقلها إلى اليابسة . ومن هذا المنطلق واعتماداً على التاريخ العبري يبرهن فيكو على قدم الشعب اليهودى الذى أسسه نوح فى بلاد ما بين الرافدين وأبعد بلاد العالم المأهول بالسكان بعيداً عن البحر ، ولذلك فهم أقدم الشعوب . ويحاول فيكو أن يثبت صحة هذا بتأكيده أنه قد تأسست هناك أول دولة ملكية من الآشوريين التى حكمت الكلدانيين الذين نشأ بينهم الحكماء الأول فى العالم ومنهم زرادشت .

ولا يفوتنا أن نأخذ على فيكو هذه الغلطة التاريخية التى وقع فيها ، لأن أول حكومة ملكية ظهرت فى العالم نشأت فى ظل الحضارة المصرية القديمة كما أثبتت الحفريات في القرن التاسع عشر ، وان كنا نلتمس له العذر لأن علم الحفريات لم

(1) Vico; New Science; p. 39 - 44.

يتقدم ويزدهر إلا فى القرن التاسع عشر ، ولذا لم تتوفر الدراسات الكافية – فى عصره – عن الحضارات القديمة . ولنتابع المسلمات لنرى أثر العامل الجغرافى فى تأسيس الشعوب .

- " عاش البشر – بعد الطوفان – فوق الجبال ثم نزلوا للسفوح ، وبعد عصور طويلة وجدوا فى أنفسهم الشجاعة للاقتراب من شواطىء البحار " . (مسلمة ٩٧)
- " هناك فقرة لأفلاطون[١] يقول فيها أن البشر بعد الطوفان المحلى (أوجيجن وديكلبينوت) عاشوا فى كهوف فوق الجبال ، وهؤلاء هم العمالقة السيكلوب الذين يتعرف أفلاطون عن طريقهم على أول رؤساء الأسر الذين ظهروا فى العالم ، ثم انحدروا على جانبى الجبال وأخيراً نزلوا للسهول " . (مسلمة ٩٨)
- " يقول التراث الشعبى أن صور أسست داخل البلاد ثم نُقلت إلى ساحل البحر الفينيقى وانتقلت بعد ذلك إلى جزيرة قريبة إلى أن نقلها الاسكندر الأكبر إلى اليابسة " .[٢] (مسلمة ٩٩) .

واستناداً إلى علم الجغرافيا أيضاً يفسر فيكو أسباب هجرة الشعوب تحت حكم الضرورة كالتجارة وكسب العيش وتحقيق الثروة ... ألخ لقد حاول أن يوضح كيف ضلت سلالة أبناء نوح الثلاثة فى حياة رعوية بهيمية ، إذ أرغمتهم الضرورة على الهرب من الوحوش الكاسرة بحثاً عن الماء والغذاء وملاحقة النساء ، ثم وجدوا أنفسهم مشتتين على الأرض بعد أن أرعدت السماء لأول مرة بعد الطوفان . ولو أن هذه الأمم الأممية حافظت على إنسانيتها مثل الشعب اليهودى لبقوا مثله فى قارة آسيا الممتدة الواسعة ، ولكن الضرورة الملحة هى التى أرغمتهم على الهجرة . وهجرة الشعوب تثبتها المستعمرات كالتي أنشأها الأغريق على ساحل أيونيا أو على الساحل الجنوبى فى ايطاليا والمستعمرات الرومانية المتأخرة ... ألخ . ويمكننا بهذا

---

(١) القوانين . الكتاب الثالث ٦٧٧ (عن فيكو) .

(2) Vico; New Science; p. 44 - 45.

أن نتتبع تاريخ الشعوب التي أسست مستعمرات في بلاد غريبة على فترات تاريخية متتالية . وفيكو كعالم لغويات يستدل على ذلك من اشتقاق بعض الكلمات والأسماء من أصول أجنبية مختلفة عن جذورها الأصلية ، فعلى سبيل المثال سُميت نابولى فى البداية بكلمة *Sirena* مما يدل على أن السريان أو الفينيقين (أول بحارة فى العالم) هم أول من أسس فيها مستعمرة تجارية ، ثم تغير الاسم إلى *Parthenope* وهى كلمة أغريقية من العصر البطولى ، ثم سميت أخيراً *Neapolis* وهى كلمة من اللغة الاغريقية الشعبية تعنى المدينة الجديدة ، مما يدل على أن الاغريق قد وصلوا إليها ليقيموا علاقات تجارية معها .

ويرى ڤيكو أن الشعوب المغلقة على نفسها لابد أن تُفتح إما بواسطة غزو خارجى أو بالتجارة مع الأجانب .. وهو يضرب أمثلة على ذلك من التاريخ القديم عندما فتح بسماتيك مصر للكاريبيين والأيونيين الأغريق ، ومن العصر الحديث عندما فتح الصينيون بلادهم للتجارة مع الغرب . ونتابع الآن مسلمات ڤيكو فى هجرة الشعوب .

- " تحت ضغط ضرورات الحياة تخلى الإنسان عن أرضه ، التى هى بالطبع عزيزة عليه ، ولكنه تركها مضطراً ليشبع نهمه فى تحقيق الغنى عن طريق التجارة ، أو ليحافظ على ما كسبه " . (مسلمة ١٠٠)
- " كان الفينيقيون هم أول بحارة فى العالم القديم " . (مسلمة ١٠١) .
- " كانت الأمم فى المرحلة البربرية مغلقة على نفسها ، فإما أن تفتح من الخارج بواسطة الحروب أو تفتح طواعية للتجارة مع الأجانب " . (مسلمة ١٠٢)
- " الفرض الذى يجب التسليم به هو أن مستعمرة اغريقية أُقيمت على شواطىء اللاتيوم ، ثم انتزعها الرومان ودمروها وظلت هذه المستعمرة مدفونة فى ظلام العصور القديمة . وإذا لم نسلم بهذا فلن نفهم ما يحكيه التاريخ الرومانى عن شخصيات مثل هرقل أو عن الاركاديين والفريجيين فى منطقة لاتيوم ، ولن نفهم

ملاحظة تاسيتوس[١] فى حولياته بأن حروف الهجاء الرومانية تشبه الحروف اليونانية القديمة ".[٢] (مسلمة ١٠٣)

١٠ - تطور القوانين مع تطور العقل البشرى :-

ثم يذكر فيكو مجموعة من المسلمات عن تسلسل نسب الآلهة . ويؤكد أن العشائر الأولى للمجتمع البشرى أو الأمم الأولى نشأت قبل المدن الكبرى . ولهذه الأمم الصغيرة آلهتها الخاصة بها وكانت تدعى آلهة آباء الأسر . وبعد ظهور المدن نشأت الأمم الكبيرة وكان لها أيضاً آلهتها . ومن تتبع فيكو لتسلسل نسب الآلهة أثبت أن عددهم اثنا عشر إلهاً فى كل الأمم الأممية :-

- " نشأت الأمم الأولى قبل انشاء المدن وكانت تسمى بيوت النبلاء القديمة ، ومن هذه الأمم الأولى أو العشائر الصغيرة كون رومولوس مجلس الشيوخ " . (مسلمة١٠٧)

- " وفقاً للتقسيم السابق ، هناك آلهة كانوا آباء الأسر فى الأمم الأولى قبل تأسيس المدن ، ووفقاً للثيوجونيا الطبيعية فان عدد الآلهة فى كل الأمم الأممية كان يبلغ اثنى عشر إلهاً " .[٣] (مسلمة ١٠٨)

ثم يتعرض فيكو لمجموعة من المسلمات التى يقدم فيها آراءه عن القانون المدنى والقانون الطبيعى . فالقانون الطبيعى أسسته الشعوب من خلال عاداتها الطبيعية والبسيطة ، ثم أضفى الفلاسفة علي القانون الطبيعى صورة أكمل عن طريق العقل ، أى أنهم تمموا بالعقل ما بدأته الأمم الأممية بالعادة والعرف ، ولكن الفلاسفة لم يظهروا إلا بعد ألفى سنة من نشأة الأمم الأممية .

ويؤكد فيكو أن العناية الإلهية هى التى حددت القانون الطبيعى للشعوب ، لأن

---

(١) عن فيكو (١١ فصل ١٤) .

(2) Vico; New Science; p. 45 - 47.

(3) Ibid; p. 49.

الأمم عاشت قروناً طويلة وهى عاجزة عن فهم الحق وعن فهم فكرة القانون الطبيعى التي وضحها الفلاسفة فيما بعد . وسمحت العناية الإلهية بأن تتمسك الأمم بقوانينها المدنية ، بل أن تتمسك بحرفية هذه القوانين مهما ثبتت قسوتها عند تطبيقها ، وقد حرصت العناية الإلهية بهذا على أن تحافظ على وجود الأمم وبقائها وهذا ما أغفله - فى رأى ڤيكو - فقهاء القانون الطبيعى ، ولهذا أخطئوا جميعاً فى مذاهبهم لأنهم تصوروا أن الأمم الأممية قد فهمت فكرة القانون الطبيعي منذ نشأتها الأولى دون أن يدركوا أن هذه الفكرة لم تتضح بشكل كامل إلا بعد تطور العقل البشرى وبعد ظهور الفلاسفة لدى هذه الأمم بعد ألفي سنة من نشأتها فأخذوا يبلورون فكرة القانون الطبيعى بشكل كامل عن طريق العقل . والقانون المدنى وضعه الأذكياء من البشر الذين صاغوا المنفعة صيغة قانونية ، ولذلك فهذا القانون لا يفهمه إلا قلة من البشر من ذوى المعرفة والذكاء ، أما الشعوب ذات الأفكار المحدودة فقد فهمت القانون على أنه الالتزام الشديد بالصياغة الدقيقة للكلمات التى وضعها الحكماء طبقاً لما هو ضرورى لحفظ الجنس البشري . وهذا ما تعبر عنه المسلمات التالية :-

- " البشر ذوو الأفكار المحدودة يفهمون القانون على أنه ما تعبر عنه الكلمات " . (مسلمة ١٠٩)

- " النص الذي ذكره أولبيان *Ulpian* عن مفهوم القانون المدنى لا يعرفه إلا قلة من الناس من ذوى الخبرة والمعرفة والذكاء ، وهؤلاء يستطيعون الحكم على ما هو ضرورى للحفاظ علي المجتمع البشرى ، أى أن القانون المدنى ليس قانوناً طبيعياً " . (مسلمة ١١٠)

- " يقين القوانين يظل غامضاً بالنسبة للعقل ولا تسنده إلا سلطة التقاليد ويتعذر على العقل أن يفهمه ، ولهذا فان القوانين تطبق مهما كانت صارمة لاستنادها إلى سلطة التقاليد " . (مسلمة ١١١)

- " إن الأذكياء من البشر يعتقدون أن ما تمليه المنفعة هو القانون " . (مسلمة ١٢٢)
- " الجانب الحق من القوانين نوع من الضوء الذى يضفيه العقل الطبيعى عليها ، لذلك كثيراً ما يستعمل المشرعون كلمة حق مرادفة لكلمة عدل " . (مسلمة ١١٣)
- " أن القانون الطبيعي فى نظر العقل البشري المتطور هو فى الواقع تطبيق للحكمة على المنفعة العملية ، لأن الحكمة بمعناها الأشمل ليست إلا علم استخدام الأشياء وفق طبيعتها "[1] (مسلمة ١١٤)

كانت هذه هى مسلمات العلم الجديد التي قدمها ڤيكو والتى يجب أن يسلم بها كل باحث فى عالم الأمم لتكون الأساس العلمى والنظرى فى بناء الهيكل التاريخى ، أو بمعنى آخر هى صورة العلم الجديد .

ولكن هناك بعض المغالطات التاريخية فى هذه المسلمات ، وقد أوضحنا منها فى ثنايا هذا الفصل الغلطة التاريخية الخاصة بنشأة النظم الملكية فى العالم وكيف أنها بدأت فى مصر ، ومنها أيضا أن التاريخ بدأ بالطوفان ، فهل هذه هى البداية التاريخية الحقة ؟ من المؤكد أن بداية التاريخ البشرى كانت قبل هذا الزمان ، ولكن لم تتوفر المعلومات التاريخية عن هذه الفترة وبالتالى فهو تاريخ مجهول ، لذلك بدأ ڤيكو التاريخ من الطوفان لكونه واقعة تاريخية منها يستطيع أن يجمع الخيوط حول بداية التاريخ البشري من الأساطير والتراث الشعبى ونشأة اللغات .

من الواضح تأثر ڤيكو بأفلاطون فى بحثه عن نظام أبدى دائم للأشياء . فقد قال ڤيكو بتاريخ مثالى أبدى يحكم مسار الأمم فى مولدها وتقدمها ونضجها ثم تدهورها وسقوطها . ويرى بريبه أن الأمر عند ڤيكو ليس كما هو عند كوندورسيه وكونت مسألة قانون يصوغ تقدماً أو تطوراً لا محدوداً للبشرية فى مجموعها ، وإنما هو مسألة قانون مثالى تشارك فيه كل أمة مستقلة عن الأمة الأخرى علي مدى

---

(1) Ibid; p. 50 - 51.

تطورها ، فالتاريخ الروماني من العصور الأسطورية الملكية حتى نهاية الامبراطورية على يد البرابرة مثل على هذا الكل المتكامل ، وهو مثال لتاريخ أى أمة بحيث أن مراحله المتتابعة يمكن أن توجد في أى أمة أخرى . أى أن الزمان يسير فى شكل دورى يدور ثم يعود علي نفسه ليبدأ التاريخ من جديد مع كل أمة ، وهنا يردد ڤيكو النظرة المألوفة عند كل من أفلاطون وأرسطو والرواقيين الذين كانت لديهم نفس الفكرة عن الزمان .(١)

ثانياً : مبادىء العلم الجديد :

يضع ڤيكو مبادىء علمه الجديد مفترضاً عدم وجود كتب علي الاطلاق ، رافضاً كل ما قدمه علماء اللغة والفلاسفة من أفكار بدت له مشوشة ومضطربة لسببين :-

أ - غرور الباحثين الذين يتصورون أن كل ما يعرفونه كان معروفاً منذ بداية العالم ، ولهذا لا نستطيع أن نلجأ إلى أبحاث الفلاسفة فحسب .

ب - غرور الشعوب التى يتصوركل منها أن تاريخ العالم بدأ مع بداية تاريخ شعبه وأمته ، ولذلك لا نستطيع الاعتماد على ما كتبه علماء اللغة وحدهم عن تاريخ هذه الشعوب .

ولكن وسط الظلام والغموض الذي يكتنف الشعوب القديمة يشرق نور الأبدية ، إن العالم التاريخي من صنع البشر ، وهذه هي الفكرة الرئيسية فى فلسفة ڤيكو . والتاريخ ليس من صنع القدر ولكن من صنع العقل ولهذا فلابد أن نجد مبادىء التاريخ فى تحولات عقلنا البشرى نفسه ، ويتعجب ڤيكو تعجباً شديداً من اتجاه كل الفلاسفة الجادين لدراسة العالم المادى الطبيعى الذى هو من صنع الله وهو وحده القادر على معرفته معرفة تامة ، بينما أهملوا البحث فى عالم التاريخ البشرى وكانوا كالعين التى ترى كل شىء خارجها وتحتاج لمرآة لترى نفسها .

---

(1) Bréhier; É; Historire de la philosophie; Tome II; p. 367.

ولما كان الإنسان هو صانع التاريخ فلابد أن تكون هناك تنظيمات أساسية وافق عليها كل البشر ، ومن هذه التنظيمات ستخرج المبادىء العامة الخالدة التى وجدت فى كل الشعوب . هذه المبادىء الأساسية التى يراها فيكو تتخلص فى ثلاثة : الدين أو العقيدة ، الزواج وما يترتبط به من تحكم فى الانفعالات ، دفن الموتى وما يرتبط به من خلود الروح البشرية .

تتبع ڤيكو أصول النظم الاجتماعية للأمم وردها إلى هذه المبادىء الثلاثة محاولاً أن يبين أن بقاء الحضارة متضمن فيها أو نابع منها ، ثم استخرج من هذه النظم الثلاثة سائر النظم الحضارية المتطورة . لقد لاحظ أن كل الشعوب ، بربرية كانت أو مدنية ، لها عادات بشرية ثابتة بالرغم من تباعدها في المكان والزمان . فهى جميعاً تتفق على ديانة ما ، وهى بلا استثناء تحتفل بطقوس الزواج وتدفن موتاها . وحتى الشعوب الموغلة فى التوحش نجد لديها الأفعال البشرية التى تحتفى بها وتصاحبها طقوس مقدسة مثل شعائر الدين والزواج ودفن الموتى . اتخذ ڤيكو من هذه العادات الثلاث مبادىء أساسية لعلمه الجديد واعتبرها الأصل فى الحس المشترك بين الشعوب . ولذلك ارتفعت فى رأيه إلى مرتبة القداسة لأنها هى التى تعصم الشعوب من الارتداد إلى حالة التوحش .

والمبدأ الأول يعارض فيه ڤيكو بعض الرحالة المحدثين الذين يروون عن شعوب في البرازيل وجنوب افريقيا ليس لديها أية معرفة عن الله ، كما يعارض زعم المفكر الفرنسي بايل *Bayle* (١٦٤٧ - ١٧٠٦) " أن الشعوب يمكنها أن تعيش حياة عادلة بغير حاجة للنور الإلهى " ، وقول المؤرخ الهلينستى بوليبيوس (٢٠٠ - ١٢٠ ق. م) : " إنه إذا كان هناك فلاسفة فى العالم فهناك عدل مستمد من قوة العقل لا من قوة القوانين ولا حاجة للأديان فى العالم " . يعارض ڤيكو هؤلاء جميعاً بقوله أن كل أمة تؤمن بديانة ما ، وهناك أربع ديانات هى : العبرانية ، والمسيحية ، وكلاهما يؤمن بألوهية عقل لا متناه حر أى يؤمن بالله . والأمم الأممية أو الوثنية تؤمن بتعدد

الآلهة ، وكل إله منها مؤلف من جسم وعقل . وأخيراً الديانة الإسلامية التى تؤمن بإله واحد . وحيثما وجدت الأديان وجدت التشريعات والقوانين التى تنظم المجتمع البشرى . ويدلل ڤيكو على صدق مبدأه بأن الرواقيين والابيقوريين قد أخفقوا فى تصور تشريع قانونى ينظم المجتمع البشرى لأن فلسفتهما كانت حتمية وقدرية . وإذا كانت الرواقية تقول بعناية إلهية فهى عناية ترتد إلى " اللوجوس " الكونى الذي يدبر نظام الكون من داخله . ويستمد ڤيكو الدليل الذي يؤيد حججه من أن التشريع الرومانى يجعل من العناية الإلهية تشريعه الأول .

والمبدأ الثانى وهو الزواج وما يرتبط به من انضباط العواطف والتحكم فى الانفعالات يؤكد أن جميع الشعوب آمنت بأن الالتقاء بين الرجل والمرأة لا يمكن أن يتم بدون طقوس وإلا عُدَّ سلوكاً بهيمياً منحطاً ، وانتهاكاً للطبيعة البشرية ، وخروجاً على القانون .

والمبدأ الثالث والأخير وهو دفن الوتى يؤكده أن ليس هناك شعب لا يدفن موتاه ، هذا المبدأ هو الأصل فى تأكيد إنسانية الإنسان . ويكفى أن نتصور الجثث البشرية ملقاة على الأرض نهباً للطيور الجارحة والوحوش الكاسرة ، ولو افترضنا إمكان هذا لكانت عادة وحشية فى مدن خلت من الإنسانية والتحضر . ويستشهد ڤيكو بقول المؤرخ الرومانى " تاسيتوس " (من حوالى ٥٥ م إلى حوالى ١٢٠ م) أن هناك اعتقاداً ساد الأمم الأمية وهو اعتقادهم بأن أرواح الموتى الذين لم يتم دفنهم تبقى قلقة هائمة حول أجسادها . فالأرواح اذن لا تموت بموت الأجساد ، لذلك ارتبط مبدأ دفن الموتى بخلود الروح البشرية وأصبح تعبيراً عن وحدة الجنس البشري .

بهذه المبادىء يكون ڤيكو قد قدم الجانب النظرى من فلسفته التاريخية متضمناً عناصر العلم الجديد وأصوله ، ولاشك أن مبادىء العلم الجديد هى المبادىء التى تبين حدود العقل البشرى وتتلخص كما ذكرنا فيما يأتى : الدين ، الزواج ، دفن

الموتى . فإذا أضفنا إليها المعيار الذى يستخدمه العلم الجديد وهو أن القاعدة التى تقوم عليها الحياة الاجتماعية هى مايتفق جميع البشر أو معظمهم على أنه عدل وصواب ، كانت تلك المبادىء كما قلنا تعبيراً عن حدود العقل البشرى ، ومن يتعدى هذه الحدود فهو يتعدى الحدود البشرية .

ثالثاً : المنهج :-

يؤكد الباحثون أن أهمية ڤيكو ترجع إلى المنهج أكثر مما ترجع إلى المذهب ، فقد حدد القواعد التى يجب اتباعها لدراسة أصول التنظيمات الاجتماعية البشرية . وإذا كان قد عارض المنهج الرياضى لديكارت إلا أنه لم يرفضه لذاته ولكن رفض تطبيقه فى مجال التاريخ ، وحدد منهج علم التاريخ بالنسبة لمنهجى الرياضيات والعلوم الطبيعية . ولم يكن تحديد ڤيكو لمنهج علم التاريخ أو موضوعه وليد نظرة نقدية لمناهج وموضوعات العلوم الأخرى فحسب ، بل أسهمت عدة علوم فى تشكيل نظرته إلى منهج علم التاريخ وموضوعه أهمها دراسته للغويات . فالاشتقاقات اللغوية تكشف عن أسلوب الحياة والتفكير لدى شعب ما ، والتعرف على طريقة تفكير شعب ما أو أسلوب حياته يستلزم دراسة اللغة وتتبع التطور الذى طرأ عليها خلال عصور التاريخ . ولقد أفاد من الفلسفة نزعتها الكلية الشمولية ، فالمظاهر المختلفة للحياة الاجتماعية فى مرحلة ما من مراحل التاريخ إنما تتداخل وتتشابك وتشكل نموذجاً مترابطاً ترابطاً باطنياً ومن ثم ينبغى دراستها بنظرة فلسفية شمولية .

ويعتمد ڤيكو فى منهجه على مسلمته الأساسية " يجب أن يبدأ الموضوع من حيث تبدأ المادة التى يتناولها " ولهذا يجب أن نعود مع علماء اللغة والفلاسفة إلى البدايات الأولى للإنسانية عندما كانت فى حالة توحش ، أى يجب التوفيق بين فقه اللغة والفلسفة . لذلك يقيم منهجه على الأدلة الفلسفية والأدلة اللغوية معاً ، ويبدأ بالأدلة الفلسفية ثم يتبعها بالأدلة اللغوية لتكون أدلة واقعية تؤيد الأدلة التى اهتدى إليها بالتأمل والتفكير . وتنقسم الأدلة الفلسفية إلى أدلة لاهوتية وأدلة منطقية . ويبدأ

بالأولى فيؤكد ضرورة البدء من فكرة الإله التى لم يفتقر إليها الإنسان الوحشى الذى لم تكن هناك وسيلة للحد من توحشه أو ترويضه إلا فكرة الخوف من إله معين . هذه الفكرة تبين أن الإنسان سقط فى اليأس وتطلع إلى قوة أعلى منه لتنقذه ، ولا توجد قوة أسمى من الطبيعة سوى الله . ولقد كان هذا هو النور الذى ألقته العناية الإلهية على جميع البشر ، أى أن أفكار الإنسان الأول كانت مصحوبة بالاضطراب والانفعال ، وفكرة الالوهية هى التى أضفت على تفكيره الطابع الإنسانى وحولت انفعالاته الحيوانية إلى أفكار بشرية . لذلك يجب أن نبدأ من الميتافيزيقا الشعبية التى نجدها عند الشعراء القدامى لنجد كيف أن فكرة الالوهية كانت قوة دافعة لحرية الإرادة البشرية ومكنتها من التحكم فى انفعالات الجسد وحركاته .

وإذاً فالفكرة الجوهرية التى تحدد منهج البحث عند ڤيكو وتجعل منه الرائد الحق للأبحاث التاريخية الحديثة هى ضرورة التوفيق بين فقه اللغة وبين الفلسفة ، أى أنه يبرهن بالمقابلة والموازنة - كما يقول بربيه فى كتابه تاريخ الفلسفة [1] - على الأسانيد المستمدة من الأمم المختلفة (من مصر وبلاد اليونان وروما على سبيل المثال) ووحدة قانون التطور فى كل أمة من هذه الأمم . ويضيف بربيه أنه إذا كان فلاسفة العقل لا يعترفون بشىء واحد بين البشر سوى العقل الذي يفترضون أنه مشترك بين الجميع وأن ما هو خيال وانفعالات فهو سبب الفرقة بين البشر، فانهم ينقلون هذا العقل عن طريق الفكر إلى فجر البشرية لعجزهم عن تكوين فكرة عن الأشياء البعيدة والمجهولة . من ثم يتصورونها على نمط الأشكال التى يعرفونها . وقد حاول ڤيكو أن يقلب هذه الآراء معتمداً على فقه اللغة ، وذلك لكى يثبت أن بين البشر وحدة لا تقوم على العقل ، بل أن هناك حساً مشتركاً أو حكماً بغير تأمل يمكن أن نجده عند كل الطبقات وكل الشعوب بل والجنس البشرى باكمله . فالأفكار الواحدة تنشأ فى نفس الوقت عند شعوب باكملها يجهل بعضها البعض، وهناك قوانين واحدة أو مشتركة بين الأمم لا تنبع من العقل .

---

(1) Ibid; p. 368 - 369.

ويؤكد منهج العلم الجديد دور العناية الإلهية كحقيقة تاريخية . فتطور الإنسان والمجتمع يكشف عن منطق يعلو على الوعى والرغبات الفردية ، كما يؤكد وجود عقل مدبر هو العناية الإلهية " ، وهى فى رأى ڤيكو لا تعمل بقوة القوانين وإنما تعمل من خلال عادات البشر وتقاليدهم ، فالبشر بحكم طبيعتهم الإنسانية يسعون دائماً إلى مصلحتهم الخاصة ، وعندما عرف الإنسان الزواج حرص على مصلحته فى نفس الوقت الذى حرص فيه على مصلحة أسرته . وكذلك كان شأنه فى التنظيمات الأخرى التى تتجاوز الأسرة كالمجتمع بمعناه الضيق والمجتمع البشرى بمعناه الواسع . لقد وجهته العناية الإلهية دون أن يشعر إلى هذه التنظيمات الاجتماعية .

ويميز ڤيكو بين نوعين من العناية الإلهية : أ - العناية الإلهية المتعالية المباشرة التى عبرت عن نفسها فى أعمال تاريخية خاصة وفريدة ، وهذه مقصورة على الشعب المختار . ب - العناية الإلهية الباطنة أو الكامنة فى التاريخ التى تعمل وفق قوانين موحدة وتستخدم وسائل طبيعية وبسيطة مثل العادات البشرية نفسها وهى ما كانت تمتلكه كل الأمم الأممية . ويتعارض النوع الأول (المباشر المتعالى) مع فاعلية البشر ، فهى هنا قد صنعت تاريخ البشر عن طريق الرسالات السماوية . أما النوع الثانى فهو لا يتعارض مع الفاعلية البشرية التى اتبعت وسائل بسيطة وطبيعية كالعادات البشرية ، وان كانت العناية الإلهية هى التى توجهه أيضاً ولكن بطريق غير مباشر . لقد تركت البشر يتبعون قوانين موحدة ويستخدمون وسائل بسيطة فكانت أفعالهم البشرية هى التى تصنع التاريخ وتضفى معنى على التاريخ . ويقابل هذا التعارض . أ - استثناء التاريخ العبري المسيحى من نطاق الدائرة التى يختص بها العلم الجديد . ب - تصور عالم الأمم باعتبار أن له أصولاً عديدة مستقلة بحيث يتمثل أو يتجسد في كل أمة نفس التاريخ المثالى الأبدى .

ويزعم ڤيكو أنه لم يلجأ إلى فكرة العناية الإلهية ليبرر إمكان قيام العلم الجديد ، وإنما هو افتراض أساسى يقوم عليه هذا العلم كما هو أحد وجوهه الرئيسية ، بحيث أمكنه أن يصف العلم الجديد بأنه " لاهوت عقلى مدنى عن

العناية الإلهية " . ويهمنا هنا فى حديثنا عن منهج العلم الجديد أن نتبين كيف طبق ڤيكو منهجه اللغوى واستفاد منه فى تحليل فكرة العناية الإلهية . فهو يوجه أنظارنا إلى معنى الألوهية *Divinitas* الذى يدل من ناحية اشتقاقه الأصلى على معنيين : أ - الاطلاع على الغيب الكامن فى المستقبل . ب - والاطلاع على الأسرار الخفية فى الضمائر . فالعناية الإلهية وجهت البشر دون علمهم بل على الرغم منهم إلى حفظ المجتمع البشرى وتأسيس التنظيمات الإجتماعية .

كانت هذه هى الأدلة اللاهوتية التى يكملها ڤيكو بأدلة أخرى منطقية أولها : أن البحث فى أصول التنظيمات البشرية فى عالم الأمم سواء أكانت دينية أو غير دينية يجب أن يتوقف عند بداياته الأولى ويحدد الأصول التى لا توجد أصول أسبق منها . وثانيها : تفسير طبيعة التنظيمات البشرية عن طريق التحليل الدقيق لأفكار البشر وخاصة أفكارهم عما هو ضرورى ونافع للحياة الإجتماعية البشرية ، لأن الضرورة والمنفعة هما المصدران الأساسيان للقانون الطبيعى للأمم . ولهذا يحلو لڤيكو أن يصف علمه الجديد بأنه تاريخ الأفكار البشرية أو ميتافيزيقا العقل الإنسانى . وقد بدأ هذا التاريخ أو بدأت هذه الميتافيزيقا العقلية عندما بدأ البشر يفكرون بطريقة إنسانية لا عندما بدأ الفلاسفة يفكرون فى أصول البشر .

ولابد أن نلاحظ هنا أن ڤيكو قد توصل لمبادئه عن طريق استقراء الحس البشرى المشترك الذى أدى إلى التنظيمات البشرية ولم يعتمد على كتابات المؤرخين والفلاسفة الذين يقدر أنهم ظهروا بعد تأسيس الأمم الأممية بألفى سنة على الأقل . وقد حرص منهج العلم الجديد على تحديد جغرافية الأفكار البشرية وتاريخها لكى يكون هذا التاريخ يقينياً ، كما طبق أسلوباً نقدياً جديداً تناول به مؤسسى الشعوب الأولى . ومعيار هذا النقد وفقاً للمسلمة الثانية عشر هو أن العناية الإلهية هى التى علمت كل الشعوب الحس المشترك بينها جميعاً .

وهكذا يصور العلم الجديد التاريخ المثالى الأبدى عبر الزمان ، هذا التاريخ

الذى تسير بمقتضاه تواريخ كل الشعوب من نشأتها وتطورها ونضوجها إلى تدهورها ثم سقوطها . والمبدأ الأول الثابت يفترض أن الإنسان هو الذى صنع عالم الأمم ، وأن التاريخ يكون أكثر يقيناً عندما يرويه صانع الأحداث نفسها ، وهكذا ينطبق على هذا العلم ما ينطبق على علم الهندسة وهو أنه يقوم على أساس ما وضعه من مبادىء . ومع ذلك فان التاريخ بمفهوم العلم الجديد أكثر واقعية من علم الهندسة ، لأن التنظيمات الإجتماعية والأحداث الإنسانية أكثر واقعية من النقط والخطوط والسطوح والأشكال ، والواقع أن هذه الفكرة البسيطة الرائعة تعتمد على نظرية ڤيكو فى المعرفة . وهذه النظرية البسيطة بدورها تؤكد أننا لا نعرف أو لا نعلم إلا ما نصنعه نحن بأنفسنا .

كانت هذه هى الأدلة الفلسفية التى لابد أن تسبق الأدلة اللغوية ، أما هذه الأخيرة فتقوم على عدة نقاط : تتفق الأساطير ، من ناحية ، مع التنظيمات التى يدرسها العلم الجديد اتفاقاً مباشراً وطبيعياً ، وسيكشف العلم الجديد أن الأساطير تواريخ مدنية للشعوب التي كانت بطبيعتها شعوباً شاعرية ، كما تتفق الأساليب والتعبيرات البطولية من ناحية أخرى مع هذه التنظيمات . ويتعهد العلم الجديد بدراسة هذه التعبيرات البطولية بكل ما تحمله من صدق فى الاحساس ومن خصائص التعبير . وقد استفاد ڤيكو ، كما يقول كولنجوود[1] فى كتابه فكرة التاريخ ، من الخرافات والأساطير . ذلك لأن آلهة الديانات القديمة تمثل فى صورة نصف شاعرية صرح الأوضاع الاجتماعية لهؤلاء الذين صوروا آلهتهم هذا التصوير ، وقد كانت الأساطير هى الأسلوب الذى اتخذته العقلية البدائية التخيلية للتعبير عن أشياء كانت العقلية المفكرة تلجأ إلى التعبير عنها فى صياغة القوانين المدنية والأخلاقية ، ومع ذلك فهو لا يسلم بصدق هذه الروايات تسليماً حرفياً وإنما يعدها استذكاراً لسلسلة من الحقائق المختلطة ببعضها البعض .

وتتفق التنظيمات مع اشتقاقات اللغات الأصلية ، فالعلم الجديد يدرس

---

(١) كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ص ١٤٠ .

الكلمات من حيث دلالتها على تاريخ التنظيمات الإجتماعية بحيث يبدأ بمعانيها الأصلية ويتتبع تطورها الطبيعى . وهنا يلتزم ڤيكو بالأفكار التى شرحها فى الأصول فى المسلمتين ٦٤ ، ٦٥ وتنص المسلمة الأولى - وهى تكفى وحدها لتأكيد نزعته المثالية - على أن نوع الأفكار لابد أن يتبعه نوع المؤسسات الإجتماعية أو الأنماط السلوكية . وتنص المسلمة الثانية على أن تتابع النظم الإجتماعية على هذا النظام يعد نموذجاً لتاريخ تطور معانى الكلمات فى اللغات المختلفة . فالملاحظ أن معظم كلمات اللغة اللاتينية ذات أصول مشتقة من الحياة فى الغابات ، ثم تطورت فى الحياة الريفية ، وأخيراً اقتضت الطبيعة المدنية تطوراً آخر فى استعمال اللغة . ومعنى هذا كله أن فيكو قد التزم بالأفكار التى يسيربمقتضاها تطور تاريخ اللغات .

وقد قام العلم الجديد بفحص " القاموس العقلى " للتنظيمات الإجتماعية للبشر . وهذه التنظيمات كما أكدت الأصول واحدة فى جوهرها عند كل الأمم وان تعددت أشكال التعبير اللغوى (كما تنص على ذلك مسلمة ٢٢ : يجب أن يكون فى طبيعة المؤسسات البشرية لغة عقلية مشتركة بين كل الشعوب تشكل جوهر الأشياء العملية فى الحياة الاجتماعية وتعبر عن مظاهر تكيفهم مع الأشياء ، ويظهر هذا فى الأمثال والحكم الشعبية) .

والعلم الجديد يميز الحق من الباطل عن طريق دراسته للمأثورات الشعبية التى بقيت ثابتة خلال أزمان طويلة وعند شعوب بأكملها مما يدل على أنها تصدر عن مصدر حقيقى مشترك . فالآثار المتبقية من العصور القديمة (وهى التى لم يلتفت إليها العلم حتى عهد ڤيكو ولم ينتفع بها لأنها كانت متناثرة ومشوهة) سوف تلقى أضواء هامة إذا التفت العلماء إليها ونسقوها ووضعوها فى مكانها وجمعوا أجزاءها المبعثرة . وهنا يتضح اهتمام ڤيكو بعلم الآثار الذى لم يكن قد اتضحت معالمه بعد ولم يزدهر إلا فى القرن التاسع عشر . أن البحث فى أصول التنظيمات الإجتماعية هو الذى سيثبت أنها هى الأسباب الضرورية التى نجمت عنها كل الأحداث التاريخية أو ترتبت عليها .

ويرى ڤيكو أن الأدلة اللغوية تكشف لنا بطريقة واقعية عما كشفه لنا التأمل الفكرى فى التاريخ ، فبحثه اللغوى فى أصل التنظيمات الإجتماعية سيؤيد بطريقة طبيعية ما توصل إليه من قبل بطريقة فكرية وفلسفية ، وبذلك يحقق صدق منهج بيكون الذى عبر عنه بكلمة " فكر وانظر " أى أن الدراسة اللغوية ستقدم أدلة واقعية تؤيد الأدلة الفلسفية التى اهتدى إليها بالتفكير .

والواقع أن قيمة منهج ڤيكو تتجلى فى أنه شق طريقاً جديداً لم يسبقه إليه أحد ، فهو لا يبحث فى وثائق الماضى إلا عما يمكن أن تقدمه لنا من تاريخ الذين صنعوها ومعتقداتهم . وقد كان منهجه منذ البداية منهجاً متكاملاً لأنه يدرس تاريخ البشرية دراسة استقرائية - كاستقراء بيكون للطبيعة - كما يبحث مراحل تطوره بدلاً من تأليف فروض مصطنعه عنه . والمادة التى يستخدمها ڤيكو فى هذا الاستقراء عن الماضى البعيد هى التراث الأسطورى الشعبى الذى يسجل - مهما كانت أشكاله ومهما حرِّف الواقع - التاريخ القديم للشعوب . ولهذا نراه يرجع للأشعار القديمة مثل أشعار هوميروس والتشريعات البدائية مثل قانون الألواح الأثنى عشر . ومهما يكن من رأى ڤيكو فى أصالة هذه المادة فيجب أن ننتبه للروح التى اختارها بها وكيف أن تفكيره يعد من هذه الناحية تفكيراً متقدماً على التأملات المجردة فى عصر النهضة ، إذ أسقط من حسابه كل الوثائق التى يصور المؤرخون فى القرن السادس عشر أنها تكشف لنا عن التاريخ القديم كالتنبؤات الكلدانية والقصائد الأورفية والأبيات الذهبية المنسوبة لفيثاغورس . ولعل مما يكشف عن أصالة تفكير ڤيكو أنه تسلح بفكرة مؤداها أن أصول التاريخ البشرى قليلة وغامضة وفظة ، ولهذا رفض علماً مزعوماً مكوناً من ألغاز ، كما رفض المنهج الرمزى الذى يفسر الأساطير ليستخرج منها تاريخ العقل .

الباب الثانى

قانون التطور

الفصل الأول

قانون تطور الأمم

الفصل الأول

" قانون تطور الأمم "

يتناول هذا الفصل قانون تطور الأمم الذى توج به ڤيكو كتابه الضخم " العلم الجديد " الذى صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٧٢٥ . ولكن بداية ظهور هذا القانون ترجع إلى ماقبل العلم الجديد بسنوات طويلة . فقد ظهر للمرة الأولى فى الخطبة الافتتاحية التى ألقاها ڤيكو عام ١٧٠٨ ونشرت فى كتاب عام ١٧٠٩ تحت عنوان " مناهج الدراسة فى عصرنا " . وفى هذا الكتاب يعرض ڤيكو آراءه عن التربية ، فيقول بوجود قانون للتطور النفسى يرتقى بفضله الفرد خلال سلسلة من المراحل تحددها الطبيعة بصورة ثابتة ، هذه المراحل توازى سلسلة أخرى ثابتة من المراحل الحضارية اجتازها الجنس البشرى خلال تطوره من الطفولة إلى الشباب ومن الحياة البدائية إلى حياة التمدن . ومعنى هذا أن الفرد الواحد يلخص فى صورة مصغرة عملية تطور النوع بأكمله . ويعتقد ڤيكو أن التربية ينبغى أن تقوم على هذا النظام الطبيعى للمراحل ، ويدافع – قبل روسو – عن ضرورة أن تكون التربية مطابقة للطبيعة . والواقع أن أهمية هذه الفكرة لا تقتصر على سبقها لفكرة التربية الطبيعية كما عرضها روسو فى كتابه المعروف " اميل أو التربية " ، وإنما تعود أهميتها إلى أن ڤيكو لم يقصرها على مجال التربية وحده وإنما تجاوزها إلى رؤيته الفلسفية للتاريخ ، وهى الرؤية التى تفتحت زهورها وآتت ثمارها فى العلم الجديد .

وبغض النظر عن آرائه التربوية التى تعتمد على إدراك نفسية الطفل (وتعد كما يقول بعض الباحثين رائدة علم نفس الطفل الذى أصبح علماً مستقلاً منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر) فإن هذه الآراء تلقى الضوء على نظريته فى المعرفة التى تلخصها هذه العبارة اللاتينية *Verum ipsum factum* (الحق هو

العمل نفسه) وهو المعيار المعرفى الذى وضعه ڤيكو عن قصد فى مقابل المعيار الديكارتى المعروف عن الحقيقة وهى الأفكار الواضحة المتميزة .

ولعل هذه العبارة ، كما يقول كروتشه ، تحتوى على بذور نظريته المتكاملة فى المعرفة . فنحن لا نحصل على المعرفة الحقة إلا إذا قام نفس الشخص بالتفكير والفعل معاً ، والإنسان صانع تاريخه يمكنه أن يعرفه ، كما أنه لا يعرفه إلا لأنه صانعه . وغنى عن الذكر أن هذه الفكرة المحورية ترتكز عليها النزعة التاريخية *Historicism*[١] التى يعد ڤيكو أحد روادها . كما تعد العبارة – التى أشرنا إليها – بداية دفاع ڤيكو عن المنهج التأليفى أو البنائى وبداية هجومه على المنهج التحليلى الرياضى عند ديكارت وأتباعه وعلى الأفكار الفطرية الديكارتية التى انتقدها وذهب إلى أنها لا تكونٌ معرفتنا الحقيقية مهما كانت واضحة ومتميزة ، كما أشرنا فى الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث . وتوضح هذه العبارة أيضا اننا لا نفهم فكرة إلا إذا صنعناها بأنفسنا ، ومن ثم لا يفهم البشر تاريخهم إلا لأنهم هم صانعوه . أما الطبيعة فيعرفها الله وحده معرفة كاملة لأنه هو الذى خلقها .

من هنا نشأت فكرة قانون التطور الذى كان فى البداية قانوناً للتطور النفسى فى العملية التربوية ، ثم اختمر فى ذهن ڤيكو فأصبح قانوناً لتطور الأمم بعد أن نمت هذه البذور الأولى وتفتحت فى شكل نظرية متكاملة للمعرفة قدمها فى كتابه "الحكمة الإيطالية القديمة " عام ١٧١٠ وأشار لها فى الفصلين الأول والثالث من هذا الكتاب الذى عبر فيه عن نزعته الإنسانية . ولا عجب فى هذا فهو فيلسوف التاريخ الإنسانى الذى لم يصنعه الإنسان بعقله وحده بل بقلبه وحسه وعاطفته وعمله وواقعه البشرى المتفرد المعقد .[٢] وقد ظهرت فكرة العلم الجديد لأول مرة فى أحد فصول مؤلف ڤيكو " القانون العالمى " تحت اسم "محاولة عن العلم الجديد " وهو الذى صدر الجزء الأول منه عام ١٧٢٠ كما أشرنا من قبل فى الفصل الأول من الباب الأول لهذا

(١) من أعلام هذه النزعة التاريخية سافينى Savigny وايشهورن Eichhorn ورانكه Ranke .
(2) Vico; On the study Methods of our time; p. XXVII - XXXiii.

البحث . وأخيراً ظهر العلم الجديد فى طبعته الأولى ١٧٢٥ وأفرد ڤيكو الكتاب الرابع منه لقانون التطور وهو ما سنعرض له الآن . اعتمد ڤيكو فى هذا الجزء على القانون الرومانى اعتماداً كبيراً وكتب باستفاضة فى هذا الشأن (فقد كان يشغل منصب استاذ للقانون الرومانى بجامعة نابولى كما أشرنا من قبل) . ووصل اهتمامه بالقانون إلى حد القول بأن الفلسفة نشأت عن القانون بصفة عامة ، على نحو ما سنرى فى سياق هذا الفصل الذى سيكشف لنا أيضا كيف سبق ڤيكو بعض فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ومنهم على سبيل المثال أوجست كونت فى قانونه المعروف عن تطور الشعوب (قانون الأحوال الثلاثة) وكيف مهد له .

انتهى ڤيكو من دراسته للحضارات القديمة - وخاصة اليونانية والرومانية وبعض الحضارات الشرقية - إلى قانون يحكم تطور الشعوب . فالأمم فى تطورها تتقدم وترتقى من الهمجية إلى الأديان ، ثم تنتقل إلى الخضوع للقوانين والحكومات ، حتى تصل إلى مرحلة التعامل الإنسانى فى حياة اجتماعية منظمة . وكل الشعوب تمر بالتاريخ المثالى الأبدى فى نشأتها وتطورها ونضجها ثم تدهورها وسقوطها .

هذه الدورة التاريخية التى تمر بها كل أمة تتعاقب فى مراحل ثلاث ، وهذه المراحل الثلاث هى القانون الذى انتهى إليه ڤيكو واستقاه من التاريخ المصرى القديم كما اعترف بذلك فى أكثر من موضع ، بل أنه اعتبر هذا القانون - الذى وضعه المصريون لشرح تاريخ العالم قبلهم - بديهية من بديهيات العقل التى يجب التسليم بها منذ البداية ، فكانت المسلمة رقم ٢٨ ومجمل هذه المسلمة أن تاريخ البشرية يمر بثلاث مراحل رئيسية هى المرحلة الإلهية ، والمرحلة البطولية ثم المرحلة البشرية .

فالمرحلة الإلهية تتصف بالتأليه واعتبار كل ما فى العالم ملكاً للآلهة ، والحكومة نفسها إلهية لها إرادة آمرة ناهية ، وهى تختار من يمثلها على الأرض وكان

الحكم الاستبدادى فيها بيد الكهنة الذين يمثلون رجال الدين ويدعون انهم يحكمون بمقتضى قوانين إلهية يتلقونها عن طريق النبوءات والتكهنات . وفى هذا العصر الالهى سيطرت الخرافة والأساطير على الفكر ، وساد الخوف الذى كان الدافع الأول للإنسان لتصوره للآلهة عن طريق المخيلة . وكانت اللغة فى هذا العصر لغة رمزية سرية كاللغة الهيروغليفية .

أما المرحلة البطولية فهى مرحلة أنصاف الآلهة من البشر الذين يزعمون انهم ينحدرون من أصل إلهى لينظر إليهم نظرة التقديس والتأليه . وقد سُمى عصرهم بعصر الأبطال ، وكان هؤلاء الأبطال هم آباء الأسر الذين لهم الحق المطلق على أفراد أسرهم كحق الحياة والموت وحق البيع والشراء . وقد خطت البشرية فى هذا العصر البطولى خطوة إلى الأمام فتحررت من استعباد الآلهة وانتقلت إلى استعباد الإنسان لغيره من بنى جنسه . أما اللغة فكانت لغة شعرية تتغنى بالبطولة والشجاعة التى اتسم بها العصر كله .

وأخيراً تأتى المرحلة البشرية فنجد المساواة فى الحقوق أمام القانون وحصول كل انسان على حقوقه الطبيعية المشروعة فى ظل حكومات ديمقراطية شعبية حققت المساواة بين طبقة النبلاء وطبقة العامة واعترفت بحق هذه الطبقة الأخيرة في المشاركة فى نظام الحكم ، وكانت اللغة فى هذا العصر الأخير لغة شعبية غلب عليها النثر .

ذلك باختصار هو قانون تطور الأمم . ولقد قام ڤيكو بالتدليل على صدقه فى كل ما يتعلق بحياة الشعوب والطبائع الثلاث التى تسودها وما يتبعها من عادات ثلاث . وبفضل هذه العادات تلاحظ ثلاثة أنواع مختلفة من القانون الطبيعى للأمم وما يتبع هذا القانون من تنظيم المراحل المدنية ، فكانت الحكومات الثلاث وما يقابلها من لغات ثلاث ، وتشكلت ثلاثة أنواع من الرموز ، كما كانت هناك ثلاثة أنواع من التشريع والسلطة والعقل والأحكام .

وسوف نتتبع الآن بالتفصيل تطبيق ڤيكو لقانون التطور على كل هذه المجالات .

أنواع الطبائع الثلاثة ... لابد أن نذكر في البداية أن كلمة *Nature* عند ڤيكو تدل على معناها الأصلي في اللغة اللاتينية وهو المعنى الحيوى المتعلق بالأصل والميلاد والنشأة . وقد كانت الطبيعة الأولى دينية تتمثل في الشعراء اللاهوتيين الذين كانوا هم الحكماء الأول للأمم الأممية . هذه الطبيعة تزداد قوة في مرحلة ضعف التفكير العقلى وينشط فيها الخيال ، وهى في الوقت نفسه طبيعة شعرية . وقد تأسست الأمم الأممية في هذه المرحلة على الدين وعبادة الآلهة التى خلقتها الأمم بنفسها . أما الطبيعة الثانية فهى بطولية ، حيث اعتقد الأبطال أنهم من أصل إلهى وأنهم يتلقون النبوءات من الآلهة ، وجعلوا أنفسهم نبلاء مسيطرين على العمالقة العاقلين الذين دفعهم البرد القارص للبحث عن النجاة في أماكن مسكونة فلجئوا إلى النبلاء الذين عاملوهم معاملة العبيد . وأما الطبيعة الثالثة فهى بشرية أو إنسانية وتتميز بالعقل والتواضع والشعور بالواجب ومعرفة قوانين الوعى والضمير .(١)

وتولدت من هذه الطبائع **أنواع العادات الثلاث** .. كانت العادات الأولى ممتزجة بالدين والتقوى ، وكانت العادات الثانية منفعلة غضوباً تتمثل في عادات البطل سريع الغضب مثل أخيل . وأما العادات الثالثة فتتسم بالإحساس بالواجب ويتعلمها كل فرد بدافع من شعوره بالواجب الإجتماعى .

ومن هذه العادات تشكلت **أنواع القانون الطبيعى الثلاثة** .. فالقانون الأول دينى إذ لم تكن هناك وسيلة لترويض البشرية الأولى في حالة توحشها إلا الدين ، ولهذا كانت الآلهة في هذه المرحلة هى التى تقود الشعوب ، وكانت القوانين تبعاً لذلك قوانين إلهية . والقانون الثانى بطولى وهو قانون القوة التى يتسلح بها الأبطال . ولكن الدين يحكم هذا القانون بطريق النبوءات الإلهية حيث لا مجال لقوانين بشرية . أما القانون الثالث فهو انسانى نشأ عن تطور العقل البشرى . ومن

---

(1) Vico; New Science; p. 285 - 286.

القانون الطبيعي للأمم - الذى وضعته العناية الإلهية بصورة طبيعية من خلال العادات والأعراف البشرية - نشأت كل النظم الإجتماعية وتكونت الحياة المدنية فى الشعوب الأولى فكانت **الأنواع الثلاثة من الحكومات** .

كانت الحكومات الأولى دينية إذ اعتقد البشر أن كل شيء يحكمه الآلهة ، وكانت النبوءات والتكهنات هى التنظيمات الأولى فى العصور القديمة . أما الحكومات الثانية فكانت بطولية أو ارستقراطية تغلب عليها القوة . هذه الحكومات ميزت بين النبلاء الذين انحدروا من أصل إلهى ولهم كل الحقوق المدنية المكفولة للطبقات الحاكمة ، وبين العامة الذين يعتبرون من أصل متوحش لا يسمح لهم بالاستمتاع بالحرية الطبيعية . ثم أصبحت الحكومات الثالثة حكومات بشرية تميزت بالمساواة فى العقل ، الذي هو الميزة الطبيعية للإنسان ، ولهذا أصبح الجميع متساوين أمام القانون .[1]

ويقابل هذه الحكومات **الأنواع الثلاثة من اللغات** ... فقد كانت اللغة من النوع الأول لغة دينية ، وهى لغة صامتة خرساء ، أى لغة مقدسة تصاحب المرحلة الدينية الأولى وتتم بها الطقوس ويطلقون عليها اللغة السرية المقدسة . وقد تمثل هذا النوع من اللغات عند المصريين القدماء فى اللغة الهيروغليفية . أما اللغة من النوع الثانى فكانت هى اللغة الرمزية التى قامت على الصور والاستعارات ، وهى لغة الشعارات البطولية التى عاشت فى ظل النظم العسكرية . وأخيراً يأتى النوع الثالث من اللغات وهى لغة الحديث المنطوق الذي تستعمله كل الشعوب الآن كما هى لغة الرسائل والحياة اليومية .

ويصاحب هذه اللغات **الأنواع الثلاثة من الحروف** *Character* فقد كانت الحروف الأولى رموزاً دينية مقدسة استعملتها كل الشعوب فى بداية تاريخها ، إذ كان الناس يفكرون بمفاهيم عامة أو كليات خيالية أملتها بالفطرة طبيعة العقل البشرى التى تميل إلى كل ما فيه وحدة واضطراد . ولما كان البشر فى تلك الفترة من

---

(1) Ibid; p. 289 - 290.

حياتهم عاجزين عن التجريد المنطقى ، فقد وصلوا إلى تلك الكليات الشعرية عن طريق التخيل . وقد ردوا المفاهيم الكلية الشعرية إلى أنواع تخص كل جنس مثلما يردون لجوبيتر كل ما يتعلق بالنبوءات ، ولجونو (هيرا زوجة زيوس عند الأغريق) كل ما يتعلق بأمور الزواج .. وهكذا . أما النوع الثانى من الحروف أو الرموز فهى الحروف أو الرموز البطولية .. وهى كذلك كليات متخلية ردوا إليها الأنواع المختلفة للأشياء البطولية ، مثلما نسبوا لأخيل كل أفعال الشجاعة ، ولاوديسيوس كل حيل البشر فى المهارة والبراعة والمكر . وقد أصبحت هذه الأجناس الخيالية - بعد ان تعلم العقل البشرى كيف يجرد الأشكال والخصائص من الموضوعات - أجناساً عقلية مهدت الطريق للفلاسفة وللتفكير الفلسفى . وأخيراً اخترعت الحروف الشعبية التى سارت جنباً إلى جنب مع اللغات الشعبية ، وكانت هذه اللغات الشعبية تتألف من كلمات ، والكلمات نفسها أجناس عامة للجزئيات التى استعملتها اللغات البطولية فى المرحلة السابقة . ويقدم فيكو مثلاً على ذلك من هذه الجملة .. " أن الدم يغلى فى قلبى" " *The blood boils in my heart* " مثل هذه العبارة التى كانت تنتمى للعصر البطولى تحولت فى العصر الشعبى إلى عبارة مباشرة فأصبحت " أننى أشعر بالغضب " " *I am angry* " هكذا تطورت اللغة ، ومع التطور أصبحت للعامة السيطرة على اللغات والحروف . وهذه السيطرة اقتضت من الشعوب الحرة أن تكون سيدة قوانينها ، لأنهم يفرضون القوانين التى يريدون أن يجبروا الأقوياء على مراعاتها . وهذه السيادة على الحروف واللغات الشعبية تتضمن - بحكم الحياة المدنية - سبق الحكومات الشعبية الحرة على الملكيات .(١)

تبع هذا **أنواع ثلاثة من التشريع** ، .. فقد كان النوع الأول حكمة إلهية أو علماً ينصب على فهم الأسرار الإلهية التى تعبر عنها نبوءات الكهنة ، وكان الحكماء الذين يفهمون هذه النبوءات هم الشعراء اللاهوتيون - وهم أنفسهم أول حكماء العالم الأممى القديم - وكانوا يسمون العارفين بالأسرار *mystai* وقد ترجمها الشاعر الرومانى هوراس بالمترجمين عن الآلهة أو المفسرين لأقوالهم . هكذا كان

---

(1) Ibid; p. 292 - 293.

المعنى الأول للترجمة (أو التفسير والشرح) وهو *interpretari* متصلاً بذلك التشريع القديم وهو فعل اشتق - في رأى فيكو - من فعل آخر هو interpatrari أى الدخول في مجتمع الآباء ، إذ كان الآلهة يسمون في ذلك الحين بالآباء . كان هذا النوع من التشريع لا يقيس العدالة إلا بمقياس الطقوس الإلهية المهيبة . ومن ثم احتفظ الرومان بنوع من التبجيل لمواد التشريع *actus legitimi* أو الأفعال التشريعية ، كما احتفظوا فى قوانينهم بتعبيرات توحى بتبجيل الطقوس الدينية مثل *iustae nuptiae* للزيجات الشرعية *iustum testamentum* أو الوصية الشرعية .

أما النوع الثانى فهو التشريع البطولى الذى كان يلتزم الحيطة فى استخدام كلمات معينة . وتمثله حكمة أوديسيوس الذي كان يحصل على كل ما يطلبه وفى الوقت نفسه يراعى الدقة فى استخدام كلماته ، وكذلك قامت شهرة المشرعين الرومان على ما يسمى *Cavere* أى على عنايتهم الشديدة فى صياغة الكلمات صياغة دقيقة . ولم يكن تعبيرهم عن الالتزام بالقوانين *respondere* إلا نوعاً من التحذير لعملائهم بألا يقدموا قضاياهم إلى ساحة القضاء إلا فى صيغة دقيقة تستوجب الشروع فى تنفيذها ، بحيث لا يستطيع القاضى أن يؤجلها أو يسحبها . وقد حذا أساتذة القانون - فى عودة العصور البربرية - حذو الرومان فى اللجوء إلى الحيطة الشديدة والعناية الدقيقة بصيغهم القانونية للعقود والوصايا والدعاوى .

وأما النوع الثالث والأخير فهو التشريع البشرى الذى ينظر إلى صدق الوقائع نفسها ثم يكيف القاعدة القانونية بما يتطابق معها حتى تتحقق المساواة بين الناس . وهذا النوع من التشريع تراعيه الحكومات الشعبية والحكومات الملكية على السواء ، وذلك كله مصداقاً لمسلمات فيكو السابقة (رقم ٩ - ١١١ - ١١٣) التى أوردها فى عناصر العلم الجديد من أن الشعوب فى حالة نقص المعرفة إنما تبحث عما هو يقينى يرضى إرادتها ومشاعرها ، أما فى حالة الاستنارة والعلم فانها تبحث عما هو حق . فاليقين *Certum* تسنده سلطة آلهة أو أبطال ، لهذا كان الناس

ملزمين بتنفيذه ، أما الحق فهو يستضيء بنور العقل ، لذلك كان الحق *Verum* عند المشرعين يساوى العدل .

ويتبع التشريع بأنواعه الثلاثة بأنواع **ثلاثة من السلطة** .. فالسلطة الدينية مستمدة من الحكومات الإلهية التي سادت في عصر الأسر حيث سيطر الاعتقاد بأن الملكية هي ملكية الآلهة . والسلطة البطولية تعتمد على قوانين لها جلالها ، وقد ساد هذا في عصر الارستقراطيات البطولية التي تجسدت فيها السلطة في المجالس التشريعية الحاكمة . أما السلطة البشرية فتعتمد على ثقة الشعوب في أصحاب الخبرة وذوي البصيرة ، وقد ساد هذا في عصر الديمقراطية الشعبية عندما أصبحت سلطة مجلس الشيوخ بمثابة حارس للقوانين ، وأصبح الشعب هو المشرع الحقيقي للقوانين ، واقتصرت سلطة المجلس على اصدار هذه القوانين وصياغتها في صورة رسمية .

ثم يقول فيكو **بثلاثة أنواع من العقل** .. فالعقل الإلهي لا يعرف عنه البشر سوى ما كشفه لهم الإله . ومن البشر من استطاع أن يتوصل للعقل الإلهي بالمناجاة الداخلية . ثم كانت المناجاة الخارجية عن طريق الرسل ، وكانت النبوءات والتكهنات لدى الأمم بمثابة رسائل دينية آتية من الآلهة . ثم يأتي العقل البطولي الذي تعبر عنه مجالس الشيوخ البطولية التي كانت تحدد الأسس العقلية التي تقوم عليها الدولة . وهذه الأسس كما حددها المشرع أولبيان *Ulpian* [١] ليست معروفة لكل البشر ، وإنما هي مقصورة على فئة قليلة خبيرة بشئون الحكم لتحديد ما هو ضروري لحفظ الجنس البشري . وأخيراً نجد العقل الطبيعي في عصر الحرية الشعبية وتطور الملكيات ، وهو العصر الذي أصبح فيه المواطن يشارك في الثروة العامة، وأصبحت المنافع الشخصية قليلة وتحولت إلى المساواة بالآخرين ، أي أن

---

(١) Ulpian مشرع روماني ولد ما بين نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي – شغل منصب القضاء في عهد سيفيروس الكسندر وتميز بكتاباته الوفيرة في القانون .

تطابق المصلحة الشخصية مع المصلحة العامة (وهو ما يسمى بالمساواة الطبيعية) قد ساعد علي تطور المجتمعات الأولى من الفظاظة البدائية إلى التمدن .

ويذكر فيكو أن هذه الأنواع الثلاثة من العقل يمكن أن تكون أساساً لتاريخ القانون الروماني طبقاً لمسلمته الأساسية التي تقول " أن الحكومات يجب أن تطابق طبيعة المحكومين " ويفسر فيكو طبقاً لهذه المسلمة الأسباب الكامنة وراء تطبيق التشريع القديم لقانون الألواح الأثنى عشر [1] بكل الصرامة المعروفة عنه ، وكيف اتجهت القوانين الرومانية من الصرامة إلى الرفق واللين ثم إلى المساواة الطبيعية . كما يفسر فيكو هذه الصرامة التي يتميز بها القانون الروماني بأنها ترجع إلي عادات تولدت عن طبيعة النبلاء ، وأن هذه العادات نفسها نشأت عنها أشكال الدولة التي طبقت القانون بدورها تطبيقاً صارماً .

ففي العصور الوحشية المتطرفة التي مرت بها البشرية الأولى ، وعندما كان الدين هو الوسيلة الوحيدة القادرة على ترويض البشر ، دبرت العناية الإلهية أن يعيشوا في ظل الحكومات الدينية وأن تقدس القوانين ، مما أدى إلى اعتبار هذه القوانين أسراراً خفية عن جماهير الناس . وقد كانت القوانين في حكومات الآباء بطبيعة الحال من هذا النوع ، وكانت تصونها طقوس مقدسة تتكلم بلغة خرساء .

---

(١) قانون الألواح الأثنى عشر هو أول تدوين للقانون الروماني (بين سنتي ٤٥١ و٤٥٠ أى منتصف القرن الخامس ق . م) عن طريق حكومة الأثنى عشر . عرضت هذه القوانين في الفوروم (ساحة مناقشة أمور الدولة من حرب وقوانين وسياسة) ثم انمحت هذه الألواح أو ضاعت أثناء هجوم الغاليين عام ٣٨٧ ق . م ، وهي تعد أساساً لقاعدة القانون الروماني الذى اعتمد في تطوره بعد ذلك على شروح المشرعين المتأخرين لهذه الألواح والتعليق عليها . وهذه الألواح الاثنى عشر لم تكن قد فصلت بعد بين القوانين المدنية والجنائية والقضائية . وقد وضع هذا القانون نتيجة لثورة العامة في سبيل المساواة بالاشراف . ويرى العالم الإيطالى *Pais* أن قانون الألواح الأثنى عشر ليس عملاً تشريعياً وضع دفعة واحدة فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وإنما هو في الواقع ثمرة لتصور العرف الروماني القديم خلال القرنين الخامس والرابع ق . م وأنه ليس إلا مجموعة من هذه القواعد العرفية المتطورة وضعت في أواخر القرن الرابع ق . م فالعرف كان هو القاعدة الأساسية في وضع القانون ، أما التشريع فكان هو الاستثناء .

وكانت هذه الطقوس بدورها ضرورية لعقول البشر البسيطة في ذلك الحين من أجل تبادل المنافع بينهم - باستعمال اشارات صامتة - ثم جاءت الحكومات البشرية للدول الارستقراطية وكان من الطبيعي أن تواصل تطبيق العادات الدينية وأن تحافظ علي الطابع الديني والسري للقوانين لأن هذا الطابع السري هو روح الحكومات الارستقراطية وحياتها .

ومعنى هذا أن طبقة الحكومات الارستقراطية كان يهمها أن تحافظ علي سرية القوانين وقداستها حتى تضمن ولاء العامة لهذه القوانين التي تكون جزءاً كبيراً من السلطة المدنية . ولما جاء عصر الحكومات الشعبية - وهو عصر المساواة الطبيعية أو المساواة المدنية - تطورت اللغات والآداب الشعبية التي تفوقت فيها جماهير الناس جنباً إلى جنب مع تطور الحكومات . وقد دونت القوانين بهذه اللغات الشعبية التي جردتها من السرية التي كانت لها قديماً وجعلت عاماً ما كان سرياً . وقد أثر هذا على التنظيمات المدنية في ظل الحكومات الملكية التي حرص فيها الملوك على تنفيذ القوانين على أساس المساواة الطبيعية ، وبهذا جعلوا الأقوياء والضعفاء متساوين أمام القانون ، وهو أمر لم يكن من الممكن أن تطبقه غير الحكومات المدنية ، على حين أن المساواة المدنية أو مبررات قيام الدولة لم يكن ليفهمها سوى عدد قليل من الحكماء الذين لديهم خبرة بفن الحكم وإدارة شئون الدولة .(١)

ثم كانت **الأنواع الثلاثة من الأحكام** .. كانت الأحكام دينية في المرحلة الأسرية ، إذكانت السلطة المدنية لا يحكمها قانون ، فكان آباء الأسر يلجأون إلى الآلهة لتساعدهم على حل بعض القضايا . وكانت الحلول تصل إليهم على صورة نبوءات ينطق بها الكهنة أو الكاهنات المقدسات في المعابد ، وبذلك كانت الأحكام الأولى إلهية يحافظ عليها الآلهة لأن التنظيمات الأولى كانت دينية ، ولذلك أيضا يعاقب من يعتدى عليها من قبل الآلهة . وهذا هو السبب الذي جعل الأغريق يعتبرون المجرمين خارجين على الآلهة فيعاقبونهم عقاباً قاسياً ويزعمون أنه عقاب إلهي . وهو الذي جعل الحروب البطولية كذلك حروباً من أجل الدين . وقد كان القانون الروماني

(1) Vico; New Science; p. 301 - 303.

يعامل العبيد كأشياء لا حياة فيها لا كبشر لأنهم اعتبروهم بلا آلهة . وقد سادت هذه الأحكام الدينية طوال الفترة البربرية لكل الشعوب ثم استمرت لفترة طويلة في الحكومات البطولية . ونأتي بعد ذلك إلى الأحكام العادية المستمدة من القوانين الإلهية . وهي أحكام تتميز بالدقة الشديدة في الصياغة اللفظية إلى حد أن من يسقط فصلة أو كلمة من صيغة الدعوى تسقط قضيته ، كما عبر عن ذلك التشريع الروماني القديم . وقد كانت هذه في مرحلة الارستقراطية البطولية التي أضفى فيها الأبطال الصفة الآلهية على أنفسهم لاعتقادهم أنهم من أصل إلهي . وأخيراً نصل إلى الأحكام الإنسانية التي كان الحاكم فيها يصدق الوقائع التي تساندها القوانين كما تحتم أوامر الضمير ، وكان هذا بفضل الحكومات الشعبية وكرم الملوك الذين كانوا يفاخرون دائماً بأنهم في أحكامهم فوق القوانين ، وأنهم لا يخضعون لأحد إلا لله ولضميرهم ، وما يزال بعض هذه الأحكام يطبق في العصور الحديثة .

هكذا نجد أن فيكو يؤكد العهود الثلاث للتاريخ بأن هناك ثلاث مراحل من العصور التاريخية ، وهي العصور الإلهية والبطولية والبشرية التي يقابلها ثلاث مراحل تشريعية ، وأن هذه القوانين أو التشريعات بدأت بالقوانين الإلهية ثم البطولية وكانت تتميز بالصرامة الشديدة . ثم بدأت هذه الصرامة تخف وطأتها مع تطور العصور التاريخية لتلائم التطور الذي لحق بالتقاليد والحكومات مثلما حدث لقانون الألواح الأثنى عشر عندما خفف المشرعون من حدته في مرحلة المساواة الطبيعية أي المرحلة البشرية ، حيث تطورت العادات وتغيرت التقاليد البشرية في كل عصر إلى أن وصلت للمرحلة البشرية التي بدأت مع الحريات الشعبية ، وكان هذا هو القانون الطبيعي للأمم الذي علمته العناية الإلهية للشعوب .

هذه العصور التاريخية هي النظام الأبدي الثابت الدائم الذي يجري عليه تعاقب التنظيمات البشرية الإجتماعية . ويستدل فيكو على هذه العصور بمزيد من البراهين الارستقراطية البطولية ليثبت تطور التاريخ في الزمان . فقد تطورت النظم الارستقراطية من ضرورة حماية حدود الحقول لوضع حد للفوضى في المرحلة

الوحشية ، فتحددت حدود الحقوق بالاتفاق بين البشر . وكان هذا الاتفاق موضع احترام في زمن لم تكن فيه قوة مسلحة وبالتالي لم تكن هناك سلطة قانون مدني . وتطورت الأمور بعد ذلك فبدىء في ظل الحكومات الدينية بوضع حدود للأسر ثم العشائر ثم الشعوب والأمم . وعاش العمالقة حياة مستقلة كل منهم مع زوجته وأولاده في كهفه الخاص ، لا يتدخل أحدهم في شئون الآخر ويقتلون بوحشية أي فرد يقتحم حدود الآخر . واستمرت هذه العادة وظهرت واضحة في الحكومات البطولية التي تم فيها الاستيلاء على الأراضي أو انتزاعها حتى ترتبط الأملاك بالعشائر البدائية الأخرى فتحددت حدود الشعوب . وفي المدن البطولية أصبحت الأراضي خاضعة لسيادة الأبطال حيث كان لهم الحق في استقطاع أراضي معفاة تماماً من الدين والضرائب (وهذا ما يسمى *quiritary ownership*) وبالإضافة إلى هذا النوع من الملكية وضع الأبطال أيديهم على أراضي زعموا أنها وصلت إليهم عن طريق الآلهة (وهو ما يسمى بالملكية المدنية *Civil ownership*) وسوف نتناول بالتفصيل أنواع الملكية الثلاثة التي سادت في المدن البطولية أثناء عرضنا للسياسة الشعرية في الفصل التالي .

ويواصل فيكو سرد براهينه على العصور التاريخية من خلال تطور الخصائص البطولية . فبعد أن قام الأبطال بحماية الحدود ثم الحقول والأملاك كان لابد من حماية التنظيمات البطولية لضمان بقاء نظم الحكم البطولية . وتعد حماية التنظيمات خاصية طبيعية في الحكومات الارستقراطية التي كانت ترغب في المحافظة على الإرث والثروة داخل طبقة النبلاء لتكسب هذه الطبقة مزيداً من القوة . وعندما بدأ الجنس البشري الاستقرار في كل مكان ، ونتيجة لدخول العامة من الشعب في علاقات زواج فيما بينهم ، تسربت الثروة من بيوت النبلاء وأصبح للعامة حق إبرام عقود الزواج وممارسة طقوسه بعد ما كانوا يعاملون كالعبيد المجردين من أمثال هذه الحقوق .[1] وفازت العامة بحقوقها من النبلاء كحق ملكية الحقول التي

(1) Ibid; p. 319.

منحها النبلاء إياهم بمقتضى قانون الألواح الأثنى عشر ، ولكن لم تتجاوز ملكيتهم لهذه الحقول ملكية المحاصيل الزراعية (ويسمى هذا النوع من الملكية *bonitary ownership*) وهذا ما سوف نعرضه بالتفصيل فى السياسة الشعرية من الفصل التالى . غير أن العامة ظلوا غرباء ليس لهم حق المواطنة وليس لهم حق توريث أرضهم لعشائرهم ولا حق الزواج من طبقة النبلاء . وبقى هذا هو حالهم فى المدن البطولية ثم تغير هذا الحال بعد ما حصل العامة على كافة حقوقهم المدنية فى عصر الحريات الشعبية وأصبحوا على قدم المساواة مع النبلاء .

وأخيراً نأتى إلى حماية القوانين التى كانت خاصية تميز الارستقراطية البطولية . والواقع انها بدأت منذ العصور الدينية التى سادتها القوانين الإلهية المقدسة أو السرية – التى كانت تقام لها احتفالات مقدسة وطقوس خاصة – إلي أن جاءت الارستقراطية البطولية فاشتدت الصرامة فى حماية القوانين – مثل حماية الرومان لقانون الألواح الاثنى عشر – وأصبحت هى الوسيلة الوحيدة لضمان خضوع العامة لطبقة الأشراف . هكذا احتفظ النبلاء كما رأينا بسرية القوانين . ويثبت ڤيكو رأيه بشواهد من التاريخ الرومانى حيث كان علم تفسير القوانين مقصوراً على أعضاء مجلس الشيوخ الذى يتكون من طبقة النبلاء فى الحكومات الارستقراطية البطولية . وكان النبلاء يقومون بدور الكهنة فى المحافظة على سرية القوانين وقدسيتها لأنها الفئة القليلة الخبيرة بفن الحكم ، كما أوضحنا ذلك فى كلامنا عن العقل البطولى ، ثم جاءت الحكومات الشعبية وشاركت العامة فى وضع القوانين .

ويذكر ڤيكو أدلة أخرى تثبت المسار الطبيعى لحياة الشعوب ومروره بالمراحل التاريخية الثلاث . وطبقاً لمسلمة ڤيكو التى تنص على أن العادات الفطرية لاتتغير كلها دفعة واحدة ولكن تتغير بالتدريج وتستغرق فترات طويلة من الزمن " (مسلمة ٧١) . فإنه لا توجد حدود فاصلة بين المراحل التاريخية الثلاث ولكن هناك

امتزاج طبيعي بينها ، فنجد في كل مرحلة أثراً للمرحلة التي سبقتها . والدليل على هذا أن الآباء عندما انتقلوا من حياة التوحش الأولى إلى الحياة البشرية احتفظوا في ظل الحكومات الدينية بقدر كبير من وحشيتهم وقسوتهم . ولما تكونت الحكومات الارستقراطية الأولى بقيت السلطات الفردية في أيدي آباء الأسر على النحو الذي كانت عليه في الحالة الطبيعية السابقة ، وهكذا نشأت نظم الحكم الارستقراطية الأولى محتفظة بقدر كبير من السلطات الأسرية ، وعندما تحولت هذه الحكومات الارستقراطية إلى حكومات شعبية تصورت الشعوب أن الحكام هم الذين يحمونهم وتركت لهم مقاليد الحكم . وهكذا كانت الحكومات الشعبية بطبيعتها حكومات حرة تديرها قلة من الارستقراطية ، ثم تطور الأمر فاستغل هؤلاء الحكام سلطاتهم لتحقيق مصالحهم الخاصة . وكان حرص الشعوب الحرة على مصالحها ومنافعها الخاصة دافعاً لها على أن تترك حريتها الشعبية نهباً لطموح أولئك الحكام ، فنشأت الخلافات والفتن والحروب الأهلية التي دمرت الأمم الحرة وعجلت بقيام نظم الحكم الملكية .[1]

ثم يتابع ڤيكو نشأة الحكم الملكي (وهو أفضل أشكال الحكم في رأيه) ويتصور أن هناك قانوناً ملكياً دائماً ينشأ بصورة طبيعية بحيث تستقر الأمم في ظل الحكم الملكي . هذا الشكل الملكي عرفته الشعوب الرومانية وتعرفت فيه على شخص أوغسطس مؤسس النظام الملكي الروماني .

وعلى الرغم مما أصاب هذا القانون من سوء الفهم ، فإن المشرعين الرومان قد فهموه فهماً صحيحاً . ويكفي أن *Pomponius* [٢] قد وصفه وصفاً دقيقاً في هذه العبارة الموجزة " لقد تأسست الملكيات عندما فرضتها التنظيمات نفسها " . هذا القانون الملكي الطبيعي الدائم يقوم على أساس المنفعة الطبيعية الدائمة . ولما كان

---

(1) Ibid; p. 332.

(٢) مشرع روماني من القرن الثاني الميلادي . من آثاره كتاب عن تاريخ علم القانون لم تبق منه سوى أجزاء قليلة وردت في مجموعة القانون المدني الروماني .

الناس فى الحكومات الشعبية الحرة يسعون لتحقيق مصالحهم الخاصة حتى ولو كان فى ذلك دمار شعوبهم ، فلابد أن يبرز رجل واحد ينقذهم من هذا الدمار ويقبض على كل المصالح فى يده بقوة السلاح ، ويترك لرعاياه حرية السعى وراء شئونهم الخاصة على ألا يتدخلوا فى السياسة العامة . ويعطى ڤيكو بعض الأمثلة لهذا من حوليات تاسيتوس على ماحدث بعد موت أوغسطس وبعض القياصرة الذين جاءوا بعده ، فقد تباكى الناس على الحريات المفقودة ، وشكوا من غربتهم فى بلادهم . ويعتقد ڤيكو أن الحكومات الملكية حكومات حرة ، وأن الناس تقف فى صف ملوكها مما يجعل الحكم شعبياً ، فالقوانين التى يصدرها الملوك تحقق المساواة بين الرعايا . والنظم الملكية تؤمن الناس على حياتهم وتخلصهم من اضطهاد المتسلطين والطامعين فى السلطة . هذا فضلاً عن أن الملوك يحرصون على ارضاء شعوبهم وتحقيق ضروريات حياتهم والتمتع بحرياتهم الطبيعية . وأخيراً فإن الملوك يسخون سخاء عظيماً على كل من يستحق التكريم من رعاياهم . ومن هذا كله ينتهى ڤيكو إلى أن شكل الحكم الملكى هو أنسب أشكال الحكم للطبيعة البشرية وأقربها إلى العقل الإنسانى المتطور .(١)

ويستطرد ڤيكو فى سرد أدلة أخرى تثبت المسار الطبيعى لحياة الشعوب كالعقوبات والحروب ونظام الأعداد . فالعقوبات فى عصر الأسر كانت تتمثل فى وحشية السيكلوب ، واستمرت فى ظل الحكومات الارستقراطية مثل قوانين اسبرطة التى حكم عليها كل من أفلاطون وأرسطو بالوحشية والقسوة ، وأخيراً خفت العقوبات فصارت معتدلة في ظل الحكومات الشعبية لأنها بطبيعتها حكومات تميل إلى التعاطف الإنسانى وحلت الرحمة محل القسوة . ولقد كانت الحروب البربرية للعصور البطولية تعنى دمار المدن المهزومة واستسلام العدو ليصبح قطيعاً أو جماعات من العمال المتناثرين فى الأرض الزراعية لغرس حقول الشعوب المنتصرة (٢) إلى أن جاءت الحكومات الشعبية فسلبت المهزومين القانون الذى ساد

(1) Vico; N. S; p. 333 - 334.

(٢) حاول فقهاء الرومان تبرير نشأة الرق بقانون الحروب ، وهذه حقيقة تاريخية ثابتة وهى أن الرق نشأ مع قيام الحروب ، فكان المنتصر فى البداية يقتل عدوه بدلاً من استرقاقه لعدم تفكيره فى الانتفاع به واستخدامه . ولما تطور الإنسان وكف عن الترحال واستوطن أرضاً معينة قام بزراعتها شعر بالحاجة إلى استخدام الأسرى فى الزراعة والرعى بدلاً من قتلهم .

حياة الأمم البطولية بحرمانهم من تنظيماتهم المدنية مثل الاحتفال بطقوس الزواج والسلطة الأبوية وحق الملكية والوراثة ... ألخ وأخيراً جاء الحكم الملكي وتضاءل القانون البطولي الذي طبق في الدولة المحتلة لأن الملوك أرادوا أن يجعلوا رعاياهم جميعاً متساوين أمام القانون ، وكان هدف النظم الملكية هو جعل العالم مدينة واحدة وهذا ما حاوله الاسكندر الأكبر . على سبيل المثال .

أما عن نظام الأعداد التى هى أبسط الأشكال التجريدية ، فإنها تطابق فى نظام تركيبها نظام التنظيمات الإجتماعية البشرية . لقد بدأت الحكومات بحكم الفرد فى الأسرة ، ثم كان حكم فئة قليلة من الأفراد فى الحكومات الارستقراطية البطولية ، ثم كان حكم الأغلبية أو الكل فى الحكومات الشعبية وأخيراً رجعت الملكيات المدنية مرة أخرى إلى حكم الفرد . ولا يمكن حسب طبيعة نظام الأعداد تصور نظام أنسب فى ترتيبه من النظام الذى يبدأ بالواحد ، فالقليل ، فالكثير ثم ينتهى بالكل بحيث تحتفظ القلة والكثرة والكل - كل حسب طبيعته - بمبدأ الواحد ، وذلك على نحو ما بين أرسطو أن الأعداد تتكون من وحدات غير منقسمة وأننا بعد أن نتجاوز الكل لابد أن نبدأ من جديد بالواحد .

وهكذا فإن البشرية تنحصر بين الملكيات الأسرية والملكيات المدنية[1] . وقد حاول فيكو أن يبرز خصائص التنظيمات الاجتماعية وكيف تدرجت من الوحشية والقسوة إلى الرقة والاعتدال ، وبذلك يثبت المسار الطبيعى الذى قطعته كل الأمم الأممية . وهو يؤكد أن التنظيمات الإجتماعية تتابعت بهذا الترتيب .. الحكومات الدينية ، فالحكومات البطولية ، فالحكومات الشعبية الحرة ثم الملكيات . ويعتمد فيكو فى كل هذه التنظيمات على التشريع والقانون إلى حد أنه جعله الأساس الذى نشأت منه الفلسفة كما ذكرنا من قبل . فمن حكمه صولون التى نصح بها الاثينيين " اعرف نفسك " نشأت نظم الحكم الشعبية ، ومن هذه النظم نشأت القوانين ومن القوانين نشأت الفلسفة .

(1) Vico; N. S; p. 335.

وربما يرى البعض فى هذا حجة على ماقاله بوليبيوس[١] من أنه إذا وُجد الفلاسفة فى العالم فلن تكون هناك حاجة إلى الأديان . ويعارض ڤيكو هذا الرأي ويقول أنه لو لم توجد الأديان ومن ثم نظم الحكم الشعبية لما وجد الفلاسفة فى هذا العالم ، ولو لم تهد العناية الإلهية البشر إلى تأسيس نظمهم الإنسانية لما عرفوا شيئاً عن العلم أو الفضيلة . ففى العصور البشرية التى نشأت فيها نظم الحكم الشعبية ومن بعدها الملكيات نشأ الالتزام بالقانون بضمان التعهدات اللفظية التى تحولت فيما بعد إلى عقود واتفاقيات ذات صيغ مكتوبة .

وينتهى ڤيكو فى هذا المجال إلى أن الإنسان بطبيعته لا يخرج عن أن يكون عقلاً وجسداً ولغة ، واللغة تتوسط العقل والجسد . وهكذا الأمربالنسبة لما هو عدل ، فقد بدأ اليقين فى العصور الصامتة مع الجسد وذلك حين كان الإنسان يؤكد شيئاً عن طريق الايماءات والاشارات فى العصور الصامتة . وبعد أن أُخترعت اللغات المنطوقة تأكدت أفكار الحق بصيغ لغوية ملفوظة . وأخيراً وبعد أن تطور العقل البشرى تطوراً تاماً عبر عن أفكاره عن الحق والعدل كما حددها العقل نفسه بعد تعمق الظروف التفصيلية المحيطة بالوقائع المختلفة فتطورت الأفكار نفسها مع تطور العقل .[٢]

كان هذا هو القانون الذى يحكم تطور الشعوب والأمم والذى استخلصه ڤيكو من دراساته للبدايات الأولى للحضارتين اليونانية والرومانية . وسنفرد الفصل التالى لهذه الدراسات لنرى كيف نشأ التاريخ البشرى وكيف تطور ، وكيف كانت النشأة التاريخية نشأة شعرية سماها ڤيكو الحكمة الشعرية .. وإذا كان لنا أن نعقب فى هذا الموضع بكلمة قصيرة عن قانون تطور الأمم فاننا نقول أن ڤيكو قد اعتمد على القانون الرومانى اعتماداً كبيراً كما رأينا ، واستشهد بالكثير من نصوصه ومواده

---

(١) *Polybius* مؤرخ هللينى للحروب البونية عاش من حوالى ٢٠٠ إلى ١٢٠ ق . م – بقيت أربع كتب من كتابه عن تاريخ العالم .

(2) Vico; N. S; p. 346 - 347.

خاصة فى نظام الملكية والوراثة وتحديد الوريث فى الوصية ... ألخ وتابع بالتفصيل تطور القوانين ، ولقد بالغ ڤيكو مبالغة شديدة فى الاستشهاد بالقانون الرومانى إلى الحد الذى يستحيل معه متابعة أفكاره ما لم يكن الباحث على دراية كاملة بالتاريخ الرومانى وإلمام واف بالقانون الرومانى أيضاً ، بل أن اهتمام ڤيكو بالقانون الرومانى قد بلغ حداً أبعد من هذا فى محاولته البحث عن قوانين مشابهة لهذا القانون - كقانون الألواح الأثنى عشر - فى بعض الحضارات الأخرى مثال المانيا وفرنسا .

لهذه الأسباب لا يستطيع الباحث أن يضع يده بسهولة على قانون تطور الأمم ، إذ يتحتم عليه أن يستخلصه من ثنايا التفاصيل الكثيرة التى تكاد تضيع فيها المعالم الرئيسية لفسفة ڤيكو فى التاريخ . وقد حاولنا فى هذا الفصل أن نستخلص قانون تطور الإنسانية فى التاريخ من شوائب التفاصيل التى علقت به واستبعاد الكثير من الحواشى التى لا تمس الأفكار الأساسية للعلم الجديد ، وسنعود بإذن الله إلى هذه المسألة وغيرها من المسائل فى خاتمة البحث .

الفصـــل الثاني

مسار الأمم
في ضوء الحكمة الشعرية

الفصـــل الثانـى

مسار الأمم

فى ضوء الحكمة الشعرية

أولاً : المسار الأول للأمم :

الحكمة الشعرية هى عنوان الكتاب الثانى من العلم الجديد ، وهو الجزء الذى أفرده ڤيكو لمناقشة كيف أن مؤسسى الشعوب والنظم البشرية كانوا فى الأصل شعراء مثل هوميروس ، وحكماء كالمشرعين الذين أسسوا المدن الاغريقية مثل اسبرطة . ولا يشك ڤيكو ، فى أن هؤلاء المؤسسين كانوا شعراء وحكماء بشكل ما ، ولكن أى نوع من الحكمة كان عند هؤلاء الأقدمين ؟ لقد كانت حكمتهم عملية جعلتهم يوجدون النظم الاجتماعية البشرية ، وهذا هو مفتاح العلم الجديد الذى اكتشفه ڤيكو والذى حاول أن يثبت فيه أن حكمة القدماء كانت شعبية ولم تكن فلسفية ، شعرية لا عقلية ، عملية لا نظرية . كان الأولون من شعوب الأمم الأممية أبناء الجنس البشرى يخلقون أشياء مطابقة لأفكارهم ، ولكن هذا الخلق يختلف عن الخلق الإلهى اختلافاً متناهياً لأن الخلق البشرى كان بالخيال المادى .

كانت الحكمة الشعرية هى البداية الفجة للعلوم والفنون كما كانت أيضاً أصل جميع العلوم والفنون . ويؤكد العلم الجديد أن الأمم الأممية كانوا شعراء يتحدثون برموز شعرية . ويُعرف ڤيكو الحكمة بأنها استعداد طبيعى أوملكة عقلية تهيمن على كل ألوان المعرفة التى تؤلف ما يسمى بالإنسانية . فالإنسان بما هو إنسان يتألف من عقل وروح أى عقل وارادة . ووظيفة الحكمة أن تحقق هذين الجانبين فى الإنسان . فالعقل يهتدى إلى معرفة التنظيمات العليا ، وعن طريق هذا العقل تختار الروح

أفضل هذه التنظيمات . وأسمى التنظيمات هى التى تكشف عن عظمة الله وتحرص على خير الجنس البشرى . فالنظم الأولى هى النظم الدينية ، والثانية هى النظم الدنيوية ، والحكمة تعلمنا معرفة التنظيمات الدينية لكى ترشد التنظيمات الدنيوية للخير الأسمى للبشر . بدأت الحكمة لدى الشعوب الأولى بالتنبؤ . فالحكمة القديمة كانت حكمة الكهان والعرافين ، والحكماء الأول للشعوب القديمة كانوا شعراء لاهوتيين . وجدير بالذكر أن ڤيكو يميز بين ثلاثة أنواع من اللاهوت : " لاهوت شعرى للشعراء اللاهوتيين وهو بمثابة لاهوت مدنى فى كل الشعوب الأولى " ، " ولاهوت طبيعى أو ميتافيزيقى ويرجع للفلاسفة " ، " ولاهوت مسيحى وهو مزيج من اللاهوت المدنى واللاهوت الطبيعى " .

انعكست الحكمة الشعرية على كل علوم البشر ، وظل معنى الحكمة هو معرفة الأشياء الطبيعية والإلهية أى الميتافيزيقا . وعلى هذا فالميتافيزيقا كانت لصالح الجنس البشرى الذى تتوقف المحافظة عليه على الإيمان بإله يُعنى بالبشر . وقد كانت الحكمة عند هوميروس هى معرفة الخير والشر ، ثم كانت الحكمة عند العبرايين والمسيحيين بعد ذلك هى العلم بالأشياء الأبدية التى يُوحى بها الله . وهذا المعنى متصل بالمعنى القديم للألوهية أى يتصل بالتنبؤ . وانعكست الحكمة الشعرية كذلك على كل علوم البشر ، فلما كانت الميتافيزيقا هى العلم الأسمى الذى تتفرع منه العلوم الثانوية الأخرى ، وكانت حكمة القدماء هى حكمة الشعراء اللاهوتيين الذين كانوا الحكماء الأول للشعوب القديمة ، وكانت الأصول الأولى للأشياء بحكم طبيعتها أصولاً فطرية فجة ، فلابد لكل هذه الأسباب أن نرجع بدايات الحكمة الشعرية إلى نوع فطرى من الميتافيزيقا . فالحكمة الشعرية نشأت من الميتافيزيقا الفجة ، ومن جذر هذه الميتافيزيقا الفطرية نشأ فرع يحمل علوم المنطق والأخلاق والاقتصاد والسياسة ، كما نشأ فرع آخر يحمل علم الفيزياء وهى أم علم وصف الكون وعلم الفلك . وهذا الأخير يضفى اليقين على علمين آخرين نشأ عنه هما علم التاريخ وعلم

الجغرافيا ، وغنّي عن الذكر أن العلوم السابقة كلها تتصف في تلك المرحلة بالصفة الشعرية .

ومن هنا نرى بوضوح كيف تصور مؤسسو النزعة الإنسانية للشعوب الأولى ، كيف تصوروا الآلهة عن طريق الميتافيزيقا أي اللاهوت الطبيعي ، وكيف اخترعوا اللغات عن طريق منطقهم ، وكيف خلقوا أبطالهم عن طريق تصورهم لعلم الأخلاق ، وكيف أسسوا الأسر عن طريق تصورهم للاقتصاد ، ومدنهم عن طريق مفهومهم للسياسة ، وكيف تصوروا بدايات الأشياء جميعاً على أنها بدايات إلهية عن طريق مفهومهم لعلم الطبيعة ، كما تصوروا أنفسهم كبشر من خلال تصورهم لعلم طبيعة الإنسان وأوجدوا لأنفسهم عالماً بأسره من الآلهة عن طريق تصورهم للكون ، ثم كيف أثر عليهم مفهومهم عن علم الفلك بحيث جعلهم ينقلون الكواكب من الأرض إلى السماء ، ويحددون البدايات الزمنية عن طريق ما سموه بعلم التاريخ ، وأخيراً كيف وصف الأغريق ، على سبيل المثال ، العالم كله وكأنه يقع داخل بلادهم مما يدل على تأثير مفهوم الجغرافيا على هذا التصور . بهذا يصبح العلم الجديد تاريخاً لأفكار البشر وعاداتهم وأعمالهم ، ومن هذه العناصر الثلاثة تكونت مبادىء التاريخ البشرى التى هى مبادىء التاريخ العالمى التى يعتقد ڤيكو أنها كانت مفتقدة حتى اكتشفها بنفسه .

ويقدم ڤيكو فى كتابه لوحة تاريخية لأهم وقائع التاريخ منذ خلق العالم معتمداً على التوراة . فقد انحدر مؤسسو الشعوب الأولى من سلالة حام ويافث وسام الذين رفضوا ديانة نوح الحقة فضلّوا فى الأرض وعاشوا حياة حيوانية فى الغابات الواسعة الكثيفة التى غطت الأرض بعد الطوفان . وتضخمت أجسامهم فأصبحوا عمالقة ، وهؤلاء العمالقة كانوا على نوعين : بعضهم شعر بالخوف من الظواهر الجوية كالبرق والرعد واعتبروها غضباً من الإله على حياتهم البهيمية ، فبدأوا يستقرون فى كهوف ويحترفون الزراعة ويمتلكون الأرض ، وبذلك كونوا طبقة الأبطال الذين سُمى عصر العمالقة على اسمهم ، وظل البعض الآخر على تشرده وحين

أسرهم أسياد الأرض كانوا بمثابة عبيد للأرض يفلحونها ، بينما احتفظ العبرانيون الذين قبلوا دين نوح بقوامهم البشرى السوى الذى ارتد إليه أبناء العمالقة بالتدريج .

وتتمثل الحكمة الشعرية فى أساطير كل أمة . والشعر هو لغة التعبير عن هذه الحكمة ، لأن الشعوب الأولى ذات طبيعة شاعرية . لقد بدأ تاريخ كل الشعوب بداية خرافية . فنجد أن الحكماء لدى اليونان هم الشعراء اللاهوتيون . ثم جاء الفلاسفة وجعلوا من تاريخ آلهتهم فلسفة . مثلما حول مانيتو كل التاريخ الخرافى فى مصر إلى لاهوت طبيعى سامى ، وكان ذلك نتيجة أسباب خمسة لدى الاغريق والمصريين القدماء : - اجلال الدين الذى تأسست عليه كل الشعوب القديمة . أن هذا العالم المدنى قد نُظم تنظيماً حكيماً بحيث لا يمكن أن يقوم إلا على حكمة تفوق حكمة البشر . أن هذه الخرافات الدينية التى يدعمها احترام الدين والحكمة الإلهية - يسرت للفلاسفة أن يبحثوا فى أمور متعالية . تمكن الفلاسفة من شرح أفكارهم باستخدام التعبيرات التى تلقوها عن الشعراء ، ووجد الفلاسفة فى هذه الخرافات الدينية ما دعم تأملاتهم ، أى أنهم استمدوا من السلطة الدينية تأييداً لأفكارهم . ومما سبق يتضح أن ما أحس به الشعراء احساساً ساذجاً وعبروا عنه بالحكمة الشعبية قد فهمه الفلاسفة وعبروا عنه بالحكمة المستورة أو السرية بحيث يمكن القول أن الشعراء يعبرون عن حواس الجنس البشرى بينما كان الفلاسفة يمثلون[1] عقله . وهذا يثبت ما قاله أرسطو فى كتاب " النفس " عن الإنسان الفرد ويمكن أن يصدق على الجنس البشرى كله " لا شيء فى العقل إلا وسبقه وجود فى الحس " أى أن العقل البشرى لا يفهم أى شيء مالم يكن لديه انطباع حسى سابق عنه .

إن السمة الأساسية فى تفكير ڤيكو هى بغير شك ذلك الجهد الذي بذله لإثبات أن كل العلاقات الاجتماعية كانت في أحد العصور قائمة على معتقدات ترجع إلى

---
(1) Ibid; p. 69 - 75.

الخيال ، وكذلك محاولته لإثبات أن هذا يدل على وجود قانون إلهى لولاه لما تمكنت البشرية حتى من البقاء على قيد الحياة ، لأن الخوف الذى يثيره الخيال القوى الذى أوجد عالم الآلهة يمكنه أن يكبح عنف الشهوات . فالعقل عند البشر مرحلة متأخرة فى مسار تطورهم .

الميتافيزيقا الشعرية :ـ

ان الميتافيزيقا هى العلم الأسمى الذى تتفرع عنه العلوم الثانوية ، ويأخذ فيكو على الفلاسفة وعلماء اللغة أنهم لم يبدأوا بحوثهم من حكمة الشعوب القديمة ، وهو فى هذا متسق مع مسلمته التى تقول بوجوب أن يبدأ الموضوع من حيث تبدأ المادة التى يتناولها ، أى كان عليهم أن يبدأوا من الميتافيزيقا . ولابد فى رأيه أن تكون الحكمة الشعرية قد بدأت لا من ميتافيزيقا عقلية بل من ميتافيزيقا شعورية خيالية ، حيث كان لدى البشر الأولين احساس قوى وخيال خصب واسع كما تمثل فى الشعر وهو ملكة فطرية ولدت الشعوب الأولى مزودة به . وكان شعرهم فى البداية دينياً لأنهم كانوا ينسبون كل علل الأشياء التى يحسونها ويعجبون بها إلى كون العلل آلهة ، وفى الوقت نفسه يعطون للأشياء التى تثير دهشتهم وجوداً مادياً يتلاءم مع أفكارهم تماماً كما يفعل الأطفال فيضفون الحياة على أشياء غير حية . ثم يشرح ڤيكو كيف أن الشعوب الأولى خلقت الآلهة عن طريق الميتافيزيقا أو اللاهوت الطبيعى ، وكيف تصوروا أول أسطورة دينية ، أن التفكير الأسطورى أمر طبيعى فى المراحل المبكرة من تطور المجتمعات ، فعندما أبرقت السماء وأرعدت لأول مرة بعد الطوفان خاف العمالقة واندهشوا - وهم الذين ضلوا فى الغابات الواسعة مع الوحوش الضارية ورفعوا أعينهم للسماء وشعروا بالخوف منها ، ولما كان من طبيعة العقل البشرى أن (يُسقط) ذاته على الأشياء التى يجهلها ، وكان هؤلاء العمالقة بطبيعتهم مجرد أجساد قوية ، فقد تصوروا السماء على شاكلتهم كجسد حىٍّ كبير ودعوها جوبيتر *Jove* (زيوس *Zeus* عند الاغريق) وهو الإله الأكبر الذي يخبرهم

بتعليماته وتحذيراته عن طريق رعده وصواعقه . ومن هنا بدأ حب الاستطلاع الطبيعى الذى هو ابن الجهل وأبو المعرفة والذى ينير العقل البشرى . ومن هنا أيضاً نشأت أول خرافة دينية لدى البشر الأولين وتأسست الكهانة التى أطلق عليها الأغريق اسم اللاهوت أو لغة الآلهة . وبهذا يفسر فيكو ما سبق أن ذكره فى أصول العلم الجديد ، وهو أن الخوف أول من خلق الآلهة على الأرض . هكذا ولد جوبيتر فى الشعر كشخصية خيالية إلهية خلقها الشعراء اللاهوتيون بأنفسهم واعتقدوا فيها وخافوها ثم بجلوها وعبدوها ونسبوا إليها كل التكهنات والنبوءات ، فالبشر الأولون الذين أسسوا الأمم الأمية الأولى كانوا يفكرون بالأحاسيس والخيال والأساطير لأن عقولهم كانت عاجزة عن التجريد . ومن هنا كان عجز القوى العقلية البشرية هو الأصل فى نشأة شعر أكثر رقياً وسمواً من الذي أتى به الفلاسفة بعد ذلك . وهذا الاكتشاف لأصل الشعر كما يرى فيكو يفند الرأى القائل بأن الحكمة الفذة للقدماء بدأت مع الفلاسفة .

يحدد فيكو المعالم الرئيسية لعلمه الجديد على النحو التالى :-

تعتبر العناية الإلهية هى الافتراض الذى يقوم عليه العلم الجديد . فقد اهتدى إليها البشر الأولون عندما يئس الإنسان البدائى من مساعدة الطبيعة فاتجه إلى قوى أسمى ، وليس هناك ما هو أسمى من الله . لقد لاحظ هذا الإنسان أن العناية الإلهية تحرص على خير الجنس البشرى . لذلك فإن هذا العلم الجديد هو لاهوت عقلى مدنى يبين دور العناية الإلهية فى حياة البشر . لقد حرص فيكو على تأكيد دور العناية الإلهية فى كتابه " العلم الجديد " ، بل لقد حرص على تذكير القارىء به حتى فى المواضع التى لا تقتضى ذكرها ، فهل فكرة العناية الإلهية فكرة ضرورية حقاً فى فهم العلم الجديد أم أن من الممكن طرحها والاستغناء عنها دون أن يتأثر هيكل هذا العلم ومضمونه ؟ ، هذا ما سوف نناقشه فى الباب الثالث من البحث .

ويواصل ڤيكو حديثه عن ثانى معالم هذا العلم فيؤكد أن السلطة كانت مرتبطة منذ البداية بالملكية أو التملك . فالسلطة التى بدأت بداية دينية يأتى معناها الأصلى من الملكيـة (فكلمـة *authority* فى الانجليـزية ونظيراتهـا فى اللغات الهندو أوربية - مشتقة من الكلمـة اللاتينيـة *auctor* وتعنى صـاحب حق أو مالك كما أُستعملت بهذا المعنى في قانون الألواح الاثنى عشر) وكانت تطلق على جوبيتر فى البداية لتعنى أنه مـالك البشر والمتحكم فيهم بوصفه مـالك الآلهة والبشر على السواء . وتبع هذه السلطة الإلهية سلطة بشرية تمثلت فى التمرس على حرية الإرادة البشرية فى التحكم في حركات الجسد وتوجيهها للأفضل ، ومثال ذلك تحول العمالقة من ذوى العادات الوحشية إلى عادات أفضل عندما استقروا داخل كهوف . والسلطة البشرية تبعها سلطة القانون الطبيعى عندمـا استقر العمـالقة وأصبحوا مـالكين للأرض ومن ثم حكامها .

ثم يتناول ڤيكو النقد الفلسفى الذى نما مع تاريخ الأفكار والذي يلقى الضوء على البحث فى أصل الالهة . فكما أكد فيكو فى مسلماته أن عدد الآلهة فى كل الأمم الأممية هو اثنا عشر إلهاً ابتداء من جوبيتر ، وهذا يعنى اثنى عشر دورة زمنية نشأت فيها الأساطير ، فالثيوجونيا الطبيعية (تسلسل نسب الآلهة) تعطينا لوحة زمنية عقلية للتاريخ الشعرى لمدة لا تقل عن تسعمائة عام قبل التاريخ الشعبى الذي جاء بعد المرحلة البطولية .

وينتقل إلى القانون الطبيعى للأمم وأصحابه جروسيوس وسيلدن وبافندروف الذين كـان يجب أن يبـدأوا من البـدايات الأولى للأمم حيث يبـدأ الموضـوع الذى يعالجونه ، ولكن الثلاثة - فى رأى ڤيكو - وقعوا فى الخطأ وبدأوا بالعصور المتأخرة لشعوب متحضرة نشأ فيها الفلاسفة كما بدأوا من الفكرة الكاملة للعدل . للذلك يعالج ڤيكو فكرة القانون من منطلق الاشتقاق اللغوى لهذه الكلمة التى تؤكد النشأة الدينية للقانون . فكلمة *ius* أى قانون مشتقة من كلمة *ious* وتعنى جوبيتر فى اللغة اللاتينية القديمة . وعندما نشأت فكرة جوبيتر فى عقول مؤسسى الشعوب الأولى نشأ معها

العلم الإلهى ، وعلى أساسه نشأت التنظيمات الدينية التى تولدت عنها كل التنظيمات الدنيوية ، ومن هذين النوعين من التنظيمات نشأ التشريع .

وأخيراً ينتقل ڤيكو إلى مبادىء التاريخ العالمى الذى بدأ منذ اللحظة الأولى للتنظيمات البشرية لدى الشعوب مع أولى المراحل الثلاث فى العالم وهى المرحلة الإلهية حيث الأساطير التى روى فيها الشعراء بصدق عن الطوفان العام والعمالقة . وهذه الأساطير هى بدايات التاريخ العالمى الذى عجز الباحثون المتأخرون عن معرفته لعدم قدرتهم على الدخول فى عقول مؤسسى الأمم الأممية وعدم فهم خيالهم وكيف كانوا يفكرون ، ولذلك يعتقد ڤيكو أن التاريخ العالمى يفتقد إلى البداية لافتقاره إلى الزمن العقلى للتاريخ الشعرى .(١)

المنطق الشعرى :-

من الطبيعى بعد كل ما قلناه أن يؤكد ڤيكو أهمية اللغة . فهى تعكس مظاهر الحياة الإجتماعية للشعوب وتكشف عن الحياة العقلية ونوعية الأفكار المنتشرة فيها . وإذا كانت الشعوب الأولى قد أوجدت عالم الآلهة من الميتافيزيقا أو اللاهوت الطبيعى وتصور الشعراء اللاهوتيون الأجسام بوصفها جواهر إلهية ، فإنها قد اخترعت اللغات من المنطق الشعرى . اهتم ڤيكو - كما رأينا علي الصفحات السابقة - بالاشتقاقات اللغوية التى تكشف عن أصول الكلمات ، فأصل كلمة منطق كانت *Logos* وكلمة *Mythos* فى اليونانية تعنى الأسطورة . والبشر فى العصور الأولى كما يؤكد أفلاطون كان حديثهم الطبيعى والصادق هو الأسطورة . ثم تطور معنى كلمة الأسطورة لتعنى الفكرة . وكان من خاصية العصور الدينية الأولى أن تعلق أهمية كبرى على التأمل والتفكير أكثر من الخطابة أو الحديث ، لأن اللغة فى أزمنة الصمت الأولى التى مرت بها الأمم كانت لغة خرساء أو كانت لغة الاشارات والايماءات

---

(1) Ibid; p. 79 - 84.

والأشياء الطبيعية التى لها علاقة بالأفكار التى يُعبر عنها ، وهى اللغة التى قال عنها سترابو[1] انها وجدت قبل اللغة المنطوقة . وطبقاً للمسلمة التى تنص على أن الخيال يزداد قوة كلما ضعفت القدرة على التفكير ، أضفى الشعراء الأول العاطفة والحس على أشياء غير حية عن طريق المجازات والرموز وأساليب البيان . وأوضح أشكال المجاز هى الاستعارة ، فكل استعارة هى حكاية خرافية مختصرة وهذا يدل على العصر الذى ظهرت فيه الاستعارات فى اللغات ، وظهور الاستعارة فى اللغة يتيح لنا الفرصة للحكم على هذا العصر . وقد وجد في كل اللغات أن الاستعارات مستمدة من الجسد البشرى وأجزائه ومن الأحاسيس والعواطف البشرية . فمثلاً ترمز الرأس للقمة والكتفان للثقل والفم للأشياء المفتوحة والقلب للمركز والجسد للأرض ... ألخ . وهذا يثبت مسلمة ڤيكو التى تقول أن الإنسان عندما يضل فى الجهل يجعل من نفسه مقياس كل شىء .

يفرق ڤيكو بين الميتافيزيقا العقلية التى تقول ان الإنسان يحصل على الأشياء ويستوعبها عن طريق فهمها ، بينما تقول الميتافيزيقا الخيالية أن الإنسان عندما لا يفهم يضفى نفسه على الأشياء ويصبح هو الأشياء نفسها عن طريق اندماجه فيها ، وفى رأى ڤيكو أن المنطق الشعرى للشعوب الأولى نشأ من هذه الميتافيزيقا الخيالية وهو منطق المجاز والاستعارة ، الذى نشأ عن عجز الشعراء الأول عن تجريد الأشكال والخصائص الأساسية فى الأشياء . وتحولت الصور المجازية إلى استعارات عندما رُفعت الجزئيات إلى مصاف الكليات . وكذلك لم ينشأ فن السخرية إلا فى العصور العقلية المتأخرة لأنها نوع من الكذب الذى يكتسى قناع

---

(١) سترابو مؤرخ وجغرافى يونانى عاش من حوالى سنة ٦٣ / ٦٤ ق . م إلى حوالى سنة ٢٠ بعد الميلاد ، زار مصر حوالى سنة ٢٣ / ٢٤ ق . م فى صحبة الوالى الرومانى البوس جاللوس ووصل إلى أسوان وجزيرة فيلة ، ووصلنا ١٧ كتاباً من موسوعته الجغرافية عن أوروبا وآسيا وافريقيا وتضم معلومات تاريخية وحضارية وأسطورية قيمة بجانب المعلومات الجغرافية الوصفية ، وتعد الكتاب الجغرافى الذى وصلنا كاملاً عن العصور القديمة .

الحقيقة . وهذا يدل على مبدأ هام من مبادىء التنظيمات البشرية يؤكد الأصل الشعرى ، وهو أن الأمميين الأول كانوا فى بساطة الأطفال الذين هم صادقون بطبيعتهم ، فلم تكن الخرافات الأولى تدعى الكذب وكانوا يعتقدون أن حكاياتهم حكايات حقيقية وصادقة .[1] كذلك نشأ من المسوخ والتحولات الشعرية من هذه الطبيعة البشرية الأولى وهى عدم القدرة على تجريد الصور والخصائص الشعرية من الموضوعات . هكذا كانت كل المجازات أشكالاً ضرورية للتعبير عند الشعوب الشاعرية الأولى ، ثم أصبحت رمزية عندما نمت القدرة على التجريد مع تطور العقل البشرى ، أى عندما أُخترعت الكلمات التى تدل على أشكال مجردة بمقارنة علاقة أجزائها وكلياتها . ويؤكد ڤيكو خطأ اللغويين الأول فى زعمهم أن النثر حديث طبيعى والشعر غير طبيعى وأن النثر أسبق فى الوجود من الشعر . وهو يعارض هذا الرأى - كما سنرى فى السطور التالية - ويحاول اثبات أن الشعوب الأولى كانت شعوباً شاعرية وبالتالى بدأت اللغة بداية شعرية ، بل ذهب إلى أبعد من هذا فوضع نظرية فى نشأة اللغات والحروف .

ان مسألة البحث فى أصل اللغات غير مطروحة فى العصر الحديث لأنها أصبحت مسألة ميتافيزيقية انتهى العلماء إلى صعوبة حسمها بصورة نهائية ، وقد اجتهد ڤيكو نفسه فى اثبات أن اللغة بدأت شعراً وأثر هذا على آراء الرومانتيكين فى القرن التاسع عشر . وبالرغم من أن نظريته يُشك الآن فى قيمتها العلمية إلا أنها أثرت فترة طويلة على بحوث العلماء عن أصل اللغة . وهى تستحق على كل حال أن نذكرها بشىء من التفصيل لأنها جزء هام من تطبيقه لقانون تطور الأمم فى ثلاث مراحل ، وأيا كان الرأى فى القيمة العلمية لنظرية ڤيكو عن أصل اللغات والحروف فلا يمكن انكار قيمتها التاريخية .

يقدم ڤيكو نظريته فى نشأة اللغات ويعارض الباحثين الذين يقولون أن أصل

(1) Vico; New Science; p. 85.

الحروف منفصل عن أصل اللغات ، فهو يرى أن الحروف واللغات مرتبطان بالطبيعة ، فإذا كانت الحروف قد تشكلت لتعبر عن الأصوات المنطوقة بدلاً من الاشارات فقد وجدت عند كل الشعوب . ولكن اخفاق الباحثين وجهلهم ببداية اللغات والحروف جعلهم يخفقون أيضا فى معرفة الطبيعة الشعرية للشعوب الأولى وكيف تحدثوا بالأساطير وكتبوا بالكتابة السرية والرمزية الهيروغليفية . ويرى ڤيكو أن الفلسفة يجب أن تتبنى هذه المبادىء فى دراساتها للأفكار الإنسانية . كما يجب أيضاً أن تكون مبادىء علم اللغة فى دراسته للكلمات البشرية ، لذلك يجب التسليم بهذه المبادىء التى يراها ڤيكو ضرورية لفهم هذه الشعوب الموغلة فى القدم ، وهى أن البشر الأولين فى الأمم الأمية يتصورون الأفكار بتخيل أن لها جواهر حية وصامتة ، وأنهم يعبرون عن أنفسهم بلغة مشتقة من البيئة الطبيعية أى البيئة الجغرافية التى لها تأثير قوى على لغات الشعوب وعاداتهم .

ننتقل إلى نشأة المراحل الثلاث للغات فنجد ڤيكو يطبق فكرته الرئيسية التى أخذها عن المصريين القدماء عن مرور العالم بثلاثة عصور وارتباط هذه العصور بثلاثة أنواع من اللغات هى الهيروغليفية (أى الإلهية المقدسة وهى خاصة بالعصر الإلهى) ثم اللغة البطولية (وهى اللغة الرمزية التى توافق عصر الأبطال) وأخيراً لغة الرسائل (التى استخدمها البشر فيما بينهم لقضاء حاجاتهم) . ويثبت ڤيكو أن هذه اللغات الثلاث كانت موجودة أيضا فى الفكر اليونانى ، ويستشهد بنصوص من هوميروس في ملحمتيه الألياذة والأوديسة . فهناك نص في الألياذة يؤكد أن "نسطور" عاش ثلاثة أجيال من البشر تحدثوا بثلاث لغات .[1] واللغة الإلهية المقدسة (الهيروغليفية) تحدثت بها كل الشعوب القديمة . ويورد ڤيكو بعض الأمثلة لشعوب تحدثت بها قديماً مثل المصريين والأثيوبيين في افريقيا والكلدانيين والسكيثيين فى الشرق ... ألخ وبعض الشعوب ما زال يتحدث بها حتى الآن مثل الصين . ويعارض

(١) الالياذة : نشيد (١) سطر (٢٥٠) وما بعده .

فيكو بهذا رأياً ينسبه للمصريين القدماء بأن الهيروغليفية لغة اخترعها الفلاسفة ليخفوا فيها غموض حكمتهم السرية المقتصرة على فئة قليلة . ويدلل فيكو على صدق رأيه بنصوص من الألياذة والأوديسة يؤكد فيها هوميروس أن هناك لغة أقدم من لغته (التى كانت بلاشك لغة بطولية) دعاها لغة الآلهة . هذه اللغة الإلهية سواء عند اليونان أو الرومان تطابق اللغة الهيروغليفية عند المصريين . والنوع الثانى من الحديث الذي يطابق المرحلة البطولية كان حديثاً رمزياً يستخدم ما أطلق عليه هوميروس *Sémata*[1] (أى العلامات والرموز) . ففى المرحلة الإلهية كانت الشعوب الأولى تتكلم بالرموز ، ثم تتابعت الاستعارات والمجازات وكل وسائل التعبير الشعرى التى مرَّ بها الحديث المنطوق إلى أن كان حديث الرسائل الذى نشأ بين العامة فى الشعوب البطولية وهى لغة خاصة بالعصر البشرى .

أما عن نشأة الحروف الشعبية فيرجعها فيكو إلى الرموز الرياضية والفلكية للكدانيين . وقد استعمل الفينيقيون هذه الرموز الكلدانية كرموز للأعمال التجارية ، ثم انتقلت إلى الأغريق عن طريق الشواطىء الأغريقية قبل عصر هوميروس . وأخذ الأغريق هذه الأشكال الهندسية لتمثل الأصوات المنطوقة المختلفة ثم شكلوها إلى حروف ذات طابع شعبى وأتموها . وقد تبناها الأغريق لتشابهها مع حروفهم اليونانية القديمة ، كما يؤكد تاسيتوس ذلك ، والدليل على هذا أن اليونان استعملوا - لفترة طويلة - الحروف الكبيرة لتعبر عن الأعداد . واختلاف اللغات الشعبية باختلاف الشعوب يرجع لحقيقة أساسية هى اختلاف مناخ الشعوب مما نشأ عنه اختلاف فى العادات . ومن اختلاف الطبيعة والعادات نشأت لغات مختلفة ، فكل شعب نظر إلى ضرورات الحياة البشرية من وجهة نظر مختلفة ، لذلك نشأت عادات عالمية وظهر هذا كمثال واضح فى الأمثال والحكم الشعبية التي عبرت عن مضمون واحد بأساليب مختلفة لدى شعوب مختلفة .

(١) الالياذة : نشيد (٦) سطر (١٦٨) وما بعده .

يواصل ڤيكو نظريته فى نشأة اللغات والحروف ويفسر كيف تشكلت ثلاثة أنواع من اللغات والحروف فى ضوء مبدأ هام هو أن الآلهة والأبطال والبشر بدأوا فى آن واحد (لأنهم كانوا بشراً تخيلوا الآلهة واعتقدوا أن طبيعتهم البطولية مزيج من الطبيعة الإلهية والبشرية) لذلك بدأت اللغات الثلاث فى آن واحد ، وكان فى كل منها حروف تطورت معها وبدأت بثلاث اختلافات هامة : أن لغة الآلهة كانت صامتة تماماً لا تحتوى إلا على نطق هزيل ، أما لغة الأبطال فهى مزيج متساو من اللغة المنطوقة والصامتة ، وأخيراً تأتى لغة البشر وهى بأكملها لغة منطوقة . لذلك كانت اللغة الإلهية فى البداية مضطربة إلى أبعد حد ، وهذا سبب قوى فى غموض الخرافات . ففى الوقت الذى تشكلت فيه فكرة جوبيتر كشخصية دينية (وهذه أول فكرة بشرية نشأت فى العالم الأممي) بدأت اللغة المنطوقة تتطور عن طريق تسمية الأشياء أو الأفعال بمحاكاة أصواتها *onomatopoeia* ، لذا كانت أسماء جوبيتر فى اللغات القديمة تحاكي صوت الرعد ووميض الضوء وصوت احتراق النار . وتكونت الكلمات البشرية بعد ذلك من صيغة التعجب والدهشة ، ونشأت أصوات منطوقة بدافع من الانفعالات القوية . فعندما نزلت أول صاعقة من السماء وأيقظت الدهشة فى البشر كان ميلاد أول صوت بشرى معبراً عنه بلفظ *pa* ثم ضعفت إلى *pape* ، ومن هذا التعجب جاء اشتقاق لقب جوبيتر " أب البشر والآلهة " حيث كان الآلهة يدعون آباء والآلهات أمهات ، وربما جاء من هذه الصيغة الأصل الاشتقاقى للفعل *patrare* بمعنى يعمل أو يصنع وهى صفة الله الصانع كما وردت فى الكتاب المقدس .(١)

هكذا نجد أن نظرية ڤيكو فى نشأة اللغات والحروف تعتمد اعتماداً كلياً على اشتقاق الكلمات من صرخات الإنسان الأول نتيجة تعجبه من الظواهر الطبيعية . وهو يتابع نظريته فى نشأة اللغات فيقر أنها بدأت بكلمات من مقطع واحد ، فتشكلت

(1) Vico; New Science; p. 106 - 107.

الضمائر من مقطع واحد وكذلك حروف الجرّ والوصل ، ثم تشكلت الأسماء أيضاً من مقطع واحد . ويدرج فيكو أمثلة من اللغة اللاتينية فى قائمة كبيرة من الأسماء اللاتينية التى بدأت فى الحياة الرعوية واستمرت فى الحياة الريفية ثم حياة المدينة الأولى . وقد أفرد لهذه الأمثلة فصلاً كاملاً من الطبعة الأولى للعلم الجديد يعد نموذجاً للباحثين فى أصل اللغات المختلفة . وأخيراً تشكلت الأفعال التى سبقتها نشأة الأسماء كما يحدث لدى الأطفال ، فهم دائماً يعبرون عن الأسماء ويتركون الأفعال إلى أن يصبحوا قادرين علي الفهم ، وكذلك كانت طفولة البشرية لأن معرفة الأفعال تتطلب معرفة زمنية بالماضى والمستقبل وهما مقياس للحاضر الذى لا يقسم ، حتى الفلاسفة أنفسهم وجدوا صعوبة فى فهم الحاضر ، لذلك جاء فهم الأفعال وتشكيلها فى مرحلة متأخرة ، وكانت فى صيغة أوامر تتكون من مقطع واحد يصدرها الآباء لأسرهم وأطفالهم مثل قف ، اذهب ، قل اعمل ... وهكذا .[1] هذه النظرية فى نشأة اللغات تؤكد مبادىء الطبيعة البشرية العامة وتتطابق أيضاً مع مسلمة فيكو الأساسية التى تنص على وجوب أن تبدأ اللغات بكلمات من مقاطع واحدة . وقد نشأت اللغات من مقاطع واحدة نتيجة لفقر اللغة فى بداية البشرية ، ثم انتقلت إلى بناء جمل مركبة مع تطور اللغات بتطور العقل البشرى . وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الأبحاث الحديثة لعلماء اللغة أثبتت خطأ هذا الرأى . فهناك لغات تتكون من مقاطع واحدة - مثل اللغة الصينية على سبيل المثال - ومع ذلك فهى لغات غنية بالمفردات . هكذا نشأ الأسلوب الشعرى - فى رأى فيكو - من فقر اللغة والحاجة إلى التعبير فكان الاستطراد ، والعكس (أى التغيير فى الوضع الشعرى للكلمة وقد نشأ من صعوبة استكمال العبارة بالأفعال التى تكونت فى المرحلة الأخيرة) والايقاع ، والأغنية والشعر . ثم ظهر الأسلوب النثرى بعد ذلك عن طريق الخطباء مثل جورجياس لدى الأغريق وشيشرون لدى الرومان . وبهذا يكون الأسلوب الشعرى قد نشأ قبل

(1) Ibid; p. 109 - 110.

الأسلوب النثري مثلما نشأت التصورات الخيالية (الأساطير) قبل التصورات العقلية (الفلسفة) .

ويؤكد ڤيكو أن اللغات بدأت بالغناء اعتماداً على خاصية طبيعية لدي البشر ، وهى أن الإنسان ينطق الأصوات المتحركة أولاً لسهولتها ثم ينطق الأصوات الساكنة . ويشهد على ذلك الادغام الموجود فى غناء الشعوب الأولى . فالإنسان الأول عبر عن عواطفه وانفعالاته بصوت مرتفع ، وعندما يرتفع صوت الإنسان عالياً يتحول بطبيعة الحال إلى الادغام والغناء . وغناء الشعوب نشأ عن صعوبة النطق فى البداية لأن أعضاء النطق لم تكن قد تطورت تطوراً كافياً . ومما يؤكد أن اللغات بدأت بالغناء أن كُتاب النثر الأغريق والرومان قبل جوجياس وشيشرون استخدموا ايقاعات تكاد تكون ايقاعات شعرية خالصة وكأن نثرهم قد أُعد للغناء . هكذا بدأت الأمم الأمية بالشعر . وليس أدل علي ذلك من أن بحور الشعر ازدادت سرعة واقتراباً من النثر بقدر ما أصبحت قدرة الأولين على النطق أسرع ، أى ازداد الايقاع الشعرى سرعة مع النمو العقلى ونمو أعضاء النطق فانتقلت البحور شيئاً فشيئاً من البحر " السبوندى " إلى البحر " الدكيتلى " إلى البحر " اليامبى " حتى اقترب هذا البحر الأخير من النثر . وقد نشأت أبيات الشعر الأولى عند الشعوب مع لغة الأبطال وعصرهم . والتاريخ يؤيد هذه الفكرة إذ يقرر أن نبوءات العرافين والعرافات كانت أقدم اللغات جميعاً . ومن المعلوم أن الكهنة والعرافين قد وجدوا فى كل الشعوب ، ومن المأثور أيضاً أنهم كانوا ينطقون بشعر بطولى وأن النبوءات كانت تأتى فى شعر بطولى ذى أوزان سداسية . ويشير ڤيكو إلى الأدب العبرى والعربى . فالعبرانيون بدأوا بالشعر البطولى بدليل أن سِفْر أيوب وهو أقدم من أسفار موسى قد كُتب فى البداية علي صورة شعر بطولى . أما العرب فقد حافظوا على تراثهم الشعرى عن طريق الرواية الشفهية وذلك قبل أن يعرفوا الكتابة والتدوين ، ونقش المصريون القدماء أخبار موتاهم شعراً فى أعمدة ، كما أن الأشوريين والسوريان قد

بدأوا كلامهم شعراً ، ولاشك أن مؤسسى الحياة الأغريقية كانوا هم الشعراء اللاهوتيين الذين كانوا أبطالاً . ونفس الشىء يقال عن آباء اللغة اللاتينية *Salii* وقد كانوا شعراء مقدسين ، وفى هذا يقول شيشرون إن الأطفال تعلموا قانون الألواح الأثنى عشر بطريق الغناء .(١)

ويستخلص فيكو من هذا أن جميع الشعوب البربرية قديمة أو حديثة حفظت تاريخها الأول فى صورة شعرية ، ومعنى هذا أن الشعوب الأولى كانوا شعراء . وهناك خاصية مشتركة فى كل اللغات الأولى وهى أنها جميعاً - كما ذكرنا - قد بدأت بالأسماء ثم تشكلت الأفعال فيما بعد . وهذا يثبت خطأ اللغويين الذين قالوا أن الحديث النثرى سابق على الحديث الشعرى . واستمر الخطاب الشعرى لفترة طويلة فى الدورة التاريخية . وهذا يوضح أموراً هامة تتعلق بالعصور القديمة مثل عادات هذه الشعوب وتقاليدها والحكم والأمثال والقوانين والتنظيمات الاجتماعية . فطبقاً لمسلمة فيكو التى تقول بميل العقل البشرى إلى كل ما فيه وحدة ونظام نجد لدى عامة البشر نزعة طبيعية لخلق شخصيات شعرية بالتصور الخيالى ، مثلما نسب الأغريق لصولون الحكمة الشعبية وعدُّوه من الحكماء السبعة لأنه حث العامة على المطالبة بالمساواة فى الحقوق المدنية مع النبلاء . كذلك فعل الرومان مع روميلوس فنسبوا له كل القوانين المتعلقة بالطبقات الإجتماعية ، والمصريون القدماء مع هرميس مثلث الحكمة ، كما حدث نفس الشىء مع زرادشت فى الشرق وكونفوشيوس فى الصين .

ومع نشأة اللغات نشأ التشريع أيضا نشأة دينية مع الأوامر والنواهى الدينية ، فكانت التشريعات الأولى فى شكل نبوات إلهية ، ثم كان اختراع الرموز والأسماء والحروف ضرورة تتطلبها تحديد الملكية الشخصية لآباء الأسر التى تفرعت منها العديد من الأسر . ومما يشهد على هذا أن المعنى الأصلى لكلمة *ius* (وهى

(1) Ibid; p. 112 - 115.

تعنى القانون فى اللغة اللاتينية) كانت تعنى قبل كل شىء لحوم الضحايا التى تقدم لكبير الآلهة ، ثم أصبحت تعنى سلطة التملك حيث أن كل شىء ملك لجوبيتر . لقد كانت السلطة فى أصلها تعنى الملكية - كما سبق أن عرضنا ذلك فى الميتافيزيقا الشعرية . وقد عبر شيشرون عن هذا فى خطبة قال فيها انها تعنى الملكية المطلقة الحرة من كل دين .(١) وكان حق الملكية هو حق الأقوى المتصرف تصرفاً كلياً فى ملكه لأن الحق كان مرادفاً للقوة فى العصور الأولى من تاريخ العالم . وكان حق الملكية فى البداية وقفاً على آباء الأسر .

وأخيراً نشأ منطق المتعلمين الذى يبدأ من المحسوس الجزئى ومن الحالات الخاصة لكى يصل إلى التعميمات والكليات مع تطور العقل البشرى . ويضرب فيكو لذلك مثلاً على طفولة العقل البشري التى تشبه طفولة الإنسان ، فالطفل قادر على التقليد والمحاكاة لأن خياله وحسه يتميزان بالحيوية ويرتبطان بالمحسوسات ، لهذا كانت الفنون أسبق من الفلسفة ، كما كانت الفلسفات أسبق من العلوم . ويقدم فيكو بعض الأمثلة من تطور العقل البشرى اليونانى فيقول أن ايسوب *Aesop*(٢) الذى سبق الحكماء السبعة كان يعلم الناس بالحكمة والمثل لأنه فيما يقول فيكو كان يحيا فى العصر الشعرى ويفكر من خلال الحالات الجزئية المحسوسة التى تقنع عامة الناس أكثر مما يقنعهم التفكير العقلى . ثم جاء سقراط بعد ايسوب فأدخل الجدل واستخدم الاستقراء فى جمع الأحوال الجزئية للتوصل منها إلى المبادىء العامة . وهكذا تفوقت اثينا فى عهد سقراط وأفلاطون في جميع الفنون وازدهر فيها الشعر والخطابة والتاريخ كما ازدهرت الموسيقى والرسم والنحت والعمارة . وكل هذا دليل على أنها كانت لا تزال فى حالة التفكير الاستقرائي بالأمثلة والحالات الجزئية .

---

(١) (عن فيكو) وما بعدها Agrarian Law 3. 2. 7 .

(٢) Aesop كاتب يونانى من القرن السادس ق. م اشتهر بحكاياته الخرافية التى وضعها على لسان الحيوان وجمع فيها بين الحكمة الشعبية والمعنى والعبرة .

ثم جاء أرسطو بمنهجه ومنطقه الصورى الاستنباطى وخصوصاً القياس الذي يستدل من الكلى على الجزئي ، أى الذى يستنبط الحالة الجزئية من القضية الكلية بدلاً من الجمع بين الجزئيات للحصول على الكليات . ولكن هذا المنهج فيما يزعم ڤيكو لم يفد الجنس البشرى أية فائدة . ولهذا كان فرنسيس بيكون على حق عندما دعا فى كتابه " الأورجانون الجديد " الي المنطق الاستقرائى وأكد أهميته .[١]

الأخلاق الشعرية :ـ

نشأت الأخلاق الشعرية لدى الأمم الأممية من فكرة الخوف من الإله ، وهذه الفكرة ليس مصدرها العقل بل الأحاسيس والانفعالات . فالعمالقة الذين خافوا رعد السماء بدأوا يغيرون من عاداتهم الوحشية كالجماع فى العراء واكتسبوا عادات أخرى ، فأخذوا يختبئون فى الكهوف ويشعرون بالخجل – الذى وصفه سقراط بأنه مظهر الفضيلة .[٢] ومن ثم نشأ نظام الزواج من امرأة واحدة ، وانبثقت الفضائل الأخلاقية من الدين الذى نشأ بدوره من فكرة أساسية لدى الأمم الأممية وهى الخوف من كبير الآلهة . لقد نشأ نظام الزواج – كما ذكرنا من قبل – من فكرة الألوهية . ففى هذه العصور الأولى نجد أن الدين علم الناس الذكاء ليفهموا نبوءات جوبيتر ، وعلمهم أن يكونوا عادلين تجاه الإله وتجاه بعضهم البعض ، وأن يكونوا متعففين بحيث يكتفى الرجل بامرأة واحدة طوال عمره ، وعلمهم أن يكونوا أقوياء كما علمهم كرم النفس . ولم تكن اللذة هى قانون العصور الأولى كما يدعى بعض الكتاب ، لأن عصر الشعراء اللاهوتيين هذا لم يجد متعة إلا فيما هو نافع ومفيد .[٣] ولكن ڤيكو يرى أن فضائل ذلك العصر الأول كانت مزيجاً من التدين والقسوة والوحشية . وهذه الأخلاق نفسها التى تمتزج فيها الخرافة بالقسوة هى التى انحدر منها تقليد

---

(1) Vico; New Science; p. 123 - 125.

(٢) أفلاطون ، محاورة أوطيفرون . 12 CD (عن ڤيكو) .

(3) Vico; New Science; p. 133.

التضحية بالبشر وتقديمهم قرابين للآلهة . ويؤكد ڤيكو أن هذا العصر الأول للشعوب الأممية كان أبعد ما يكون عن البراءة ، فقد كان عصر التعصب للخرافات . ولكنه يؤكد فى النهاية ان الألوهية هى التى حدَّت من حالة التوحش الأولى . وإذا كان ڤيكو يزعم ان تقليد التضحية بالبشر وتقديمهم قرابين للآلهة كان تقليداً لدى جميع الأمم الأممية ، فان هذا الرأى ليس صحيحاً لأن هناك العديد من الحضارات لم تكن لديها هذه العادة ومنها الحضارة المصرية القديمة .

أما عن الأخلاق في العصر البطولى فقد عرضها ڤيكو فى الفصل الثامن من السياسة الشعرية . وهو في هذا العرض يواصل تأكيده أن هذه الأخلاق البطولية كانت مختلفة تمام الاختلاف عما تخيله الفلاسفة المتأخرون عنها متأثرين بعلمهم وحكمتهم عندما تصوروا مثلاً نوعاً من العدالة السقراطية لم يكن له وجود ، كما تصوروا مجداً نسبوه لكل من أحسنوا للجنس البشرى ، وتخيلوا أنهم خالدون وكأنما كانت مهمة كل الملوك والأبطال القدماء هى إسعاد الفقراء الذين يمثلون الغالبية العظمى من السكان في كل مدينة أو أمة ! ويوضح ڤيكو على ضوء أمثلة يستقيها من هوميروس ومن الأساطير القديمة – أن الأبطال القدماء كانوا أفظاظاً قساة القلوب ، وأن تربيتهم لأبنائهم بلغت الغاية من الغلظة والبشاعة . ويكفى أن شخصية أخيل – أعظم أبطال الأغريق – كما يخبرنا عنه هوميروس تكشف عن ثلاث خصائص تعارض الأفكار الثلاثة التى تصورها الفلاسفة المتأخرون عن أخلاق الأبطال . ونبدأ بالعدالة فنرى كيف أن هيكتور – البطل الطروادى – اقترح على أخيل أن يقوم المنتصر فى الحرب بدفن المهزوم . ولكن أخيل ينسى المصيرالبشرى المحتوم ويشمخ بأنفه على بطل مثله ويجيبه هذه الإجابة الوحشية : (متى تحالف الناس مع الأسود وأين كان الذئاب متفاهين مع الحملان ، إذا قتلتك فسوف أربط جسدك العارى فى عربتى وأجره ثلاثة أيام حول أسوار طروادة ثم أقدم جسدك لكلاب صيدى لتأكله)[١] وهذا ما فعله أخيل بالفعل عندما قتل هيكتور حتى افتداه أبوه العجوز ودفنه بنفسه .

---

(١) الالياذة : نشيد (٢٢) سطر (٢٦١) وما بعده .

أما عن المجد الذى وصفهم به الفلاسفة والعلماء المتأخرون فإن أخيل نفسه يعتبر ان الآلهة والبشر قد عاملوه معاملة سيئة ويطلب من زيوس أن يرد له اعتباره وشرفه ، بل أنه يسحب رجاله وسفنه من جيش الأغريق وبذلك يعرض مواطنيه لمذبحة كبيرة ، وكل هذا لأن أجاممنون خطف منه حبيبته . هكذا انتقم من مواطنيه بل أحس بالشماتة فى المذبحة التى وقعت لجيش الاغريق ولم يعبأ بمجد الوطن . أما عن رغبة القدماء فى الخلود فلم تكن كذلك صحيحة . فالأوديسة تروى لنا أن أوديسيوس سأل أخيل ان كان سعيداً فى العالم السفلى فأجابه قائلاً : (أنه يفضل أن يكون عبداً حقيراً فى أرض الأحياء على أن يكون ملكاً متوجاً فى عالم الموتى) .[١] ويتهكم ڤيكو على تلك الأخلاق البطولية التى كانت هى أخلاق البطل الذي تغنى به هوميروس وجعله مثلاً أعلى للفضيلة البطولية . وأقصى ما يقال فيها أنها أخلاق الفرسان المتجولين والمغرورين فى العصور البربرية الجديدة .

ثم ينتقل ڤيكو إلى العصر البطولى الرومانى فنجد نفس الشىء ينطبق على فضائل الأبطال ابتداء من نهاية الملكية إلى نهاية الحرب القرطاجية الثانية وهو العصر الذى قال عنه المؤرخ ليفيوس (٥٩ ق . م الى ١٧ م) أنه لم يوجد عصر مثله انتج مثل ما أنتج من الفضائل . ولا داعى لأن نذكر الأمثلة العديدة فكلها تدل على أن أبطال الرومان كانوا يرتكبون أفظع الجرائم من حرق وصلب واعدام ... ألخ باسم الحرية والشرف العسكرى ومجد روما . ويتساءل ڤيكو ماذا فعلوا فى سبيل إسعاد العامة ؟ لقد أثقلوا كاهلهم بالديون وأغرقوهم فى الحروب وحكموا عليهم بالحياة فى سجون النبلاء وحرموهم كل القوانين التى ترفعهم فوق مرتبة العبيد . وقد تكرر نفس الشىء فى اسبرطة بلد أبطال الأغريق التى حُكم على ملكها العظيم أجيس *Agis* بالشنق لمجرد اشاعة رويت عنه . ولا شك أن التاريخ الرومانى مع تاريخ اسبرطة يقدمان أمثلة أخرى مذهلة عن أخلاق الأبطال " وتواضعهم " وعدالتهم " ورحمتهم ".[٢]

---

(١) الأوديسة : النشيد الثامن سطر ٤٨٨ .

(2) Vico; New Science; p. 201 - 207.

أما عن أخلاق الأبطال فى تربية أولادهم فلا نرى بنا حاجة لذكر الأمثلة التى تدل على ماوصلت إليه من القسوة والغلظة بحيث كان الآباء يضربون أبناءهم حتى الموت لمجرد ضعف طارىء أو اخلال بسيط فى النظام العسكرى . كل هذا ارتبط بنظام الحكم الذى كان بطبيعته ارستقراطيا يتألف من الحكام الأقوياء كما كان الوطن حكراً على آباء الأسر وهم الأبطال النبلاء .

ثم ينتقل فيكو بعد ذلك إلى عرض الأخلاق البشرية التى يمر عليها للأسف مروراً سريعاً . فبعد قيام النظم المدنية أصبح النظام البطولى بكل عاداته وقوانينه ومؤسساته مستحيلاً ، وظهرت نظم الحكم الشعبية والملكية التى أكد فيكو أكثر من مرة أنها (خصوصاً الملكية) أكثر إنسانية .[1] ففى ظل الملكيات يكون الأبطال هم أولئك الذين يضحون بأنفسهم فى سبيل مجد الملوك وعظمتهم ، كما يسمى البطل بطلاً لأنه يهب حياته فى سبيل العدالة وخير البشرية . ومع ذلك يحترس فيكو فلا يبالغ في فضائل الأخلاق الإنسانية وإنما يؤكد أن مثل هذا البطل الإنسانى ينشأ من طبيعة الحياة المدنية التى تقوم (كما أكد فى مسلمة رقم ٨٠) على مبدأ المنفعة قبل كل شيء وخصوصاً فى ظل النظام الاقطاعى . وهكذا ينتهى فيكو إلى أن الأخلاق البشرية قائمة على مبدأ المنفعة المتبادلة ، وربما يكون قد تأثر في هذا بنظرة هوبز المتشائمة .

الإقتصاد الشعرى :-

ان المجتمعات البشرية الأولى تأسست بناء على نظام اقتصادى معين . ويبين فيكو بوضوح كيف تكونت الأسر الأولى فى العصور المبكرة على أساس اقتصادى ، فقد أدرك الأبطال بالأحاسيس البشرية حقيقتين هما : التربية الروحية والتربية الجسدية . أما عن التربية الروحية فقد بدأت بطريقة معينة تشكل الروح الإنسانية التى كانت مغمورة فى أجسام العمالقة الضخمة ، فكان الآباء البطوليون هم حكماء

---
(1) Ibid; p. 206.

البشر فى الحكمة الشعبية ، وكانوا بدورهم كهنة لهم حق تقديم القرابين للآلهة لتلقى البنوءات ، وهم حاملو القوانين الإلهية لأسرهم فكانوا ملوك المرحلة البطولية . وهنا يقرب ڤيكو بين عالم الطبيعة وعالم البشر ، أى أن حيوانات العالم الأول تصبح بشراً فى عالم الأمم . فهؤلاء العمالقة كانوا يحتاجون إلى قوة إلهية لتحويلهم من حالة التوحش إلى الحالة البشرية . والحقيقة الأخرى التى قام عليها نظام الأسرة هى كما ذكرنا التربية الجسدية ، فقد بدأ الآباء تشكيل الجسد البشرى من أجسام أبنائهم العمالقة غير المتجانسة . هؤلاء العمالقة الذين ضلوا فى الأرض وطاردوا النساء واخترقوا الغابات هرباً من الوحوش الضارية ، بدأوا يتجمعون من خلال بحثهم عن الطعام والماء وبدأوا يستقرون مع نسائهم فى البداية فى كهوف ثم فى أكواخ قريبة من منابع المياه . ومع استقرار الأبطال فى أراضى محددة بدأت الزراعة وبدأ الاقتصاد الأسرى من الوراثة ، أى أن يورث الآباء أبناءهم كل ما يملكون من مساكن وأراضى حول منابع المياه ويورثوهم مزارعين لفلاحة الحقول .(١) وكان الأقوياء من البشر يؤسسون مدنهم فوق قمم الجبال حيث الجو الصحىّ والمواقع الطبيعية القوية . ثم أسسوا مدناً قريبة من منابع المياه الدائمة التى منها نشأت أول جماعات ذات تنظيم مشترك . ومن تجمع العائلات والأسر حول منابع المياه بدأ التزاوج بين هذه الأسر لأن الزواج الأول تم بين رجل وامرأة كانا يشتركان فى نفس المياه والنار . ويستشهد ڤيكو على ذلك ببعض العادات والتقاليد المصاحبة لطقوس الزواج فى معظم الشعوب التى كانت تستخدم فيها النار والمياه . وكان الزواج هو النوع الأول من الصداقة فى العالم ، فكلمة الصداقة فى اليونانية *Philia* مشتقة من أصل كلمة حب *Phileo* (٢) . هذه التنظيمات أوجدتها العناية الإلهية من خلال العادات البشرية لا من خلال القوانين لتدفع البشرية المبكرة الدفعة الأولى نحو اكتمال إنسانيتها ، فكان ترويض العمالقة على الحياة البشرية بدافع من العقيدة والرغبة الطبيعية فى بقاء الجنس البشرى .

---

(1) Ibid; p. 135 - 138.

(2) Ibid; p. 151.

وتكون المجتمع الأسرى الذى كان أول شكل من أشكال المجتمع البشرى . ولكن المجتمع بالمعنى التام - الذى يقوم على مبدأ المنفعة - لم يبدأ إلا بظهور طبقة العبيد التى تكونت من العمالقة العصاة الذين استمروا فى اختلاطهم البهيمى بالأشياء والنساء واضطرتهم قسوة الظروف الطبيعية إلى التماس النجاة فى أماكن مسكونة فلجئوا إلى أراضى مجتمع الأسر طلباً للحماية وأصبحوا بمثابة عمال أو عبيد لدى الأبطال . عاش هؤلاء العمالقة حياة العبودية وأطلق عليهم اسم الأتباع *Clientes* إذ كان أولاد الأبطال وحدهم الأحرار . بهذا تشكل المجتمع من طبقتين : الأبطال الذين يمثلون طبقة النبلاء ، والأتباع وهم العبيد الذين يحرثون الأرض ويزرعونها . وبهذا التنظيم الزراعى ظهر أول مجتمع اقطاعى فى العصور الأولى . فطبقة النبلاء قامت على النظام الزراعى ، لا عند الشعوب البربرية القديمة فحسب ، بل كذلك فى العصور البربرية الثانية . ثم تأسست المستعمرات البطولية والمدن التى كانت فى الأصل أماكن مقدسة لجأ إليها البشر بحثاً عن الأمان مثلما أسس كادموس مدينة طيبة أقدم مدينة يونانية ، وكما أسس روميلوس مدينة روما ... ألخ .

أما عن المعاملات الاقتصادية فكانت المقايضة هى قانون الاقتصاد عند الأمم الأمية التى كانت تشغلها ضرورات الحياة ولم تكن تعرف التعاقد فلم يلجئوا إلى المال في معاملاتهم الاقتصادية بل إلى نظام المقايضة . وكان القول بمثابة تعهد أو التزام بنقل الملكية كما أكد ذلك قانون الألواح الأثنى عشر . ونستخلص من طبيعة هذه التنظيمات البشرية الحقائق التالية : " ان نظام المقايضة لم يكن مقصوراً على البيع والشراء فقط بل امتد إلى مقايضة الأراضى ليتم تبادل المحاصيل المختلفة " . " ولم يكن نظام تأجير المنازل معروفاً بل كان ملاك الأراضى يؤجرون أراضيهم للبناء " . " وكان تأجير الأرض قائماً على حق الاستزراع وهو ما يسمى باللاتينية *Clientela* (أى حق الاستزراع) ومن ثم فإن كلمة *Clientes* (أى أصحاب الحق فى الاستزراع) جاء من كلمة *Clientes* (أى الحارثين الزراعيين) " . " لم يعرف نظام المشاركة فى هذه العصور وكذلك لم يُعرف نظام التوكيل أو التفويض ، أى أن

القاعدة التى كان يقوم عليها القانون المدنى القديم هى (لا يصح للإنسان أن يحصل على شىء بواسطة شخص غير خاضع لسيطرته)[1] . وهكذا كانت صورة الاقتصاد فى العصور الأولى التى لم تكن لديها قوانين مدنية بل بدأ القانون بداية أسطورية . ونلاحظ فى الختام أن ڤيكو لم يطبق قانونه على المرحلة الثالثة من مراحل التطور وهى المرحلة البشرية ، فقد تناول النظام الاقتصادى في المرحلة الأولى ثم أفاض فى الحديث عن الاقتصاد البطولى الذى يمثل المرحلة الثانية ، ولكنه مر مروراً سريعاً على المرحلة الثالثة التى افتقرت إلى التطبيق والأمثلة . ولم يعتمد على أمثلة واقعية غير الأمثلة التى استقاها من هوميروس وغيره . والواقع أن أهمية النظام الاقتصادى عند ڤيكو ترجع إلى أنه يعد أساساً للسلطة السياسية وهذا ما سنعرضه بالتفصيل فى السطور التالية :ـ

السياسة الشعرية :ـ

حشد ڤيكو مجموعة هائلة من الأمثلة التى استمدها من الأساطير اليونانية والرومانية ليدلل على نشأة النظام السياسى فى العصور المبكرة ، كما تعرض بالتفصيل لجوانب دقيقة من هذه الأساطير .. وقد حاولنا أن نستخلص العناصر الأساسية التى تتصل بتطبيق قانون تطور الأمم على الحياة السياسية في الشعوب الأولى ، كما حاولنا تهذيب هذا الفصل باستبعاد التفاصيل الجانبية التى أفرط ڤيكو فى سردها لاستخلاص المعالم الأساسية للحياة السياسية وكيف قامت على أساس اقتصادى .

رأينا فى الاقتصاد الشعرى كيف تكونت الأسر واتحدت وكونت المدن التى تألفت من طبقتين : طبقة النبلاء وهم الأبطال وطبقة العبيد أو الأتباع الذين لم يكن لهم حق إلا فى ضرورات الحياة . وكان نظام الحكم فى تلك العصور لآباء الأسر بمقتضى السلطة الأبوية حيث كان لهؤلاء الآباء حق السيطرة على حياة أبنائهم ، ثم

(1) Ibid; p. 163 - 164.

تحرر الأبناء من هذه السلطة الأبوية بعد موت آبائهم . وفى الجانب الآخر واصل العبيد مرحلة العبودية إلى أن مرت حقبة طويلة من الزمن وبدأ العبيد في التمرد على النبلاء للمطالبة بالمساواة معهم فى الحقوق . وهذا التطور التاريخى يثبت مسلمة فيكو الأساسية التى تنص على أن الإنسان بطبيعته يتوق إلى الحرية ، فكانت ثورة العبيد ضد الأبطال . من هنا نشأت الحكومات ، فتحت ضغط الضرورة وجد النبلاء أنفسهم في صفوف مسلحة وتحالفات مشتركة ضد المتمردين من العبيد فتكونت بذلك النظم الارستقراطية . ويستدل فيكو على تطور نظم الحكم من الأساطير اليونانية والرومانية القديمة . فقد كان الحكم فى المرحلة الأسرية حكماً ملكياً مثلما كان جوبيتر ملك الالهة والبشر ، ثم كان ميلاد مينرفا *Minerva* (أثينا عند الأغريق) من رأس أبيها ايذاناً بتغيير نظام الحكم الملكى فى دولة الأسرة إلى نظام الحكم الارستقراطى فى دولة المدينة . وقد كان هذا النظام هو المفضل لدى الأغريق والرومان . لذلك أطلق الشعراء اللاهوتيون على كل من اثينا ومينرفا اسم إلهة الحكمة .[1] وكانت مينرفا تعنى النظم الارستقراطية المسلحة . وقد أكد هوميروس ذلك فى أشعاره عندما صور لنا كيف قذفت مينرفا مارس (إله الحرب عند الرومان) بحجر أثناء صراعهما (وقد كان مارس شخصية ترمز للعامة التى تخدم الأبطال فى الحروب) لقد كان صراع مينرفا ومارس تعبيراً عن صراع النبلاء والعامة . كذلك يشير أرسطو فى نص ذكره فيكو أكثر من مرة إلى أن النبلاء أقسموا على العداء الأبدى للعامة .

لعل أهم ماقدمه فيكو فى السياسة الشعرية هو تحليله الدقيق والعميق للصراع الطبقى الذى يشكل هيكل المجتمعات البشرية عندما شعر النبلاء بالحاجة إلى الآخرين لخدمتهم واضطروا لاسترضاء العبيد العصاة فأرسلوا لهم السفراء مع أول قانون زراعي في العالم . وبمقتضى هذا القانون منحوا هؤلاء التابعين اقطاعات من الأرض ولكن بشرط أن ترد هذه الأرض مرة أخرى إلى النبلاء إذ لم يكن لهؤلاء

---

(1) Ibid; p. 172 - 173.

العبيد حق المواطنة . ثم كان القانون الزراعي الثاني الذي منحه النبلاء للعامة من خلال قانون الألواح الأثنى عشر ، فحصل العبيد على ملكية مؤقتة للأراضي لأنهم ظلوا محرومين من الملكية المدنية ولم يكن لهم حق توريث أراضيهم ولا الحق في عمل وصية فكان من الضروري أن تعود الأرض مرة أخرى للنبلاء . ثم بدأ العامة بعد ذلك يطالبون بحق المواطنة التي حصلوا عليها وان ظلوا كذلك محرومين من الدخول في علاقات زوجية مع طبقة البنلاء . هكذا نشأت المجتمعات الأولى نشأة ارستقراطية اقطاعية لأن كل المجتمعات البشرية لابد أن تقوم على مبادىء اقطاعية دائمة ، وهذه المبادىء قامت على أساس ثلاثة أنواع من الملكية تتطابق مع ثلاث فئات من البشر . النوع الأول يسمى *bonitary ownership* وهو نوع من الملكية يقوم على أساس الهبة أي أراضي ممنوحة للعامة ولا تتجاوز ملكيتهم ملكية المحاصيل . أما النوع الثاني فيسمى *quiritary ownership* وهي ملكية النبلاء الأبطال لاقطاعات مسلحة لأن الممالك البطولية كانت كهنوتية ، كما أن الأبطال مثلهم مثل الكهنة كان لهم حق استقطاع أراضي معفاة تماماً من الديون أو الضرائب العامة والخاصة ، فعندما وحد الأبطال أنفسهم في صفوف مسلحة وتكونت نظم الحكم البطولية أصبحت الأراضي خاضعة لسيادتهم على أساس أنهم وحدهم هم الأحرار ، فالحرية كانت مقصورة على ملاك الأراضي فقط . وأخيراً نصل إلى النوع الثالث الذى يسمى *Civil ownership* أي الملكية المدنية ، وهي ملكية كاملة . فعندما تكونت المدن البطولية بسط الأبطال سلطانهم على الأراضي التي زعموا أنها وصلت إليهم عن طريق الآلهة ، وأضافت السلطة الحاكمة إلى ألقابها عبارات تدل على أنهم تملكوا أراضيهم بفضل الآلهة وعنايتهم . من هنا يرى ڤيكو أنه لو سقط الإيمان بالآلهة أو العناية الإلهية لسقطت كل نظم الأبطال ، إذ أن كل أشكال التدين من الوثنية إلى اليهودية ، فالمسيحية وأخيراً الإسلام تؤمن بالعناية الإلهية[1] هكذا استمد الأبطال قوتهم من ملكية الأراضي التي تحيط بالمدن ، وقام النظام الاقطاعي على حماية

---

(1) Ibid; p. 177 - 178.

القوى للضعيف ، لذا يقسم النبلاء بالآلهة ويقسم العامة بالأبطال . وفى ظل هذا النظام الاقطاعى كان من حق الملوك الأبطال (وهم السلطة الإلهية الحاكمة التى أسست المدن) أن يتصرفوا فى الرعايا سواء فى أشخاصهم أو ممتلكاتهم ، وكان من حقهم أيضا أن يفرضوا عليهم ما شاءوا من الضرائب .

ويقدم فيكو من الحضارة الرومانية والحضارة المصرية القديمة بعض الأمثلة التى تدل على وجود هذه المبادىء الاقطاعية فى كل المجتمعات القديمة . فقد عرف الرومان أن التجمعات البشرية أو الحكومات نشأت من هذه المبادىء الخالدة التى حددت الملكية ، وإذا لم يكونوا قد أدركوا ذلك بالعقل فقد أدركوه بالحدس ، إذ كانوا يضعون أيديهم على الأراضى بمقتضى هذه الصيغة : " أعلن أن هذه الأراضى ملكى بحق أننى مواطن صاحب حقوق كاملة " (أى *Quirites* أو حق المواطنة) بهذه الصيغة كانوا يقيمون الدعوى المدنية للدفاع عن حق ملكية الأرض كاملة بما عليها من مزارع وبشر ... ألخ . لذا خلقوا شخصية الإله ميركورى *Mercury* (هيرمس عند الأغريق) وهو حامل القوانين ورسول الآلهة وتصوروه رسولاً مجنحاً . وكانت أجنحته تدل على النظم البطولية وعصاه تدل على السيطرة على الأراضى والحقول ، وهو الذى ينظم الرعية تحت سيطرة الأبطال . أما عند المصريين القدماء فقد كان الإله " توت " ومعه الثعابين رمز الأرض المزروعة وفى يده صولجان يرمز إلى أن الحكم للكهنة ، وعلى رأسه قلنصوة ترمز لسيطرة الكهنة على الأرض .

هكذا كانت طبيعة التنظيمات الإجتماعية البشرية الأولى التى تأسست فيها المدن على الحكم الارستقراطى الإقطاعى حيث الصراع الدائم بين النبلاء والعامة ، فلم يكن للعامة حق المواطنة باعتبارهم أجانب أو أغراباً ، وليس من حق الغريب أن يمنح لقب المواطنة . وبهذا تعرضوا لنوع من الحرمان ولم يكن لهم الحق في المشاركة فى التنظيمات الدينية ولا حق الاحتفال بطقوس الزواج ، وعاشوا أشبه بالضيوف والأغراب في المدن البطولية . فلا عجب أن كان العامة حريصين على تغيير شكل الحكومات لتغيير الوضع الطبقى . أما النبلاء فى الجانب الآخر فكانوا يتصورون

أنهم مقربون من الآلهة ولهم حق الاحتفال بطقوس الزواج ودفن الموتى واحتكار القوانين والأراضى والنظم العسكرية ، ولهذا كانوا حريصين على المحافظة على هذا الوضع(١) . وقد صورت الشعوب هذا الصراع فى أساطيرها التي حفظها التاريخ . فكلمة *nomos* اليونانية تعنى قانون زراعى لأن القانون الأول كان قانوناً زراعياً ، وكان الأبطال - كما أكد هوميروس - هم " رعاة الشعوب " كما خلقت الشعوب شخصيات بطولية تؤكد مبادىء هذه السياسة الشعرية مثل *Mercury* الذى كان رمز اتحاد الآباء البطوليين ، وشخصية مينرفا التى كانت ترمز للحكم الارستقراطى الاقطاعى فى دولة المدينة وان السيادة العليا لآباء الأسر ، وشخصية هرقل وصراعه مع انتيوس *Antaeus* الذى يرمز لانتصار الأبطال على العامة المتمردين(٢) . كذلك خلقت شخصية نبتون (إله البحر عند الرومان من صفة أساسية ملازمة للعصر البطولى وهى القرصنة البحرية (كما أكدها هوميروس فى الأوديسة أثناء عودة أوديسيوس إلى ايثاكا) وهى عادة تخلصت منها المدن التى تدرجت فى سلم الحضارة . هكذا رسمت الأساطير صورة الحياة السياسية فى المدن البطولية وانتهت حكمة الشعراء اللاهوتيين - وهم حكماء المرحلة البطولية الاغريقية - (مثل أورفيوس *Orpheus* وامفيون *Amphion* ولينوس *Linus* وغيرهم) إلى التغنى بقوة الآلهة ونبوءاتها لكى يظل العامة خاضعين للنظم البطولية وليضمنوا ولاءهم للنبلاء . ولكن العامة لم تكف عن التمرد لأنهم هو وحدهم القادرون على تغيير شكل الحكومات من ارستقراطية اقطاعية إلى ديمقراطية شعبية ، وبذلك يكون التطور قد بلغ آخر مرحلة من مراحل الثورة الإجتماعية ودخل فى عصر البشرية والحرية الشعبية التى تطورت فى ظلها نظم الحكم وأُنشىء نظام الضرائب التى تُدفع للخزانة العامة لمواجهة تكاليف الحروب . وأصبح من حق العامة أيضا اصدار التشريعات والقوانين التى كانت وقفاً على النبلاء فقط ، وانقسمت تنظيمات المجتمع إلى مجالس مختلفة يرعى كل منها الطبقة التى يمثلها وهى مجالس الشيوخ والملوك العامة .

---

(1) Ibid; p. 182 - 184.

(2) Ibid; p. 187.

هكذا نجد أن النظام الإقتصادى هو أساس النظام السياسى عند ڤيكو ، ونلمح عنده رؤية نفاذه عن أهمية النظام الاقتصادى فى نشأة السلطة السياسية . وهذا ما قامت عليه الماركسية فى جعلها النظام الاقتصادى هو البنية التحتية التى تقوم عليها البنية الفوقية من فلسفة وفن ودين وسياسة وقانون ... ألخ فهل يمكن القول بأن ڤيكو (الذى عاش بين منتصف القرن السابع عشر والثامن عشر) سابق على الماركسية .. ؟ هذا ما سوف نتناوله فى الباب الأخير .

الفيزيقا الشعرية :-

هى الفرع الآخر من الحكمة . فقد كانت الميتافيزيقا هى الفرع الأول الذى نشأت عنه علوم المنطق والأخلاق والاقتصاد والسياسة . وتشمل الفيزيقا علمى الكونيات والفلك ، وينشأ عن هذا الأخير علما التاريخ والجغرافيا . نشأت الفيزيقا من حالة الاختلاط والعماء *Chaos* على النحو الذي نشأ عليه عالم الأمم بأسره ، فقد اعتبر العلماء أن هذا الاختلاط هو أصل الأشياء الطبيعية التى لم تتشكل بعد . ولما أرعدت السماء بعد الطوفان وتولدت الألوهية تحولت الإنفعالات الحيوانية للإنسان الأول إلى أفكار بشرية علمته التحكم في انفعالاته وحركات جسده .

من هنا نشأت الفيزيقا نشأة دينية . وجاء الشعراء اللاهوتيون ليقولوا بالعناصر الأربعة المقدسة وهى الهواء الذى انطلقت فيه سهام جوبيتر *Jove* والماء الذى كان ينابيع دائمة التفت حولها التنظيمات البطولية وكانت تمثله الإلهة ديانا *Diana* ثم النار ويمثلها إله النار *Vulcan* الذى أنار بها الغابات ، وأخيراً الأرض المزروعة وألهتها سبيل *Cybele* . وكان لهذه العناصر طقوس إلهية وأضفى الشعراء اللاهوتيون عليها الحياة والإحساس[1] وجاء علماء الطبيعة فى العصور البشرية فدرسوا هذه العناصر الأربعة المكونة للعالم المادى .

(1) Ibid; p. 213 - 214.

ولكن لعل أهم ما فى الطبيعة هو تأمل الطبيعة البشرية . وقد رأينا فيما سبق كيف أن مؤسسى الأمم الأممية استطاعوا تحويل العقول الوحشية إلى عقول بشرية . ثم دُرست وظائف الأعضاء البشرية ، وكيف أن وظائف الروح تنحصر فى الرأس والصدر والقلب ووظيفة كل منها . فالرأس وظيفتها المعرفة والإدراك ، وتتضمن الخيال والذاكرة ... ألخ وعلى الرغم من أن ڤيكو حشد حديثه عن الفيزيقا الشعرية بتفاصيل كثيرة عن وظائف الأعضاء البشرية ، فاننا نستشف منه بصورة غير مباشرة أن دراسة الجسد البشرى بأجزائه المختلفة قد مُر أيضا بمراحل متعاقبة ابتداء من عصر الآلهة إلى العصر البطولى حتى العصر البشرى .

الكونيات الشعرية :-

كانت الفيزيقا كما رأينا إلهية فى نشأتها الأولى وكذلك الحال فى وصف الكون ، وهنا يؤكد ڤيكو كما أكد فى الفيزيقا الشعرية أن نظرة البشر إلى الكون أو الطبيعة كانت نظرة إلهية بحيث تصدق العبارة المشهورة التى رددها بعض الفلاسفة السابقين على سقراط وهى أن " كل شىء مملوء بالآلهة " (وقد نُسب إلى طاليس أنه قالها عن الماء ..) وجاء وصف الشعراء اللاهوتيين للكون على اعتبار أن له طبيعة إلهية شأنه شأن كل شىء تخيلوه ، فكانت السماء هى الموضوع الأول لتأملهم لأن الأشياء السماوية تعنى الأشياء السامية أو الموضوعات الدينية المقدسة .

تخيل الشعراء أن السماء غير بعيدة عن قمم الجبال . ويؤكد هوميروس هذا فى ملحمتيه حيث أن أبطالهما كانوا يتخيلون أن الآلهة تسكن قمة جبل الألمب . ومن هذه السماء حكم الآلهة الأرض . ومن السماء جاءت العدالة على الأرض عن طريق الأبطال الذين أقاموا العدل بين البشر بالقانون الزراعى الأول ، ومن السماء هبطت الأجنحة[١] التى تعنى التنظيمات البطولية ، ومن السماء أيضا سرق بروميثوس النار

(١) كانت الأجنحة رمزاً لتنظيمات العصر البطولى على نحو ما صورت الأساطير هرميس أو ميركورى رسول القوانين الإلهية إلى البشر بجناحين ، انظر السياسة الشعرية .

من الشمس . ثم تخيل الشعراء اللاهوتيون آلهة العالم السفلى وكان أولهم الماء ويدعى أسطقس *Styx* [(١)] الذى يقسم به الآلهة . كما كان وصفهم للكون سواء ما كان منه علويا أو سفليا فهو مملوء بالآلهة . بذلك انقسم هذا العالم الشعرى أو الكونيات الشعرية إلى ثلاث ممالك : الأولى مملكة جوبيتر فى السماء ، والثانية مملكة زحل *Saturn* على الأرض ، والثالثة مملكة العالم السفلى التى يحكمها *Pluto* وهو إله الثروات البطولية (وهى من ذهب أو من الحبوب لأن ثروات الشعوب القديمة كانت تقوم على المحاصيل) . وهكذا تكون عالم الشعراء اللاهوتيين - كما سبق أن ذكرنا - من أربعة عناصر اعتبرها علماء الطبيعة فيما بعد عناصر طبيعية وهى الهواء (عنصر *Jove*) والنار (عنصر *Vulcan*) والأرض (عنصر *Cybele*) والماء (عنصر *Diana*) . والغريب أنه لم يسم عنصر الماء باسم نبتون *Neptune* [(٢)] ولعل السبب فى هذا أن الشعراء لم يعرفوه إلا فيما بعد ، وأن الأمم الأممية لم تبلغ شواطىء البحار إلا فى وقت متأخر . لقد كان كل بحر يمتد وراء الأفق يسمونه محيطاً ، وكل أرض يحيط بها تسمى جزيرة . وهذا هو الأصل فيما قال به الجغرافيون فى مرحلة متأخرة من أن الأرض بأكملها تشبه جزيرة كبيرة يحيط بها البحر أو المحيط .

وأخيراً توصل الشعراء إلى كلمة العالم [(٣)] التى أطلقوها على كل منحن أو منحدر ، ثم فهموا من ذلك أن الأرض والسماء كرويتان وأن هناك خطاً يصل من كل نقطة فى محيط هذه الدائرة إلى كل نقطة أخرى . إن المحيط هو الذى يبلل اليابسة على كل الشواطىء لأن مجموع الأشياء (وهو مانسميه العالم) يحفل بأشياء حسية رائعة متنوعة .

---

(١) *Styx* نهر الجحيم عند الأغريق .

(٢) *Neptune* إله البحر عند الرومان .

(٣) سمى الشعراء هذا العالم *Mundus* باللاتينية و *Cosmos* باليونانية قاصدين به الزينة التى تتزين بها الطبيعة .

ومن عقوبات الآلهة فى العالم السفلى استفاد الفلاسفة - كما يرى ڤيكو - من هذه الخرافات فى تأملاتهم الميتافيزيقية والأخلاقية . فقد لجأ أفلاطون إلى هذه الخرافات ليفهم العقوبات الثلاث - التى يستطيع الآلهة وحدهم انزالها بالبشر - وهى النسيان والعار وتأنيب الضمير ، وليؤكد أن طريق التطهر هو السبيل الوحيد للوصول إلى طريق الوحدة ، أى اتحاد الإنسان بالله عن طريق التأمل فى المثل الأبدية .

الفلك الشعرى :-

عندما بدأت العقول البشرية تتطور واستمر البشر فى تأمل السماء وانتظار النبوءات تصوروا أن السماوات ازدادت ارتفاعاً كما ازداد معها الأبطال والآلهة سمواً . ويؤكد ڤيكو آراءه في الفلك الشعرى ببعض الملاحظات اللغوية التى يلجأ إليها على عادته فى معظم شروحه . وأول هذه الملاحظات هو أن الكلدانيين هم الذين أرسوا الأسس الأولى لعلم الفلك . والثانية أن الفينيقيين نقلوا من الكلدانيين إلى المصريين استخدام الربعية .(١) وأخيراً أن الفينيقيين - بعد أن تعلموا من الكلدانيين - قد نقلوا أسرار النجوم إلى الأغريق . وقد كان تصور هذه الشعوب لعلم الفلك الشعرى تصوراً دينياً قائماً على حقيقتين أساسيتين : أولاهما حقيقة اجتماعية كانت سائدة لدى كل الشعوب الأولى وهى الحذر الشديد من قبول آلهة غريبة . والحقيقة الأخرى طبيعية تسبب فيها الخداع البصرى ، إذ تبدو لنا الكواكب السيارة أكبر من النجوم الثابتة ، ولهذا نسبت الأمم الأولى الآلهة إلى الكواكب السيارة بينما نسبت الأبطال إلى مجموعة النجوم الثابتة . وقد بدأت مبادىء الفلك عند كل الشعوب الأممية بداية واحدة انطلاقاً من هاتين الحقيقتين . وإذا كان علم الفلك قد بدأ عند الكلدانيين ونقله الفينيقيون إلى المصريين ثم إلى الأغريق ، فإن هذه الشعوب كانت تسلم من قبل بهاتين الحقيقتين ، ولذلك لم يكن من الصعب عليهم أن

(١) الربعية *quadrant* أداة تستخدم فى الفلك والملاحة لقياس الارتفاع .

يتقبلوا ما نقل إليهم من حقائق علم الفلك . وكأن هذه الشعوب قد كتبت فى السماء تاريخ آلهتها وأبطالها ، وكأنها أرادت تسجيل أعمالهم مفعمة بالحكمة والأسرار من ناحية ، وبالشجاعة والبطولة من ناحية أخرى . ومجمل القول أن التأثيرات التى نسبت للكواكب والنجوم على الحياة الأرضية كان الأصل فيها هو خصائص الآلهة والأبطال والأعمال التى أنجزوها على الأرض .

ان النظرة الشعرية إلى السماء لم تكن تفسر حركات الكواكب والنجوم وتأثيراتها من خلال العلل والأسباب الطبيعية بل من خلال صفات الآلهة والأبطال وأعمالهم . ولابد أن الناس قد تعلموا فيما بعد كيف ينظرون بالتدريج إلى السماء نظرة علمية محايدة ، وكيف يفسرون بالعلل الطبيعية ما كان أجدادهم يفسرونه بأسباب إلهية ، ولعل هذا هو مضمون الجزء الذى لم يكتبه ڤيكو عن الفلك فى المرحلة البشرية . ولو أن ڤيكو طبق قانونه فى هذا الجزء وكتب عن الفلك فى المرحلة البشرية لكان من المرجح أن يشيد بالتفسير الطبيعى والعلمى الذى جاء فى المرحلة البشرية . وان كنا نميل إلى الظن بأنه لو كان قد كتب هذا الجزء لما أغفل ما تحدث عنه من تداخل المراحل بعضها مع بعض ، إذ أن المعروف أن علم الفلك فى عصر النهضة وحتى اسحاق نيوتن لم يخل من وجود رواسب من التفسيرات الفلسفية والصوفية القديمة .

التاريخ الشعرى :-

انعكست نظرة الشعراء اللاهوتيين للفلك على التأريخ الشعرى لتحديد البدايات الزمنية . ويؤكد ڤيكو أن اسم إله الزراعة ساتورن *Saturnus* (وهو خرونوس *Chronos* أو الزمان عند الأغريق) مشتق من *Satus* أى الحرث أو الغرس ، وهذا يدل على أن الشعوب القديمة كانت شعوباً زراعية تحسب السنوات بمواسم حصاد الحبوب . فعبارة " لقد حصدنا ثلاث مرات " تعنى لقد مرت ثلاث سنوات .[1] وقد

(1) Vico; New Science; p. 230.

نُسب إلى هرقل أنه مؤسس مهرجانات الأوليمبية التي [illegible] وحدة قياس المراحل الزمنية ، وهرقل أيضا هو الذي أشعل النار – كما تحكي الأساطير – في الغابات لكي يمهد الأرض للحرث والحصاد اللذين كانت تحسب بهما الأعوام .

ويؤكد ڤيكو أيضا أن الثيوجونيا أو أنساب الآلهة تساعدنا على تحديد المراحل المتتالية في عصر الآلهة ، وهي مراحل تطابق بعض الضرورات أو المنافع الأساسية للجنس البشري وكانت أصولها جميعاً أصولاً دينية . فعصر الآلهة لابد أن يكون في رأي ڤيكو قد استمر على الأقل ٩٠٠ سنة ابتداء من ظهور الآلهة المتنوعين عند الأمم الأممية ، أي ابتداء من الوقت الذي بدأت فيه السموات ترعد بعد الطوفان . وقد ظهر في هذه الفترة اثنا عشر إلهاً بداية من جوبيتر *Jove* وقسموا هذا العصر إلى أثنى عشر عصراً أصغر وأكدوا بذلك مراحل التاريخ الشعري . كذلك حددوا بداية التاريخ العالمي الذي بدأ في الشرق وان لم يبدأ بمملكة نينوى . ولما كانت الملكية هي آخر أشكال الحكم المدني فلابد أن تكون ممالك الشرق مثل آشور ومصر قد مرت بالمراحل المتتالية من النظم الإلهية والبطولية حتى وصلت إلى النظم الشعبية الحرة لكي تبلغ في النهاية النظام الملكي .[1]

ويرى ڤيكو أن الأمر لم يخل من وقوع المؤرخين الأغريق في أخطاء كثيرة عند تحديد العصور ، فوضعوا عصوراً قبل أوانها أو بعده ، وتصوروا عصوراً مملوءة بالأحداث والوقائع وأخرى خالية منها مع أن الحقيقة كانت على العكس من ذلك . فقد حشدوا عصر الأبطال – الذي استمر في رأى ڤيكو مائتي سنة – حشدوه بأحداث ووقائع تنتمي لعصر الآلهة . ثم أنهم وحدوا بين عصور كان ينبغي أن يُفصل بينها وذلك خشية أن يبدو الأمر كما لو كان الأغريق قد انتقلوا خلال حياة أورفيوس من مرحلة الوحوش المفترسة إلى مرحلة الحرب الطروادية . وأخيراً ينتقد ڤيكو مؤرخي الأغريق فيقول أنهم قسموا عصوراً كان ينبغي أن توحد فوضعوا

---

(1) Ibid; p. 233.

المستعمرات الأغريقية فى ايطاليا وصقلية بعد مرحلة الأبطال بثلثمائة سنة مع أن هذه المستعمرات لم تنشأ إلا نتيجة لرحلات أولئك الأبطال أنفسهم .

الجغرافيا البشرية :-

طبقاً للمسلمة الأساسية التى تنص على أن العقل البشرى يحكم على الأمور المجهولة والبعيدة على أساس الأمور المألوفة له والقريبة منه ، بدأت الجغرافيا الشعرية من الأفكار المحدودة داخل حدود الأغريق . ولقد أثبت الجغرافيون القدامى حقيقة هامة هى أن الأمم القديمة كانت عندما تهاجر تطلق أسماء بلادها الأصلية على الأراضى الجديدة مثل أسماء الأنهار والجبال والجزر ... ألخ لذلك نجد أن الأغريق أطلقوا اسم آسيا أو الهند على الشرق ، وعلى الغرب اسم أوروبا أو هيسبريا ، وعلى الشمال ثراقيا أو سكيثيا ، وعلى الجنوب ليبيا أو موريتانيا . والأسماء التى أُطلقت على هذا العالم الصغير أُطلقت فيما بعد على مناطق العالم لما لاحظه اليونان من تشابه بينها . وعندما انتشر الأغريق فى العالم ، من خلال رحلاتهم المختلفة ، نشروا معهم حكايات حرب طروادة وأسماء الأغريق والطرواديين ، وما يسرى على الجغرافيا الشعرية الأغريقية يسرى أيضا على الجغرافيا الشعرية عند الرومان . فالفتوحات الرومانية هى التى مدت اسم ايطاليا على ايطاليا المعروفة اليوم بأبعادها الحالية .

وتأكيداً لمبادىء هذه الجغرافيا الشعرية يدلل ڤيكو عليها بأن كثيراً من الأفكار والشخصيات الأغريقية انتقل إلى منطقة اللاتيوم ، وذلك طبقاً لمسلمته الأساسية أن هناك مستعمرة أغريقية على سواحل اللاتيوم . ويثبت تاسيتوس ذلك بأن الحروف اللاتينية هى نفسها الحروف الأغريقية المبكرة قبل تطورها . وهكذا انتقلت أسماء أبطال الأغريق مثل هرقل وايفاندر وأينياس .. ألخ إلى اللاتين الذين تبنوها واستبدلوا بها أسماء أبطالهم الأصليين . وهنا يذكر ڤيكو ملحوظة هامة عن عادات الشعوب ، وهى أن الشعوب فى عصور بربريتها تعتز بعاداتها وأبطالها ، ولكنها فى

حالة تمدنها تنسب نفسها إلى أصول أجنبية مثلما استبدل الرومان هرقل البطل الأغريقى باسم مؤسسهم الأصلى فيديوس *Fidius* .

تعقيب :-

حاول ڤيكو فى الحكمة الشعرية اثبات النشأة الشعرية للشعوب الأولى فاكد أن التاريخ بدأ بداية شعرية - كما بينا فى مطلع هذا الفصل - فكان الشعراء أول من تغنى بأحداث التاريخ . ولأن الحكمة الشعرية هى الأصل فى كل العلوم والفنون فقد اهتم ڤيكو بنشأة هذه العلوم . ولكن تطبيقه لقانون التطور لم يكن دقيقاً فى كل المواضع ، كما فى الفصول التى كتبها عن الفيزيقا والكونيات والفلك والتاريخ والجغرافيا ، إذ حشدها بتفاصيل كثيرة من الأساطير اليونانية والرومانية التى أضاعت المعالم الرئيسية لفكرته . وانصب اهتمام ڤيكو فى هذه الفصول على كيفية نشأة هذه العلوم نشأة دينية وهو ما يطابق المرحلة الأولى من مراحل تطور التاريخ ، ولم يهتم بتطبيق القانون على المرحلتين البطولية والبشرية بحيث يمكن القول بأن العلم الجديد علم لم يكتمل بعد ، وأن ڤيكو أسسه ووضع مبادئه وأرسى منهجه وترك للأجيال القادمة مهمة تطبيقه كل على حضارته .

وفى الجانب الآخر اهتم ڤيكو بتطبيق قانون التطور فى الفصول الخاصة بالميتافيزيقا والمنطق والأخلاق والاقتصاد والسياسة ، وقدم فصلاً جيداً عن المنطق الشعرى ، ووضع نظرية هامة وطريفة فى تطور اللغات والحروف أكدها بالتحليلات اللغوية للشعوب الأولى . وكما قدم تحليلاً لبنية الحياة الإجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع البشرى ، فقد قدم أيضا تحليلاً للصراع الطبقى الذى نشأت عنه المجتمعات البشرية الأولى ، وفى هذا سبق للماركسية كما سنرى فى الباب الأخير من هذا البحث .

وقد انتهى ڤيكو إلى أن الحكمة الشعرية كانت أساساً لكل العلوم والفنون ،

وأنها تطورت جنباً إلى جنب مع تطور المجتمعات وتطور العقل البشرى فبدأت بداية دينية ثم بطولية وانتهت إلى حكمة بشرية ألا وهى حكمة الفلاسفة . فالحكمة الشعبية قد بدأت – مع الشعراء اللاهوتيين الأول – بالأساطير والحكايات الخرافية . ومعنى هذا أنها لم تكن حكمة فلسفية كما انتهى إلى ذلك بعض الباحثين الذين مجدوها وارتفعوا بها فقالوا بالحكمة الفذة للقدماء . إذ أن الأمم الأولى (كما أكد ڤيكو وكما بينا فى هذا الفصل) صورت فى قصصها الخيالية وأساطيرها بدايات العلوم فى صورة خشنة وبلغة الحواس المباشرة إلى أن جاء العلماء بدراساتهم المتخصصة وتناولوا تلك الأساطير والحكايات تناولاً عقلياً . ومن هذا كله ننتهى إلى أن الشعراء اللاهوتيين كانوا يمثلون حواس الحكمة البشرية كما كان الفلاسفة يمثلون عقلها .(١)

هكذا كانت حكمة هوميروس التى اهتم بها فيكو اهتماماً خاصاً وأفرد لها كتاباً من كتب " العلم الجديد " حاول فيه اكتشاف حقيقة شخصية هوميروس التى اختلفت حولها آراء الباحثين . وسواء كانت هذه الشخصية حقيقة تاريخية أو أسطورية فانها عبرت عن الشخصية اليونانية أو هى مثال للعقلية اليونانية . ولذلك وصفه أفلاطون وأرسطو بأنه مؤسس المدنية الاغريقية محاولين اثبات أن حكمة هوميروس هي من قبيل الحكمة الفلسفية المستورة . وحاول ڤيكو أن يثبت خطأ هذا الرأى ويبرهن على رأيه بشواهد من ملحمتى هوميروس (الالياذة والأوذيسة) ليثبت أنه ليس فيلسوفاً وأن حكمته ليست من نوع الحكمة الفلسفية ولكنها حكمة شعرية لأنها فى الأصل حكمة شعبية مستمدة من البيئة اليونانية وما كان هوميروس إلا مترجماً لعادات وصفات هذه البيئة ، كما أن شعره شعر بطولى لأنه عاش فى عصر بطولى له صفات معينة ، لذلك جاءت الالياذة تحمل كل صفات المجتمع البطولى ممثلاً فى شخصية أخيل . وليست حكمة هوميروس بالحكمة الفلسفية كما يزعم أفلاطون

---

(1) Ibid; p. 241.

وأرسطو لأنه كان رجلاً بسيطاً من عامة الشعب وأشعاره لم يظهر فيها أى أثر للعقل . ويتضح هذا فى الألياذة حيث تتصرف شخصيات هوميروس مدفوعة بعواطفها ولا تفكر تفكيراً عقلانياً ، وهو بذلك يعبر عن صفات المجتمع اليونانى وأفراده فى ذلك الحين .

وكما يقول لونجينوس *Longinus*(١) - أحد الباحثين فى شخصية هوميروس - ان هومر ألف الألياذة فى شبابه عندما كان الأغريق مدفوعين بعواطفهم القوية ورغباتهم ، لذا جاءت الألياذة معبرة عن هذه الصفات فى شخصية أخيل الذى كان متقلب المزاج ، مثلماً حدث له عندما استقبل بريام الذى جاء ليفتدى جثة ابنه هيكتور فاستقبله أخيل فى خيمته على العشاء ، ولكن حين تفوه الأب الحزين بجملة صغيرة لم تعجب أخيل سرعان ما انقلب مزاجه ونسى تماماً القوانين المقدسة لحسن الضيافة ولم يشفق على رجل مسن حزين على ابنه فاندفع يهدده بقطع رأسه . ولم يغفر أخيل الأذى الذى لحقه من أجاممنون فراح يطلب الدمار لكل الأغريق على يد هيكتور ، ورفض الاشتراك فى حرب طروادة ولم يثنه عن قراره سوى مقتل صديقه ، هنا فقط استجاب لعواطفه الجياشة فقرر دخول الحرب للانتقام . أما الأوذيسة فقد ألفها هوميروس - كما يقول لونجينوس - فى شيخوخته عندما تطورت العقلية اليونانية ، فجاءت شخصية أوديسيوس معبرة عن هذه الصفات الجديدة ، إذ كان أخيل هو بطل الشجاعة والعنف والاندفاع وهى صفات البطولة وصفات الشباب أيضا ، وكان أوديسيوس بطل الحكمة البطولية وهى صفة الشيخوخة . ويبرهن ڤيكو على أن أشعار هوميروس تناولت عادات الشعوب الأغريقية ومنها بعض العادات الوحشية التى سادت هذه الشعوب البربرية مثل استعمال الأبطال للسهام السامة فى

---

(١) خطيب يونانى وفيلسوف من فلاسفة الأفلاطونية المحدثة من القرن الثالث الميلادى . ولد فى أثينا وصار مربياً فى بلاط الملكة زنوبيا فى تدمر وحكم عليه القيصر أوريليانوس بالموت سنة ٢٧٣م . ينسب إليه خطأ تأليف واحد من أهم الكتب القديمة فى النقد الفنى والجمال وهو كتاب " عن الجليل " الذى وضعه مؤلف مجهول من القرن الأول الميلادى .

الحروب (مثلما ذهب أوديسيوس الى *Ephyra* بحثاً عن أعشاب سامة) . من هذه العادات أيضا ترك جثث قتلى المعارك للنسور والوحوش . ويسخط بعض الباحثين على تشبيهات هوميروس التى تتسم بالفظاظة والوحشية ، ولكن ڤيكو يرى أن هذا كان ضرورياً لهوميروس لكى يفهم العامة المتوحشة الطباع . ومع ذلك فبلوغه مثل هذا النجاح لم يكن عن طريق رموز العقل المهذب والمتمدن أو بأى نوع من الفلسفة . بل كان أسلوب الوحشية الذى استعمله فى وصفه للمعارك الدامية والتطرف فى سفك الدماء مما كان سبباً فى سمو الألياذة على وجه الخصوص . وهذه الضراوة والوحشية والعنف واضطراب العواطف من صفات الطبيعة البطولية كما رأينا فى الحكمة الشعرية ، وهى صفات بشر لم تنضج قدراتهم العقلية بعد ، ولهذا ينكر ڤيكو على هوميروس أى نوع من الحكمة الفلسفية .

ثانياً : عودة مسار الأمم :

انتقلت الأمم فى العصور المبكرة من العصور الدينية إلى العصور البطولية ثم إلى العصور البشرية . وبذلك يكون ڤيكو قد طبق قانون التطور على الحقب التاريخية القديمة . والآن إلى أى حد نجح فى تطبيق هذا القانون على التنظيمات البشرية للأمم عند نهضتها من جديد وهو مايسميه بالمسار الثانى للشعوب الذى أفرد له آخر فصول العلم الجديد ليؤكد أن هناك تقابلاً بين العصور البربرية الأولى والعصور البربرية الثانية ؟ تعود الدورات التاريخية مرة أخرى بصورة أكثر تقدماً لتسير الشعوب فى نفس المسار . ولكنها لا تبدأ من نفس النقطة الأولى بل من نقطة أكثر تقدماً . فالتاريخ البشرى لا يعيد نفسه وإنما يسير دائماً نحو التقدم . وقد انتهى تطور الأمم فى الدورة التاريخية الأولى إلى العصر البشرى الذى كان يحمل فى ثناياه بذور فنائه ، لأن التطور فى هذا العصر انغمس في الترف واللذات والانحلال وضعف الإيمان بالأديان وفساد الحكومات ، وفى مثل هذه الظروف

تتعرض الأمم إما لغزو خارجي أو سيادة الفوضي والهمجية وتقع فريسة بربرية جديدة يرى ڤيكو أنها كانت أكثر ظلاماً من الأولى .

لقد وجهت العناية الإلهية – التى تعمل على خير الجنس البشري – التنظيمات البشرية للأمم ، ثم كشف الله – كما يقول ڤيكو – عن حقيقة الديانة المسيحية وسمح بميلاد نظام جديد كى تستقر الديانة الحقة طبقا للنظام الطبيعى للتنظيمات البشرية نفسها . وبهذا التدبيرالخالد عادت العصور الدينية التى كان فيها الملوك الكاثوليك حُماة للديانة المسيحية واحتفظوا بلقب الجلالة الملكية المقدسة . أسس الملوك المسيحيون الأول نظماً دينية عسكرية ضد الآريين والعرب المسلمين ومعارضى الديانة المسيحية . وعادت الحروب الدينية فكان الصليب يعلو تيجان الملوك الذين اتخذوا منه شعاراً فى حروبهم فأطلقوا عليها اسم الحروب الصليبية . ومثلما كان من شروط الاستسلام فى العصور البربرية الأولى أن يفقد المهزومون كل تنظيماتهم الدينية والدنيوية ، حدث أيضا أن تنازل المهزومون عن تنظيماتهم الإجتماعية للمنتصرين فى العصور البربرية الثانية .

فى هذه العصور عادت كل خصائص العصور الدينية الأولى ، فعادت اللغة الرمزية مرة أخرى ، وبدأت الشعوب البربرية ابتداء من القرن الخامس الميلادى تغمر أوربا وآسيا وأفريقيا (مثلما حدث مع سقوط الامبراطورية الرومانية) وحرصت الشعوب المنتصرة على ألا تفهمها الشعوب المهزومة فدونت وثائقها باللغة اللاتينية التى لا يفهمها إلا قلة قليلة من النبلاء هم فى نفس الوقت يمثلون رجال الكنيسة ، فلم توجد وثائق باللغة العامية مثلما حدث فى ايطاليا وفرنسا وأسبانيا والمانيا ، لذلك عادت اللغة الرمزية . فى هذه العصور المظلمة اتصلت الشعوب ببعضها البعض بلغة صامتة لقلة الحروف العامية وندرة استعمالها ، فكانت الرموز التى تؤكد الملكية وتحددها ، ووجدت رموز لكل أسرة تعنى حقوق السيادة على منازلهم ومقابرهم وحقولهم وقطيعهم .[1] وكانت هناك عودة لأعمال القرصنة التى تمثل شعار النبالة ،

(1) Vico; New Science; p. 352 - 353.

كما عادت الأحكام الدينية للعالم الأول ومنها المبارزات وأشكال الثأر والانتقام . كانت حروب العصور البربرية الثانية - كما كانت فى البربرية الأولى - حروباً من أجل الدين عادت معها المقدسات الأولى للعالم القديم التى من خلالها تأسست المدن . فعندما انتشر السلب والعنف والقتل - وهى أخلاق ذلك العصر - لم تقم للقوانين البشرية قائمة ، فكانت القوانين الإلهية هى الملاذ الوحيد طبقاً لمسلمة ڤيكو : " كلما توحش البشر نتيجة الحروب بينهم بحيث لا تقوم لقوانينهم قائمة فإن الوسيلة الوحيدة لترويضهم هى الدين " ومع سيادة أخلاق العنف والقوة والوحشية تسود حالة من الذعر والخوف فيلجأ البشر إلى آباء الكنيسة ليضعوا أنفسهم وأسرهم وميراثهم تحت حمايتهم . ومن هذا الخضوع وهذه الحماية تكونت العناصر الأساسية لمبادىء الاقطاع التى ظهرت فى العصر البطولى الذى تلا العصر الدينى .

يقابل ڤيكو بين العصر الهوميرى[1] الأغريقى والعصور الوسطى الأوربية فى الدورة التاريخية الثانية أو المسار الثانى للشعوب كما يسميه . وقد انقسم المجتمع فى ذلك العصر إلى طبقتين : النبلاء (وهم الذين كان يطلق عليهم لقب الأبطال في العصور القديمة) والأتباع ، وكان هذا التقسيم نتيجة التمييز بين طبيعتين متعارضتين : طبيعة بطولية وطبعة بشرية . ويستشهد ڤيكو بالاشتقاقات اللغوية لبعض الكلمات التى استخدمت فى هذا العصر ، فكلمة الأتباع أى *Homines* تعنى البشر . ويرجع أصل هذه الكلمة إلى لفظين استخدما فى ظل النظام الاقطاعى وهما *homagium & hominium* ولهما نفس المعنى ، فلفظ *hominium* يعادل *homi-nis dominum* أى ملكية البارون لأتباعه ، ولفظ *homagium* يعادل *dominis agium* أى حق البارون فى اصطحاب أتباعه حيثما كان ، وهذا اللفظ الأخير ترجم إلى اللغة اللاتينية بكلمة *obsequium* وتعنى الاخلاص والولاء الذى يقسمه الأتباع

---

(١) لا يقصد ڤيكو بالعصر الهوميرى الفترة الزمنية التى عاشها الشاعر الاغريقى هوميروس - والتى اختلفت حولها الآراء - بل يقصد الفترة الزمنية التى عاشها الشاعر فى وجدان الشعب الاغريقى يتغنى بأشعاره وهى الفترة التى تقدر من زمان الحرب الطروادية حتى عصر نوما .

للبارون ، وكانت نفس الكلمة عند الرومان القدماء تعنى الخدمة العسكرية التى يؤديها عامة الرومان فى الحروب لصالح النبلاء[١] . هكذا كان الحال فى العصر البطولى الأول حيث أسس روميلوس روما على نظام الاتباع عندما امتدت حمايته إلى الفلاحين الأجراء الذين لجئوا إليه ومنحهم اقطاعات ريفية ، فكان القانون الزراعى الأول الذى منح الاتباع جزءً من الأرض ليتكسبوا منها ثم القانون الزراعى الثانى الذى نص عليه قانون الألواح الأثنى عشر إلى أن تحولت الاقطاعات الريفية إلى اقطاعات مدنية[٢] . وقد كان من الطبيعى أن يعود المجتمع البشرى مرة أخرى إلى النظام الاقطاعى لما وُجد فيه من منافع ومكاسب تتطلبها الحياة المدنية ، فعاد إقطاع العالم الأول متخذاً بداية جديدة . ويستشهد ڤيكو مرة أخرى - مستعيناً بعلم اللغة والاشتقاقات اللغوية لأصول بعض الكلمات - على عودة النظام الاقطاعى فى الدورة البطولية الثانية مثل كلمة *Opera* وتعنى العمل اليومى للفلاح بدون أى حق فى المواطنة ، وكلمة *herd* اللاتينية وتعنى قطيع العمال أو قطيع الخدم حيث كان ينظر للاتباع على أنهم قطيع من البشر ، وكذلك كلمة *servitum* وتعنى خدمة ، فقد كان الأتباع ملزمين بخدمة مجد النبلاء [٣] (وقد أطلق على أمراء الاقطاع اسم نبلاء مثلما أطلق عليهم شعراء اليونان قديماً اسم الأبطال) بذلك عاد نظام العبيد[٤] فكلمة *Vassal* اكتسبت المعنى القديم لكلمة *Clienteles* وأقسم العبيد على خدمة النبلاء فى الحروب فكانوا يعتبرون أصدقاءهم وأعداءهم أصدقاء سيد الأرض وأعداءه ، وصاحب هذا عودة النبلاء إلى نظام سجن العبيد ، فمن يتخلف عن دفع الضرائب للنبيل يحق له سجنه أو عقابه .

---

(1) Vico; New Science; p. 355.

(٢) انظر السياسة الشعرية من هذا الفصل .

(3) Vico; New Science; p. 356 - 257.

(٤) أطلق فيكو على العبيد كلمة nexi بمعنى المربوطين بالأرض وهذه الكلمة تقابل Vassal أى الأتباع الذين كان يطلق عليهم اسم المقيدين Legati .

ومع العصر البطولي بكل ما [illegible] وهما الملكية المباشرة *dominium directum* والملكية النافعة *dominium utile* وهما يطابقان نوعى الملكية عند الرومان . فالنوع الأول وهو الملكية المباشرة يطابق نظام الـ *quiritary ownership* عند الرومان وهو ملكية الأبطال لاقطاعات مسلحة ، لأن الممالك البطولية كانت كهنوتية وللأبطال حق استقطاع أراضي معفاة من الضرائب والديون . والنوع الثانى وهو الملكية النافعة يطابق نظام *bonitary ownership* وهو نوع من الملكية يقوم على أساس الهبة أى أراضى ممنوحة للعامة ولا تتجاوز ملكيتهم ملكية المحاصيل كما سبق ذكر أنواع الملكية . ويستعين ڤيكو بفقه اللغة ليتعرف على العلاقة التى تربط السيد بالتابع – فى الدورة البطولية الثانية – من خلال الاشتقاقات اللغوية لكلمات ثلاث : وهى كلمة *directus* التى تؤكد أن حق التمليك كان يُعهد للعامة من المالك المباشر وهو السيد صاحب الأرض ، وكلمة *laudimia* وهى الضريبة أو المال الذى يدفعه التابع لسيده بعد أن أعطاه الأخير تصريحاً *Laudatio* بزراعة الأرض . وكان ذلك نوعاً من العرف يتم بالتراضى ، ولكن فى حالات أخرى كان لابد من الفصل فيها بالقرار القضائي ، وهو ما يؤكده استعمال كلمة *Lodo* التى كانت تعنى فى البداية القرار القضائي ثم أصبحت تعنى قرار الفصل فى نزاع معين .(1)

كان هناك عودة أيضا إلى القانون الرومانى فعاد ما يسمى فى التشريع الرومانى القديم بالـ *Cavissae* أى التحفظ والدقة الشديدة فى صياغة الكلمات – وهو ما سبق الحديث عنه فى الأنواع الثلاثة للتشريع – ثم أُختصرت هذه الكلمة إلى *caussae* وأطلق عليها فى العصر البطولى الجديد *Cautelae* من نفس الأصل اللاتينى ، وحذا أساتذة القانون فى العصور الوسطى الأوربية حذو الرومان فى التزام الدقة فى الصياغة القانونية للعقود والدعاوى والوصايا . وبلغ التشابه إلى حد التشابه فى الأخطاء التى وقع فيها كل من المشرعين الرومان القدماء وأساتذة

---

(1) Vico; New Science; p. 362 - 363.

القانون فى العصور الوسطى الأوربية . فقد غابت أصول القانون الرومانى عن أولئك المشرعين القدماء بعد أن اختفى التمييز بين أنواع الملكية المختلفة فى ظل الحريات الشعبية والملكية حتى أن المشرعين فى العصور المتأخرة لم ينتبهوا إليها ، فالعلماء المفسرون للقانون الرومانى فى عصر النزعة الإنسانية يصرون على انكار اعتراف القانون الرومانى القديم بنوعى الملكية المباشرة والنافعة ، وقد ضللهم اختلاف الأسماء كما أخفقوا فى فهم التشابه بين الأنظمة نفسها . كذلك غابت قوانين الاقطاع المبكرة عن أذهان أساتذة القانون فى العصر البربرى الثانى .(١) وفي هذا العصر الأخير عادت ملكية الأراضى بحق المواطنة بمقتضى قانون *Quirites* على نحو ما كان عليه الحال فى القانون الاقطاعى للعصر البربرى الأول حيث كان هذا النوع من الملكية يعنى ملكية النبلاء لإقطاعات مسلحة . كذلك كانت الأراضى الاقطاعية فى البربرية الجديدة تدعى " حقوق أصحاب الحراب " - فالنبلاء وحدهم هم السادة الملاك *auctores* - لتمييزهم عن أراضى أخرى تسمى "أراضى العبيد" ، وهى الأراضى التى استولى عليها العامة من السادة الأبطال فى عصر الحريات الشعبية . ومثلما كان مجلس الشيوخ فى العصر البربرى الأول يتألف من الأبطال ، كانت البرلمانات الأولى فى أوربا تتألف من البارونات والنبلاء والأمراء ، الملوك على رأس البرلمان والنبلاء وكلاء مفوضين عن الملك فى المجالس والمحاكمات القضائية كما يشهد بذلك تاريخ فرنسا .

ويعود ڤيكو مرة أخرى إلى نفى الرأى القائل ببراءة العصور الأولى فيقول أن علماء القانون المتأخرين استسلموا لهذا الرأى الزائف ، كما استسلم بعض فلاسفة السياسة لرأى أرسطو القائل بأن الأمم القديمة لم تكن لديها قوانين لمعاقبة جرائم الأشخاص . وقد وقع تاسيتوس قديماً فى هذا الخطأ فى الحوليات عندما ذكر أن البشر في الأمم القديمة السابقة على نشأة المدن كانوا يعيشون عيشة آدم فى حال

(1) Ibid; p. 318 - 363.

من البراءة المطلقة . وينفى ڤيكو هذا الرأى ويثبت خطأ السابقين لأن فعل القتل معروف منذ العصور المبكرة ولكنه لم يكن يعدّ جريمة إلا فى حالة قتل الآباء ، أما قتل العبيد فلا يعد جريمة . فالمجتمع فى هذه العصور الأولى ينقسم إلى : مواطنين (وهم الآباء أو الأبطال) وعبيد ، وكان قتل المواطن جريمة تسمى *Parricidium* أى قتل الأب ويعد فعلاً عدائياً موجهاً للوطن كله ، بينما قتل العبيد لا يعد جريمة ، فالعبد إما أن يُقتل من قِبل سيده وهذا ليس جريمة لأن العبد ملك لسيده وله عليه حق الموت ، وإما أن يُقتل العبد من قِبل شخص آخر ومثل هذه الحالة أيضا لا تعد جريمة بل يعوض سيده عنه لأنه مالكه . ويؤكد ڤيكو أن هذا مازال يحدث فى بعض البلدان فى العصور البربرية الثانية مثل بولندا ، ولاتوانيا ، والسويد والدانمارك . ولكن فى عصر الحريات الشعبية أصبح قتل الإنسان جريمة سواء أكان هذا الإنسان نبيلاً أو عبداً .

ويستمر ڤيكو فى بيان تشابه سمات العصور البطولية الأولى والثانية ، فكما كانت المبادىء الأبدية للنظام الاقطاعى وراء نشأة نظم الحكم فى الحكومات الأولى ، كما نشأ القانون الرومانى من النظام الاقطاعى الذى ساد فى أقليم لاتيوم ، كذلك نشأت أيضا نظم الحكم الملكية فى أوربا الحديثة من المبادىء الأبدية للنظام الاقطاعى ، فكانت القضايا الخاصة بالأراضى الاقطاعية تناقش فى البرلمانات ، ومن ثم نشأت العادات الاقطاعية - التي تعد من أقدم العادات فى أوربا - والتى تؤكد أن القانون الطبيعى للأمم نشأ عن تلك العادات البشرية التى سادت فى ظل النظام الاقطاعى . ولقد شاهد ڤيكو بنفسه أثراً من آثار البربرية الثانية ممثلاً فى المجلس المقدس لمدينة نابولى ، إذ كان رئيس هذا المجلس يلقب باسم الملك المقدس ، كما كان أعضاؤه جنوداً لأن النبلاء فى البربرية الثانية كانوا وحدهم الجنود المحاربين ، أما العامة فكانوا يخدمون فى الحروب على نحو ما كان يحدث فى البربرية الأولى سواء مما ذكره هوميروس أو ما نعرفه من التاريخ الرومانى القديم .

ومع نشأة المدارس والجامعات في ايطاليا وانتشار تعليم القانون الروماني وخاصة تلك القوانين التي احتوتها مدونة جوستنيان وقامت على القانون الطبيعي للبشر ، تهيأت العقول لقبول قانون المساواة الطبيعية الذي يجعل الشعب والنبلاء على السواء متساوين في الحقوق المدنية كما هم متساوون في الطبيعية البشرية . وكما حدث في البربرية الأولى عندما تسربت القوانين إلى العامة فانهارت سلطة النبلاء تدريجياً ، حدث نفس الشيء في ممالك أوروبا في العصور البربرية الثانية مع انتشار التعليم ودراسة القوانين في الجامعات ، فانتقل الحكم في هذه الممالك من الحكم الارستقراطي إلي الحكومات الشعبية الحرة لكي تنتهي أخيراً إلى النظم الملكية الكاملة وهما مرحلتا العصر البشري . وهذان الشكلان الأخيران من أشكال الدولة يسمحان بالانتقال من أحدهما إلى الآخر ، ولكن العودة من أحدهما إلى النظام الارستقراطي هو أمر مستحيل لا تسمح به الطبيعة البشرية المدنية . فعندما تصل الشعوب إلى نظم الحكم الشعبية الحرة ومنها إلي الملكية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ترتد مرة أخرى إلى النظام الارستقراطي ، وهذا ما أثبتته الشواهد التاريخية كما حدث مثلاً عندما ذبح ديون *Dion*[1] بطريقة بربرية حين حاول أن يعيد الارستقراطية مرة أخرى ، كذلك ما حدث للفيثاغوريين من اعدام وحرق بسبب محاولاتهم اعادة النظام الارستقراطي . ان العامة عندما يبلغ بهم الوعي إلى إدراك المساواة المدنية مع النبلاء يرفضون تماماً أن يكونوا دونهم في الحقوق ، ويرى ڤيكو أن بعض النظم الارستقراطية القليلة التي كانت لا تزال موجودة في عصره تضطر لبذل قصارى جهدها لارضاء العامة للمحافظة على هذا الوضع الطبقي .

ولابد أن نلاحظ هنا أن الزمن الذي عاش فيه ڤيكو كان عصر بشرية جديدة انتشرت بين كل الأمم ، وأن عدداً قليلاً من الملوك العظام كان يحكم عالم الشعوب ،

---

(١) *Dion* هو طاغية سيراقوزة وصهر الملك ديونيزيوس الأول والمعروف أنه تلميذ افلاطون وتحمس لفلسفته السياسية وحاول تحقيق جمهوريته الفاضلة في سيراقوزة . قُتل بعد محاولته غزو المدينة عام ٣٥٤ ق . م وقد ذكره افلاطون وأثنى عليه في رسالته السابعة وتحسر على موته (انظر تفصيل ذلك في كتاب المنقذ ، قراءة لقلب أفلاطون - مع النص الكامل للرسالة السابعة - للدكتور عبد الغفار مكاوي - القاهرة ، دار الهلال ، كتاب الهلال ، ١٩٨٧) .

وإذا كانت قد بقيت هناك بقية من الشعوب البربرية فمرجع ذلك إلى أن النظم الملكية لهذه الشعوب قد استمرت بفضل الحكمة الشعبية الكامنة فى ديانتها وبسبب طبائع شعوبها المضطربة غير المتوازنة . ومن أمثلة النظم التى عاصرها فيكو نجد النظام القيصرى فى روسيا الذى ظل يعيش فى المرحلة الدينية ، كذلك خان التتار الذي يحكم شعباً مخنثاً - كما يصفه فيكو - أو أنثوى الطبيعة ، وأيضا نجاشي الحبشة وملوك فارس ومراكش الأقوياء الذين يحكمون فى رأى فيكو شعوباً قبلية ضعيفة ومشتتة مازالت تعيش المرحلة الدينية . أما فى المناطق المعتدلة حيث تسود الطبائع المتوازنة فالأمر مختلف ، ففى الشرق الأقصى تعيش اليابان المرحلة البطولية حيث يمارس امبراطور اليابان حكماً عسكرياً قاسياً شبيهاً بحكم الرومان فى زمن الحرب القرطاجية . لذلك فما زالت اليابان تحتفظ بقدر كبير من طبيعة الحكم البطولى ، ويرجع فيكو سبب احتفاظ بعض الشعوب بالمرحلة البطولية إلى أن حكامهم لم يقتنعوا بأن لرعاياهم نفس طبيعتهم البشرية ونفس الحقوق المدنية . ولابد أن نشير هنا إلى أن المجتمعات البشرية كما يراها فيكو - لا تتقدم دفعة واحدة ولا تسير الأمم جميعها نحو التقدم فى آن واحد ، بل تمر كل أمة بمراحل التطور التاريخى منفصلة عن الأمم الأخرى ، فهل نستطيع أن نقول أن تحليل فيكو أو نظرته للمجتمعات البشرية المتنوعة يختلف عن نظرة فلاسفة عصر التنوير لفكرة تقدم الأمم ؟ هذا ما سوف نناقشه فى الباب الأخير من البحث ، ولكن نكتفى الآن بالقول أن فيكو قد أثبت أن بعض الأمم مازالت تعيش فى المرحلة الدينية وبعضها الآخر يعيش فى المرحلة البطولية فى الوقت الذى تعيش فيه أوروبا في المرحلة الإنسانية بفضل الديانة المسيحية ، وتتمتع بالنظم والحكومات الملكية التى تزدهر فيها العادات والتقاليد الإنسانية . فالفكرة النقية الكاملة عن الله - التى جاءت بها المسيحية - حثت على الإحسان والتسامح مع كل البشر ، كما أن شعوباً مثل السويد والدانمارك وبولندا وانجلترا تتمتع بالدستور والحكم الملكى الذى يرى فيه فيكو أفضل نظم الحكم . وفى هذا الجزء من العالم - أى أوروبا - توجد أيضا نظم الحكم الشعبية التى لا نظير لها فى العالم ، وقد بعثت فى ظل هذه النظم - وبحكم الضرورة

والمنفعة - الاتحادات والأحلاف التى قامت نظائرها قديما بين المدن الأغريقية لمواجهة خطر الفرس ثم الخطر الرومانى . بُعثت هذه الاتحادات والأحلاف بين الولايات والمدن الحرة المختلفة فى سويسرا والمانيا وهولندا ، وهى آخر شكل من أشكال الحكومات المدنية . ولكن هل تعد نظم الحكم الشعبية والنظم الملكية وحدهما آخر أشكال الحكومات ؟ يعتبر فيكو أن النظم الارستقراطية أيضا تمثل العصر البشرى ومن الممكن أن تكون هى آخر شكل من أشكال نظم الحكم . ويؤكد أنه إذا كان فى أوربا خمسة نظم ارستقراطية للحكم فقط ، كالتى توجد فى البندقية *Venice* وجنوه *Genoa* ولوكا *Lucca* فى ايطاليا وراجوسا *Ragusa* فى دالماتيا *Dalmatia* (شبه جزيرة البلقان) ونورمبرج *Nuremberg* فى المانيا ، إلا أن روح الإنسانية تتجلى فى كل ما يحقق سعادة الجسم والعقل بفضل الديانة المسيحية او الحقائق السامية التى تستوعب أنضج فلسفات الشعوب[1] .

وهناك بعض الشعوب التى كان من الممكن أن تسير في مسار التطور الطبيعى لو لم تعقها بعض العقبات التي حالت بينها وبين التطور . فإذا عبرنا المحيط للعالم الجديد رأينا أنه كان من الممكن للهنود الأمريكيين أن يسيروا فى المسار الطبيعى للشعوب لو لم يكتشفهم الأوروبيون . وقديما فشلت كل من المدن الثلاث قرطاجة *Carthage* [٢] ، كابوا *Capua* [٣] ونومانتا *Numantia* [٤] - وهى

---

(1) Vico; New Science; p. 372.

(٢) قرطاجة : مستعمرة أسسها الفينيقيون من أهل صور حوالى القرن التاسع قبل الميلاد بالقرب من تونس الحالية ، دخلت فى حرب مع روما من أجل السيطرة على جزيرة صقلية لموقعها الاستراتيجى وامتد الصراع مئة عام على ثلاث مراحل : الحرب البونية الأولى (٢٦٤ - ٢٤١ ق . م) كانت حرب انهاك للطرفين لم تسفر نصراً . الحرب البونية الثانية (٢١٨ - ٢٠١ ق . م) انتهت بزوال سيادة قرطاجة - وكانت قرطاجة بقيادة هانيبال Hannibal القائد القرطاجى . الحرب البونية الثالثة (١٤٩ - ١٤٦ ق . م) انتهت فيها قرطاجة تماما .

(٣) Capua مدينة فى منطقة كامبانيا الايطالية ، أسسها الاتروسيكون فى القرن السابع ق . م واتحدت مع روما ٣٤٠ ق . م ضد السامنيين وسقطت فى الحرب البونية الثانية ثم عاد الرومان وفتحوها عام ٢١١ ق . م خرجت منها ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس وضربها الفنداليون وهم احدى القبائل الجرمانية عام ٤٥٦م .

(٤) Numantia مدينة اسبانية فى منطقة قشطالة كانت منذ عام ١٥٤ ق . م مركز لثورة التحرير من القهر الرومانى ، وقد أخمد اسكبيو Scipio القائد الرومانى الثورة الشعبية فيها وضرب المدينة عام ١٣٣ ق . م .

المدن التى تصدت للتوسع الرومانى - فشلت فى تحقيق هذا المسار للنظم البشرية . فالقرطاجيون قد عاقهم عن ذلك عنفهم الفطرى ، وأهالى كابوا منعهم اعتدال المناخ والخصوبة المعروفة عن منطقة كابوا ، أما أهالى نومانتيا فسحقهم القهر الرومانى على يد اسكبيو . ولم يقدم ڤيكو تبريراً مقنعاً أو علمياً لاخفاق هذه المدن فى تحقيق المسار الطبيعى للشعوب ، بل لم يوضح الأسباب التى ذكرها توضيحاً كافياً لجعل هذه الأسباب معقولة ومفهومة . ولكنه اهتم ببيان أن الرومان لم تعقهم مثل هذه العقبات فتابعوا مسار التطور تهديهم العناية الإلهية من خلال الحكمة الشعبية ، ومروا بالأشكال الثلاثة للحكومات المدنية وانتقلوا إلى كل شكل منها بصورة طبيعية . فكانت المرحلة الدينية فى عصر تأليه آباء الأسر ، والمرحلة البطولية فى عصر الأبطال عندما نشب الصراع بينهم وبين العامة فنشأت الحكومات الارستقراطية التى احتفظ بها الرومان حتى صدور قوانين بابليان وباتليان ، ومُنح العامة نفس حقوق الأبطال المدنية فكانت الحكومات الشعبية الحرة التى بقيت حتى عصر أغسطس فعادت الحكومة الملكية التى تمسك بها الرومان حتى انهار هذا النظام بفعل الأسباب الداخلية والخارجية التى حطمته ، وسقطت روما بعد الغزو البربرى للامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى فنشأ عصر بربرى جديد وعادت الدورات التاريخية تسير مسارها من جديد ، فتمثلت المرحلة الدينية فى العصر المسيحى كما أوضحنا فى بداية هذا الفصل ، ثم العصر البطولى فى العصور الوسطى الأوربية الذى تميز بعودة النظام الاقطاعى والحكومات الارستقراطية وأخلاق الفروسية والبسالة والولاء والطاعة إلى أن كانت المرحلة البشرية .

واستشهاد ڤيكو بالتاريخ اليونانى والرومانى - كما يؤكد بنفسه - ليس الهدف منه سرد التاريخ الخاص لهذه الشعوب وعاداتها وتقاليدها وقوانينها ، ولكن الهدف هو إلقاء الضوء على التاريخ المثالى الذى يعبر عن القوانين الأبدية التى تحكم أعمال جميع الأمم والتى ستظل تحكم كل تواريخ الشعوب فى نشأتها وتطورها

ونضجها ثم انحلالها وتدهورها وسقوطها . فهناك جوهر واحد وراء تنوع وتطور أشكال الحكومات هو القانون المثالى الذى يحكم أعمال البشر وتاريخ الأمم إلى أبد الآبدين . هذا القانون المثالى الأبدى يحكم مسار الشعوب منذ بداية نشأتها ونمو نظم الحكم فيها وتطورها حتى تبلغ ذروة نضجها . وعندما تنغمس فى الترف يكون انحلالها وتدهورها وفسادها فتنهار النظم الحرة وتعم الفوضى . وهى مرحلة تتردى فيها الشعوب وتسقط فى هاوية الانانية . عند ئذ تتدخل العناية الإلهية التى تعمل دائماً على خير الجنس البشرى - بإحدى وسائلها الثلاث لانقاذ مسار الشعوب : **أولاً** : ترتب العناية الإلهية ظهور رجل قوى من أفراد الشعب ينصب نفسه ملكاً ويجمع فى يده كل التنظيمات والقوانين بقوة السلاح ويضع حداً للفوضى ويؤسس الملكية . وينحصر دور الملك في تحقيق العدالة والمساواة الطبيعية بين الناس وضمان حرية الدين ، مثلما فعل أغسطس مؤسس الملكية فى روما . **ثانياً** : إذا تعذر ظهور رجل قوى فى الداخل تبحث العناية الإلهية عن العلاج فى الخارج بغزو من شعب أفضل وأقوى يستولى على هذه الشعوب بقوة السلاح ، لأنه عندما تصل الشعوب إلى مرحلة الترف تقع فريسة رذائل كثيرة كالجشع والبخل والحسد والغرور والتخنث ، وتقرر العناية الإلهية أنهم أصبحوا عبيداً لشهواتهم فيصبحون خاضعين لأمم أفضل وأقوى منهم فتحتهم بقوة السلاح وجعلتهم ولايات خاضعة لهم . وهنا يؤكد ڤيكو حقيقتين : أ - أن من لم يستطع أن يحكم نفسه بنفسه فعليه أن يسلم زمام أموره لمن هو أقدر منه على الحكم . ب - أن العالم لا يحكمه إلا الأصلح والأكفأ بحكم طبيعته . **ثالثاً** : إذا تعفنت نظم الحكم المدنية وتغلغل الفساد فى هذه الشعوب فلم تستطع أن تتفق على ملك يحكمها من الداخل ولم يتفق لها أن يغزوها شعب أفضل من الخارج تلجأ العناية الإلهية - فى هذه الحالة القصوى - إلى دوائها الأخير وهو الفناء . فأمثال هذه الشعوب قد انحدر بها الترف إلى هاوية الميوعة والطراوة أو بالأحرى إلى الغرور الذى يبلغ أقصى درجاته ، فتثور الشعوب وتندفع

بغضب وعنف لأقل الأسباب ، ويعيش الناس كالوحوش المفترسة متوحدين فى أعماقهم رغم تزاحمهم . وتتردى الشعوب فى هاوية الفردية بحيث لا يعود أحد يفكر إلا فى مصلحته الخاصة ولا يكاد اثنان يتفقان على شيء لأن كلا منهم لا يتبع إلا شهواته . لهذه الأسباب جميعاً تقضى العناية الإلهية بأن تسقط هذه الشعوب فريسة الحروب الأهلية وأن يحيلوا مدنهم إلى غابات ثم يجعلوا من الغابات كهوفاً وجحوراً يلجأون إليها . ويقع المجتمع البشرى فريسة بربرية جديدة أفظع وأقسى من بربرية الحواس ، لأنها بربرية ذوى عقول ماكرة وخبيثة . حقاً كان البشر فى البربرية الأولى متوحشين ولكن توحشهم كان أكثر شهامة وكرماً .. أما فى ظل البربرية الجديدة فإن الناس تحيا فى ظل وحشية حقيرة منحطة يكيد فيها الفرد لأقرب أصدقائه تحت ستار الكلمات والقبلات الناعمة . عندئذ تطبق العناية الإلهية دواءها الأخير بأن تفنى الوحوش الشريرة بعضها البعض ، وتبقى قلة من البشر يعيشون فى وفرة من الضروريات اللازمة للحياة ، وتصبح هذه القلة اجتماعية وترتد إلى البساطة الأولى وتتكفل العناية الإلهية بأن تعيد إليهم قيم الورع والتقوى والصدق والأخلاص وهى الأسس الطبيعية للعدالة ، كما تنعم عليهم بمختلف أنواع النعم والجمال الذي يتصف به النظام الإلهى .[١]

تعقيب :-

بنهاية الباب الثانى نكون قد استعرضنا فلسفة التاريخ عند ڤيكو بكل ما تشمله من أصول ومبادىء ومنهج . وقد رأينا كيف استخلص قانون تطور الأمم من خلال دراسته للحضارة اليونانية والرومانية القديمة ، وهو قانون الأحوال الثلاثة لتطور الأمم بشكل دورى حلزونى . فالتاريخ لا يعيد نفسه بل يأتى دائماً بجديد . ولعل الفكرة المحورية التى قامت عليها فلسفة التاريخ عند ڤيكو هى أن الإنسان صانع تاريخه ، ونستطيع أن نقول أنه بهذه الفكرة وضع بذور فلسفة العمل .

(1) Vico; New Science; p. 380 - 381.

فالإنسان لا يعرف إلا ما يصنع ، وهى نفس الفكرة التى تقوم عليها نظريته فى المعرفة ، وهى أن المعرفة تساوى العمل . وهى كذلك الفكرة التى عارض بها ديكارت كما أسلفنا القول . فالمجتمع البشرى بكل ما فيه من نظم من صنع البشر أنفسهم ، وبهذا يختلف ڤيكو عن أصحاب النظريات العقلية فى نشأة النظم وطبيعتها ، ويؤكد أنها من وضع بشر كانوا أشبه بالوحوش الآدمية ثم وصلوا إلى بشريتهم عن طريق تأسيس هذه النظم . من هنا يجب الاهتمام بالأصول الواقعية لهذه النظم التى كانت السبب فى أن تصبح المخلوقات البشرية بشراً حقيقيين ، بينما يهتم أصحاب النظريات العقلية بتأكيد دور العقل ويبدأون من الإنسان الناضج المفكر بعقله .

وعندما يرجع ڤيكو بالتاريخ إلى بداياته مع بشر صنعوا نظمهم الإجتماعية بأنفسهم ، نستطيع أن نقول أن هناك مقابلة بين ڤيكو وأرسطو فى تصورهما النشوئى عن الطبيعة والإنسان . فهذا الأخير حيوان يصبح إنساناً عندما يعيش فى المدينة . وهذا يقابل عند ڤيكو عالم الطبيعة وعالم البشر لأن حيوانات العالم الأول تصبح بشراً فى عالم الأمم وبفضله ، أى أن ڤيكو لا يختلف عن أرسطو الذى يوحد بين طبيعة الشىء وغايته عندما يتطور وينضج . فطبيعة نشأة الأمم عند ڤيكو تقابل تصور أرسطو الغائى عن نشأة دولة المدينة التى تنشأ من الحاجات الحيوية الأولية . وعلى هذا فالإنسان مدنى بطبعه ، ولكن موضع الخلاف بينهما هو أن ڤيكو يقول بالعناية الإلهية التى وجهت البشر عن طريق عاداتهم البسيطة وانفعالاتهم الطبيعية لحفظ الجنس البشرى ، إلا أن البشر صنعوا عالم الأمم وبنوه دون أن يعرفوا خطة العناية الإلهية الكامنة وراءه ، لذا استثنى ڤيكو التراث العبرى والمسيحى من دائرة علمه الجديد لتدخل العناية الإلهية فيه تدخلاً مباشراً عبرت فيه عن نفسها فى أعمال تاريخية خاصة وفريدة . ويميز ڤيكو بين هذه العناية الأخيرة وبين العناية الإلهية الكامنة في التاريخ والتى وجهت البشر بطريق غير مباشر للخروج من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية الإنسانية ، فهنا لا تتعارض العناية الإلهية مع فاعلية البشر فى

صنع التنظيمات البشرية ، بل تركت الأمم تصنع تاريخها بنفسها من خلال عاداتها وتنظيماتها الإجتماعية ، وبذلك لم يقدم ڤيكو تاريخاً لاهوتياً كنسياً بل قدم تاريخاً واقعياً مستنداً على الآثار والمأثورات الشعبية والمخلفات والفنون التى تركتها الشعوب الأولى .

بيد أن هناك سؤالاً يطرح نفسه : هل نجح ڤيكو في تطبيق قانون التطور على الأمم عند نهضتها مرة أخرى من جديد ؟ لقد قدم ڤيكو دراسة مستفيضة لأصول المجتمع البشرى من منظور الحضارة اليونانية والرومانية ، وقام بتحليل دقيق للمجتمعات البشرية الأولى مستنداً إلى البحث فى أصول التنظيمات الإجتماعية البشرية والأساطير القديمة للشعوب وما ينطوى عليه البحث فى أصول اللغات من كشف عن عادات هذه الشعوب وتقاليدها . ولكنه لم يبحث الدورة التاريخية الثانية بمثل هذه الدقة فتناولها تناولاً سريعاً ، بل جانبه الصواب أحياناً فى حكمه على نفسية الشعوب . ويبدو أنه اعتمد على تقارير الرحالة والمبشرين فلم تخل أحكامه على بعض الشعوب من تعميمات باطلة مثل قوله هذا شعب بطبيعته كسول .. وهذا شعب مخنث .. ومع ذلك فهو يعد رائداً لعلم نفس الشعوب الذي تطور فيما بعد وأصبح علماً مستقلاً على يدى ڤلهلم ڤونت *W. Wundt* لذلك لا نستطيع أن نقول أن ڤيكو وفق تماماً فى تطبيق قانون التطور على المسار الثانى للأمم ، وربما يكون مرجع ذلك إلى أن هذه الفترة التاريخية معروفة ومدونة . لذا اهتم اهتماماً خاصاً بالمسار الأول للأمم لإلقاء الضوء على هذه الحقبة التاريخية التى يكتنفها الغموض بسبب نقص الوثائق وبالتالى فهى تاريخ غير مدون . ويكفى ڤيكو أنه وضع الأسس النظرية والمبادىء النظرية التى يهتدى بها الباحثون فى علم التاريخ . وعلى الأجيال التالية مهمة التطبيق ، فقد تصور ڤيكو العلم الجديد فى شكل نموذج مثالى كامل فى فكرته . ولكنه لم يطبقه كما قلنا بصورة كاملة ، بل آكد أنه علم قابل للتطور ومتروك للأجيال والعصور التالية أن تطوره وتلائم بين كشوفها وملاحظاتها التى

ستستجد فى عالم الأمم وبين قوانين هذا النموذج ، ولهذا فالعلم الجديد كامل من حيث مبادئه وعلى الباحثين فى المستقبل أن يستكملوه كما اعترف ڤيكو نفسه بذلك .

يؤكد ڤيكو فى أكثر من موضع من العلم الجديد أن نظم الحكم الملكية هى أكمل أشكال الحكم وأنه إذا سارت الأمم فى مسار التطور الطبيعى وبلغت المرحلة البشرية وقامت نظم الحكم الشعبية فلابدٌ أن تفسد هذه النظم الحرة كما أوضحنا وبهذا ينتهى المسار الطبيعى للتطور فى رأيه إلى النظم الملكية .. !! وهنا يجب أن نشير إلى أن ڤيكو عاش فى ظل حكومة ملكية فى نابولى .. وبالتالى فهناك أحد احتمالين : إما أن النظام الملكى في نابولى كان عادلاً وحكيماً فى عصر ڤيكو فجعله يؤمن به ايماناً لا يحيد عنه .. أو أن هذا النظام الملكى كان قاسياً ومستبداً فجاء رأى ڤيكو هذا خشية بطش ملوك نابولى الظالمين .

هكذا نكون قد قدمنا التصور الكامل للتاريخ عند ڤيكو مع تطبيقاته فى مختلف التنظيمات البشرية من تنظيمات سياسية واقتصادية ولغة وقانون وشعر ... ألخ ويتعين علينا الآن أن نلقى نظرة نقد وتحليل وتقييم لهذه المادة الكثيفة من خلال نظرية المعرفة التاريخية ، وأن نفحص الأسس النظرية للنسق العلمى للتاريخ عنده ونتناول بشىء من التفصيل نظريته فى المعرفة التاريخية ونظريته عن التاريخ المثالى الأبدى التى تعد فى نظر الكثير من الباحثين هى النسق العلمى أو البناء النظرى القبلى الذى يقوم عليه التاريخ البشرى . وبعد أن ننتهى من هذا النقد والتحليل أو التقييم نختتم البحث بالقاء نظرة على تأثير ڤيكو على فلسفة التاريخ وفلاسفتها سواء فى عصره أو فى العصور التالية ، مكتفين بأبرز معالم هذا التأثير وأهم الفلاسفة الذين يحتمل أن يكون قد تأثروا به وخصوصاً أولئك الذين قالوا بخضوع التاريخ لقوانين تحدد مساره .

الباب الثالث

المعرفة التاريخية وأثرها

الفصــــل الأول

نظرية المعرفة التاريخية

الفصـــل الأول

" نظرية المعرفة التاريخية "

اولاً : مبدا المعرفة :-

كان القرن السابع عشر هو عصر المذاهب الفلسفية الكبرى . فقد وقف معظم فلاسفة هذه المذاهب موقفاً نقدياً من فلاسفة الماضى رافضين الدخول معهم فى حوار حقيقى ، إذ يبدو أن الثقة بالمعرفة الجديدة جعلت كلاً من الفلاسفة والعلماء على السواء يقللون من شأن المعرفة القديمة . أضف إلى هذا أن المذاهب العقلية ألتى سادت فى هذا القرن لم تملك القدرة على فهم المادة التاريخية بحيث يمكن القول بأنه عصر لا تاريخى ، وباختفاء الوعى التاريخى لدى فلاسفة هذا القرن بدأ الصدع فى الفكر الحديث .. انهارت المعرفة القديمة ، وأقيمت مذاهب فكرية عقلية شامخة .. بينما نجد المهتمين بالتاريخ بعيدين عن فكرة المذهب ورافضين لها .. هكذا بدأ هذا الصراع الكبير بين المعرفة التاريخية والمعرفة المذهبية ، وهو يدل على عجز هذه المذاهب الجديدة عن استيعاب المعرفة التاريخية أو الاحساس بها فى تفردها ونوعيتها وحيويتها . ومع ذلك فإن ميدان التاريخ يتسع ويمتد ويزداد ثراء ، وتنمو المعرفة التاريخية وتبقى كالظل المصاحب للفكر المذهبى الذى يسير فى طريقه ويتوصل إلى معارف جديدة ويبنى مذاهب شامخة .

ومع مجىء القرن الثامن عشر تأتى دلالة محاولة ڤيكو فى علمه الجديد عن الطبيعة المشتركة للأمم . فهو في جوهره محاولة لوضع مذهب تاريخى شامخ ، لا هو مجرد تصنيف تأريخى ، ولا هو مجرد إدراج للمعرفة التاريخية تحت التاريخ الدينى المقدس ، وإنما يريد أن يقدم صورة تاريخ مثالى خالد تسير طبقاً له تواريخ كل الأمم فى الزمان ، ومهمة هذا المسار أن يعرف الشعوب في أصولها وتقدمها

وازدهارها وسقوطها ، وأن يتتبع المسار التاريخى من البربرية إلى الحضارة . والمهم أنه ينظر إلى التاريخ على أنه هو تاريخ الإنسان وتاريخ عقلنا البشرى ، وبهذا يعرف الضرورة التاريخية التى بمقتضاها كان من المحتم أن يحدث شىء فى الماضى ومن المحتم أن يحدث شىء فى الحاضر والمستقبل . وقبل أن نتحدث عن طبيعة المعرفة التاريخية عند ڤيكو نود أن نقف أولاً عند تصوره للمعرفة بوجه عام .

وضع ڤيكو مبدأً جديداً للمعرفة لمعارضة النزعة العقلية الديكارتية وأتباعها الذين نظروا إلى التاريخ كمجموعة من الحقائق المضطربة وسلسلة من الحكايات السخيفة – وهاجم الأسس الثلاثة التى استند إليها ديكارت . فقد عارض الكوجيتو الشهير كمبدأ لليقين ، ورأى أن الفعل الإنسانى لا الوعى الذاتى هو مبدأ اليقين فى علم التاريخ ، ونقد أدلة وجود الله التى تستند إلى معرفة أولية سابقة على التجربة وعدّ هذا تطاولاً على الذات الإلهية ، كما عارض اليقين الرياضى كمعيار للوضوح والبداهة وبالتالى كمعيار للحقيقة[١] . ومن هذه المعارضة للنزعة العقلية قدم ڤيكو نظرية فى المعرفة تقوم على مذهبه فى الحقيقة، وهى أن الحق والفعل مترادفان *Verum et Factum Convertuntur* فالشرط الضرورى لمعرفة أى شىء معرفة حقيقية هو أن يكون العارف قد صنعه بنفسه ويكون لديه اليقين بهذا المعنى لا بالمعنى الديكارتى .. " اخلقوا الحقيقة التى تريدون معرفتها . أما أنا فسوف أقوم أثناء التعرف على الحقيقة بصنعها بطريقة لا تدع مجالاً للشك فيها مادمت أنا الذى أنتجتها بنفسى "[٢] ومعنى هذا أننا بإزاء موقف مختلف عن موقف الفلسفة الديكارتية تمام الاختلاف ، إذ أن التاريخ يتألف من أعمال تصلح أن تكون موضوعاً للمعرفة البشرية أكثر من أى موضوع سواه ، فالمعرفة إذن مرادفة للصنع ، والإنسان يعرف حقائق الأشياء عندما يشارك فى صنعها بنفسه بحيث تصبح قابلة

---

(١) انظر موقف ڤيكو من الفلسفة الديكارتية " الفصل الأول " " الباب الأول " .

(2) Vico; On the study Methods of our time; p. XXXi.

للمعرفة ، فالعقل يشارك بفاعليته فى تكوين الأشياء ، ومعنى هذا أن الحقيقة تبلغ مرتبة اليقين عندما يرويها من صنعها بنفسه . السؤال الآن ما المقصود أن الحقيقة هى ذاتها الشىء الذى يتم فعله ؟ حاول رسل أن يجيب على هذا السؤال بقوله لو اختبرنا هذا المبدأ غير التقليدى عن كثب لاستخلصنا منه بعض النتائج الصحيحة كل الصحة على المستوى الابستمولوجى (المعرفى) . ذلك لأن من الصحيح أن الفعل يمكن أن يساعدنا على تحسين معرفتنا ، ولا جدال فى أن أداء فعل ما بطريقة ذكية يزيد من فهم المرء له . وواضح أن هذا يحدث على أوضح نحو ممكن فى ميدان الفعل أو الجهد البشرى . ان ڤيكو لا يجعل من الإنسان مقياساً للأشياء جميعاً بالمعنى السفسطائي ، بل أن ما يؤكده هو العنصر الفعال الذى يعيد تركيب الوقائع فى عملية المعرفة ، وهو شىء مختلف كل الاختلاف عن اتخاذ ما يبدو لكل شخص معياراً نهائياً . ومن جهة أخرى فإن تأكيد الفاعلية يتعارض بشدة مع الأفكار الواضحة المتميزة عند العقليين . فعلى حين أن المذهب العقلى يتباعد عن الخيال على أساس أن هذا الأخير مصدر للاضطراب والخلط ، فإن ڤيكو على عكس ذلك يؤكد دوره فى عملية الكشف . وهو يرى أننا قبل أن نصل إلى تصورات أو مفاهيم ، نفكر فى إطار مواقف أقرب إلى الغموض وانعدام التحدد .(١)

ونلاحظ فى نظرية ڤيكو للمعرفة جانبين : الذاتية والموضوعية أو العقلانية والتجريبية ، بمعنى أن هناك نوعاً من الجدل بين الفكر والواقع . فالإنسان يوجد تنظيماته الإجتماعية ، ومن خلال تفكيره فى هذه التنظيمات تنبثق تجارب جديدة بتنظيمات جديدة ، فتأكيد الذات البشرية مسألة أساسية لأنها هى الذات التى صنعت التاريخ ، وإذا كانت صورة التاريخ هى التاريخ المثالى الأبدى فإن مادته من صنع الإنسان . التاريخ إذن ابداع إنسانى خالص ، فقد خلق الله الطبيعة وترك للإنسان الحرية ليعيد صنع العالم التاريخى . بهذا المبدأ يؤكد ڤيكو - ربما لأول مرة فى

---

(١) رسل ، برتراند ، حكمة الغرب ، ترجمة د . فؤاد زكريا ، جـ ٢ ص ٩٧ - ٩٩ .

تاريخ الفلسفة الغربية – مذهب صنع الإنسان لنفسه ويضعه داخل إطار أشمل يبين بصورة قبلية الحدود التى يمكن أن يتم فيها هذا الصنع ، فهذه الحدود قد عينتها العناية الإلهية من قبل ، كما تحددها أيضا حقيقة أن التنظيمات الإجتماعية وتطور المعرفة كلاهما عملية تبدأ بالإحساس (فى الحالة الطبيعية) وتنتقل إلى الخيال (كما فى الحالة الشعرية) وتنتهى إلى العقل (وهى الحالة البشرية) فالإنسان إذن ليس مجرد نتاج حتمى للطبيعة ، ولكن له حرية صنع نفسه من خلال صنع التنظيمات وتجديدها . والنتائج المترتبة على مذهب ڤيكو فى صنع الإنسان لنفسه بصورة متجددة هى تأكيد الجانب الذاتى والجانب الموضوعى أو الأبدى الذي يتم فى اطاره هذا الصنع أو هذا الابداع البشرى المتجدد . وفهم الإنسان لذاته وهو يستعيد العملية التاريخية هو نوع من صنع الذات . وبالرغم من الاختلافات الفردية بين الأفراد والنظم والمجتمعات ، فإن العقل الذى يكمن وراءها عقل مشترك يعبر عن طبيعة بشرية واحدة مشتركة ، ولولا ذلك ما استطاع عقل انسانى آخر من حضارة أخرى ومجتمع آخر أن يشارك فيه بالفهم أو أن يتواصل معه ، فهناك طبيعة مشتركة وحس مشترك بين البشر . والبشر عندما يدرسون الظواهر التاريخية المختلفة من عادات وتقاليد ولغة وفن ودين وقانون وأساطير وشعر ، فهم فى الواقع يعيدون اكتشاف أنفسهم كما يتعرفون من جديدعلى امكانيات طبيعتهم البشرية المختلفة ، وهذا نوع من معرفة الذات بل هى فى الحقيقة من صنع الذات . ولكن وحدة الطبيعة البشرية التى تسمح بالتواصل بين الأفراد والأمم كما تسمح للمؤرخ أن يتواصل مع الظواهر التاريخية المتنوعة لا تعنى أن الطبيعة البشرية الواحدة هى طبيعة محددة للأبد . فالواقع أن ڤيكو يؤكد دائماً أن الظواهر التاريخية قابلة للتغير والتطور والتنوع ، وهذا يفسح مجالاً للحرية الإنسانية كما يسمح بتفرد الأمم والأفراد وتميزهم ، ويتضح هذا إذا نظرنا إلى موضوعات الشعر من حب وحزن وفرح ... ألخ التى هى موضوعات خالدة ، لكن كل قصيدة تعبر عن هذا المعنى تعبيراً مختلفاً عن

الأخرى فكل قصيدة هى نوعية متفردة . فالبرغم من إيمان ڤيكو بوحدة الطبيعة البشرية فهو يؤكد إمكانية التغير والتجدد داخل كل دورة تاريخية ، ودراسة التاريخ تعلم الجنس البشرى كيف يصبح إنسانياً وذلك بأن يحيا من جديد المراحل التى عبرتها البشرية حتى وصلت المرحلة التى أمكن فيها القيام بدراسة التاريخ ، فدراسة التاريخ هى عمل من الأعمال التى يصنع فيها العقل نفسه .(١)

وخلاصة نظرية المعرفة عند ڤيكو أن العقل يعرف نفسه من خلال دراسة الأشكال التى يظهر فيها ، فيظهرمثلاً فى التنظيمات الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والفن والقانون واللغة .. ألخ أى يتجلى فى كل مظاهر الحضارة ، وبهذا يعد ڤيكو أول من قدم نظرية تاريخية عن حقيقة التغير من خلال تفسيره للتاريخ باعتباره عملية عقلية منظمة خلاقة . فمن خلال التاريخ الذى يتألف من أحداث ووقائع ومؤسسات إجتماعية تعبر عن أحوال العقل يصبح هذا العقل نفسه موضوعاً للمعرفة . وهنا تكمن المشكلة الرئيسية فى الدراسات التاريخية ، إذ كيف تكون الذات العارفة هى نفسها موضوعاً للمعرفة ؟ أو بمعنى آخر كيف يمكن لصانع العلم أن يكون هو نفسه موضوعاً للعلم ؟ للإجابة على هذا لابد أن نطرق مشكلة أخرى شغلت المفكرين والفلاسفة وتبلورت فى السؤال الآتى : هل التاريخ علم ؟

ثانياً : علم التاريخ :-

هل التاريخ علم ؟ سؤال أثار الكثير من الجدل واختلفت حوله آراء الفلاسفة على مر العصور بين مؤيد ومعارض ، والبعض يرى أنه ليس بعلم بل هو درب من دروب الفن . فهناك علاقة جدلية بين الفن والتاريخ باعتبار الأول مصدراً هاماً من مصادر المعرفة التاريخية ، ويساعد المؤرخ على كشف الحالة الوجدانية للعصور التاريخية المختلفة ، فمما لاشك فيه أن الأشكال التعبيرية المتنوعة للإبداع الفنى

---

(1) Rubinoff, Lionel; Vico and Verification of Historical Interpretation; in Vico and Contemporary Thought; p. 94 - 121.

تعين المؤرخ على إعادة تصوير الماضى وبعث روحه من جديد ، خاصة بعد أن اتسع مفهوم التاريخ فلم يعد مقصوراً على سير الأبطال والمعارك الحربية ، بل يشمل الجوانب الحضارية المختلفة والمتعددة للانجازات البشرية ، وبالتالى تعددت مصادر المعرفة التاريخية فلجأ المؤرخ إلى أشكال الإبداع الفنى المتنوعة ليجد مادة تاريخية خصبة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الإنسان هو الموضوع المشترك بين الفن والتاريخ باعتباره مبدعاً للفن وأيضا صانعاً لأحداث التاريخ ، مما جعل رجال الأدب يذهبون إلى أن التاريخ سواء أكان علماً أو غير علم فهو بلا ريب فن من الفنون ، وأن العلم بالغاً ما بلغ لا يعطينا من التاريخ سوى العظام اليابسة ، وأنه لا مندوحة من خيال الشاعر إذا أُريد نشر تلك العظام وبعث الحياة فيها[1] . وعلى العكس من هذا الرأى يرى بيرى أن التاريخ قد عانى من كونه جزءاً من الأدب بينما التاريخ علم لا أكثر ولا أقل ، وأن وقائعه يمكن أن تدرس موضوعياً كوقائع الجيولوجيا والفلك ، أى أن تدرس علي أنها أشياء خارج الذات ، إذ لا يتسنى قيام علم على أساس ذاتى، والوقائع التاريخية يمكن أن تجمع وتصنف وتفسر كما هو الحال فى أى علم . والسؤال الآن : إذا كان التاريخ علماً فمن أى أنواع العلوم يعتبر التاريخ ؟ أنه ليس كالفلك علم معاينة مباشرة ، ولا الكيمياء علم تجربة واختبار ، ولكنه علم نقد وتحقيق وأقرب العلوم الطبيعية شبهاً به الجيولوجيا ، فكما أن الجيولوجى يدرس الأرض كما هى الآن ليعرف كيف صارت إلى حالتها الحاضرة ، فكذلك المؤرخ يدرس الاثار المتخلفة عن الماضى ليفسر بواسطتها ويقدر إمكانه ظاهرة الحاضر . وكما أن الجيولوجى يجد مادته الأساسية في نفايات الطبيعة ليثبت التطورات الجيولوجية ، فكذلك المؤرخ يعتمد فى معرفة الوقائع الماضية على آثار مادية أو سجلات أو تقاليد سلمت مصادفة أو اتفاقاً من عوادى الزمن . هذه الآثار والسجلات والتقاليد هى الحقائق المحسوسة الحاضرة التى ينصب عليها عمل المؤرخ . وهى مادة علمه و ليست قيمة وهامة لذاتها ولكن لمجرد دلالتها على الوقائع الماضية .[2]

---

(١) هرنشو ، علم التاريخ ، ترجمة . عبد الحميد العبادى ، ص ٣ - ٤ .

(٢) المرجع السابق . ص ١١ - ١٢ .

هكذا اختلفت الآراء حول ماهية التاريخ .. هل هو فرع من فروع العلم ؟ أم هو فرع من فروع الأدب ؟ وظل السؤال والجدل حوله قائماً حتى كان القرن الثامن عشر وأحرزت العلوم الطبيعية تقدماً كبيراً وانعكس المنهج التجريبى على الدراسات التاريخية . ولكن هناك فريق من الباحثين عارض هذا المنهج ورأى أن التاريخ فرع خاص من فروع المعرفة وبالتالى فمنهجه يختلف تماماً عن منهج العلوم الطبيعية ، فهذا الأخير عالم تسوده الحتمية والاستاتيكية بينما التاريخ هو عالم الحرية والحركة والديناميكية . ولا يتسع المجال هنا لتتبع آراء المفكرين والفلاسفة عن علم التاريخ ، ولكن ما يهمنا في هذا البحث : هل أراد ڤيكو للتاريخ أن يكون علماً على نسق العلوم الطبيعية ؟ وإلي أى حد استطاع أن يحقق هذا ؟ نعم .. أراد ڤيكو أن يجعل من العلم الجديد علماً بشرياً على نمط العلوم الطبيعية ، وعالج الظواهر البشرية معالجة علمية عندما تناول الوثائق التاريخية بالتحليل والنقد ، وكأنه أراد للعلم الجديد أن يؤكد فكرتين أساسيتين : الأولى : أن معرفتنا لعالم الظواهر البشرية يمكن أن تكون دقيقة وعلمية تماماً كمعرفتنا لظواهر العالم الطبيعى . الثانية : أنه علم بشرى يقوم على المعرفة التجريبية السابقة لما هو بشرى مما يجعل منتجاته أكثر قابلية للفهم والتعقل من أى علم طبيعى .

هاتان الفكرتان تبدوان متعارضتين ، لذا اختلفت الآراء حول تفسيرهما فذهب بعض الباحثين إلى اعتبار أن قيمة ڤيكو الحقيقية تكمن فى افتراض أن معرفتنا للشئون البشرية من الممكن استنتاجها علمياً مما نتج عن ذلك التفسير الوضعى لمذهبه مع تجاهل هؤلاء الباحثين قيام " العلم الجديد " على المعرفة السابقة أى معرفة الماضى باعتباره ظاهرة لن تتكرر ولن تخضع للتجربة . وذهب فريق آخر من الباحثين إلى اعتبار أن قيمة مذهب ڤيكو تكمن فى إدراكه دور المعرفة السابقة في بناء معرفتنا بالشئون البشرية وكان ذلك هو التفسير المثالى . وكلا التفسيرين أخذا على ڤيكو قوله أنه من الممكن أن يكون الإنسان موضوعاً للعلم التجريبى . وقبل

أن نكشف عن هذا التعارض ، لابد أن نعرض لمفهوم العلم عند ڤيكو لاسيما أنه يأخذ مفهوم العلم عن أرسطو فيردد قوله بأن العلم يتعلق بما هو كلى عام وضرورى أبدى ، كما يؤكد أن العلم الجديد يتضمن تطبيق مفهوم الكلية والضرورة . وقد عرض فى المسلمات من الخامسة إلى الخامسة عشر من أصول العلم الجديد - عرض الجوانب الأساسية لمفهوم الإنسان ككائن تاريخى إجتماعى ، وهى تجعلنا ننظر لعالم الأمم من ناحية الفكرة الأبدية التى يقوم عليها مصداقاً لما يقوم عليه العلم الأرسطي . لذا يرى ڤيكو أن اخفاق المؤرخين الأول فى أعمالهم يرجع لعدم اعتمادهم على التصور الفلسفى الصحيح للإنسان ، وأنهم لو كانوا فعلوا هذا لسبقوه فى اكتشاف العلم الجديد . وأكد ڤيكو علمية التاريخ فى إطلاق لفظ العلم على أهم مؤلفاته وكرره فى الطبعات الثلاث للكتاب .

السؤال الآن ما دور المعرفة التجريبية السابقة (أى المعرفة بالماضى) فى العلم البشرى ؟ من المعروف أن الماضى لا يمكن أن يكون موضوعاً تجريبياً مثل الموضوعات التى تتناولها العلوم التجريبية ، فهل معنى هذا أن معرفة الماضى - أى المعرفة التاريخية - يستحيل أن تكون معرفة علمية كما تصور بعض شراح ڤيكو ؟ ثم كيف تصور ڤيكو أن المعرفة بالأحداث السابقة يمكن أن تكون علماً ؟ لابد من الاشارة إلى أن العلم الجديد يعتمد على نوع محدد من الصنع البشرى ، وأن معرفتنا بهذا الصنع تنطوى على المعرفة بتحولات العقل - كما أشرنا من قبل - وهى معرفة يحققها الإنسان عن طريق نوع من التأمل الذاتى . وإذا كان ڤيكو قد أخذ على الفلاسفة السابقين أنهم اهتموا بدراسة العالم الطبيعى على الرغم من أن معرفة هذا العالم لا تتيسر إلا لله وحده لأنه هو الذى خلقه ، فقد أخذ عليهم كذلك أنهم أهملوا دراسة العالم الإنسانى الذي يستطيع البشر أن يعرفوه لأنهم هم الذين صنعوه . ولابد أن نقف الآن عند ما يقصده بالصنع البشرى الذى يمكن أن يؤخذ على معنيين : فالبشر يصنعون تاريخهم من خلال أنشطة وتنظيمات وقوانين ... إلى

آخر ما يكّون مضمون عالمهم التاريخى ، أما المعنى الثانى فيقصد به أن المؤرخين من البشر هم الذين يضعون تقريرات تاريخية عن الماضى . ومن الواضح أننا إذا تحدثنا عن الصنع فى العلوم الطبيعية فلابد أن يكون بالمعنى الثانى الذى يشبه عمل المؤرخ لأن العالِم في العلوم الطبيعية لا يخلق الظواهر الطبيعية نفسها وإنما يوجد مفاهيم العلم ونظرياته ومناهجه . وهكذا نصل إلى ما أكده ڤيكو من قبل وهو استحالة معرفة العالم الطبيعى لأن الله هو الذي خلقه على حين أن معرفة العالم البشرى ممكنة لأن الإنسان هو الذى صنع محتوياته . ولهذا يستطيع البشر أن يفهموا العالم الذى صنعوه بأنفسهم لأن المبادىء التى قام عليها يمكن اعادة اكتشافها فى داخل العقل البشرى ، أى فى نطاق التحولات التى تعرض لعقل من يتأمل ذلك التاريخ الماضى ، ولكن ماذا يقصد ڤيكو بهذه التحولات ؟ أنها تتمثل أولاً فى المبادىء الثلاثة الأساسية التى يقوم عليها تنظيم أى مجتمع بشرى وهى الدين والزواج ودفن الموتى ، وثانياً فى سلسلة المراحل التى يمر بها تطور العقل البشرى من الخيال والشعر إلى مرحلة التفكير العقلى . وهذا التتابع ضرورى فى نشأة كل مرحلة من سابقتها ونشأة المرحلة التابعة لها . والإلمام بهذه التحولات يساعدنا على معرفة الضرورة فى التاريخ البشرى ، فالمعرفة التى يتيحها العلم الجديد تقوم على المعرفة السابقة لهذه التحولات فى تطورها التاريخى .

هنا يجب أن نذكر نقطة ثالثة لا تقل أهمية عما سبق وهى أننا نتعرف على هذه التحولات عن طريق التأمل الذاتى[1] ، وهو منهج ڤيكو فى دراسة التاريخ ويعتمد على الاستبطان كشكل من أشكال التفكير . ولكن الاستبطان عنده ليس بالمعنى المفهوم فى التحليل النفسى ، وإنما هو استبطان للذات التاريخية ، أى عملية اعادة بناء نقدى للفكر الماضى . ولكى يتأتى هذا لابد من الاستعانة بعلم اللغة للوصول إلى

(1) Pompa, Leon; Human Nature and the Concept of a Human Science; in Vico and Contemporary Thought; p. 94 - 121.

اليقين ثم تحويل هذا اليقين إلى حقائق ومعرفة عن طريق التفكير الفلسفى .[١] هكذا نرى أن اعادة البناء التاريخى هى بمثابة اكتشاف لتحولات العقل البشرى التى لابد للمؤرخ أن يتمثلها ليعيد بناء موضوع المعرفة باعادة اكتشاف الذات التاريخية ، فهناك تواصل بين الحاضر والماضى يصنعه المؤرخ بخياله الخلاق . والمؤرخ عندما يعيد بناء الماضى ، أى يقدم تقريراً تاريخياً عنه ، هو فى الواقع يمارس نوعاً من معرفة ذاته التاريخية كبشر أو كإنسان أثناء تعرفه على ما صنعته ذوات بشرية أخرى فى الماضى . وليس معنى هذا أن المسألة أصبحت مسألة ذاتية ، بل معناه أن ذات المؤرخ تحاول أن تفهم أسباب تطور الطبيعة البشرية ومراحل تطورها علي نحو ما توجد هذه الطبيعة فينا وبقدر مانستطيع فهمها . وفهمنا لتطور الطبيعة البشرية أو بالأحرى لضرورة تطورها على نحو معين نتيجة لظروف وأسباب محددة هو جزء مما هو بشرى ، كما جاء فى المسلمتين رقم ١٤ و١٥ وفيهما يؤكد فيكو نشأة التنظيمات الاجتماعية نشأة طبيعية فطرية ، وأن طبيعة هذه التنظيمات وخصائصها ترجع إلى أسلوب نشأتها ومولدها وزمن هذه النشأة وظروفها . وينتهى فيكو إلى أن ما يصنع الطبيعة البشرية هو سيرها بصورة ضرورية فى مراحل تطور محددة عبرتها كل أمة ، وعندما يستعيد المؤرخ هذه المراحل يستعيد القانون الضرورى الذى كون الطبيعة البشرية نفسها ، وإعادة بنائه للأحداث السابقة ومعرفته بها ليست معرفة ذاتية لأنه يتعرف على الطبيعة البشرية نفسها التى هو جزء منها ويملك القدرة على فهمها . وهو فى النهاية يعرف القوانين الضرورية التى كان لابد أن يمر بها تطور الطبيعة البشرية ، أى أنه فى النهاية يعرف ما سماه فيكو بالتاريخ المثالى الأبدى الذى يعبر عن مبادىء تطور الأمم فى نشأتها وتطورها ونضجها ثم تدهورها وسقوطها . وهذا التاريخ هو بمثابة نسق نظرى أو نظرية للمعرفة التاريخية ، ولكن ما ماهية هذه النظرية ؟ هل هى نظرية استقرائية على طريقة بيكون ؟ أم هى نظرية

(١) انظر الجزء الخاص بالمنهج – الباب الأول .

استنباطية على طريقة ديكارت ؟ وما هو مضمون هذه النظرية من الناحية الاجتماعية والتاريخية ؟ هذا هو الذى سنعرض له الآن .

ثالثاً : التاريخ المثالى الأبدى :-

أثار التاريخ المثالى الأبدى العديد من المشكلات وفُسر تفسيرات مختلفة . فما المقصود به على وجه التحديد ؟ هل يقصد به الطابع النظرى للتاريخ والأساس الفلسفي الذي يرتكز عليه ؟ وهل يعنى هذا أنه استنبطه من الواقع التاريخى بجوانبه المختلفة ؟ أم أنه قد بدأ ببناء هذا التاريخ المثالى بناءاً نظرياً أو قبلياً - إذا شئنا استخدام تعبير كانط - ثم حاول بعد ذلك أن يطبقه علي الواقع ؟ ويزيد الأمر صعوبة أن ڤيكو يؤيد منذ البداية المنهج الاستقرائي الذى اتبعه بيكون ودعا إليه ، فكيف نوفق بين تأييده للمنهج الاستقرائى وبين التاريخ المثالى الذى يوحى لأول وهلة أنه ذو طابع نظرى أو استنباطى ، وهل جمع ڤيكو بين المنهجين معاً بحيث يتكاملان فى رؤيته العلمية للتاريخ ؟

علينا الآن أن نبدأ مناقشتنا لهذه المسائل فنبين أن ڤيكو أكد الطابع النظرى لعلمه الجديد ، وأنه أراد أن يجعل التاريخ المثالى الأبدى جزءاً لا يتجزأ من هذا العلم . ويتضح الجانب النظرى فى " العلم الجديد " عندما تلقى نظرة على مسلماته وخاصة مسلمة رقم (٢٢) التى قسمت فيها المسلمات العامة إلى مجموعتين : فالمجموعة الأولى من ٥ إلى١٥ تتناول النظريات الفلسفية . ولو راجعنا هذه المسلمات لوجدنا أنها تنظر لعالم الأمم نظرة فكرية مثالية تعتمد على مفهوم العلم كما أخذه ڤيكو عن أرسطو ، وهو أنه علم يتعلق بما هو كلى وأبدى . والمجموعة الثانية تضم المسلمات من ١٦ إلى ٢٢ وهى مسلمات تمدنا بأسس الحق واليقين على حد تعبير ڤيكو ، وتساعدنا على أن نرى هذا العالم فى الواقع بعد أن درسناه بالفكر . وفى هذا محاولة لتطبيق المنهج الاستقرائى الذي استخدمه بيكون ونقله من الظواهر

الطبيعية إلى التنظيمات البشرية . ويؤكد هذا ما يقوله ڤيكو نفسه عند مناقشته للعلاقة بين قضايا الفلسفة وقضايا فقه اللغة ، فالقضايا الأخيرة تساعدنا على أن نرى في الواقع المنظمات التي تأملناها من قبل تأملاً فكرياً وفقاً لمنهج بيكون في التفلسف وهو الذي يعبر عنه في هذه العبارة فكر وانظر . واشارة ڤيكو إلى هذه العبارة تدل على أنه يؤكد الجانب النظري من منهج بيكون الاستقرائي ، بجانب أنها لا تنكر الطابع النظري الاستنباطي للتاريخ المثالي الأبدي ، غير أن هذا التاريخ يظل أمراً غامضاً لم يتضح بعد بدرجة كافية ، فهل يقصد ڤيكو من فكرة عالم الأمم - كما جاءت في العبارة السابقة - أن يشير إلى نظرياته العامة عن الطبيعة التاريخية والاجتماعية للإنسان ، أم أراد أن يشير إلى قوانين تاريخية اجتماعية استقرأها من الواقع التاريخي ؟ ويظل الأمر محيراً فهل نفهم من اشارة ڤيكو إلى فكرة عالم الأمم أنه يبدأ بتحديد الجانب النظري أو القبلي الذي يضم مبادىء التاريخ وقوانينه ونظام حركته ثم يؤيدها بالنظر في الواقع ، أم أنه يفعل العكس فيستخلص القوانين التاريخية والإجتماعية التي تتحكم في حركة مسار التاريخ من النظر في الواقع نفسه ؟ وباختصار هل هو استنباطي أم استقرائي ؟ لابد أن نرجع إلى مفهوم ڤيكو عن المنهج لكي نحاول أن نحسم هذه المسألة ونشير إلى هذه العبارة " إن علمنا الجديد في بحثه عن طبائع التنظيمات البشرية ينطلق من التحليل الدقيق للأفكار البشرية عن الضروريات البشرية أو منافع الحياة الإجتماعية ، وهما المنبعان الدائمان للقانون الطبيعي للأمم الأممية ، بهذا يكون علمنا في جانبه الثاني المهم هو تاريخ الأفكار البشرية " .(١)

ومع أن ڤيكو لم يبين على وجه التحديد إن كان التحليل الذي يقصده هو التحليل الاستقرائي أو الاستنباطي لكن يبدو أنه يقصد المعنى الثاني عندما يؤكد - في فقرة تالية للفقرة السابقة - ما يسميه أسلوب النقد الميتافيزيقي الذي يقدمه علمه

(1) Vico; N. S; par. 347.

الجديد : " لكى نحدد أزمان وأماكن مثل هذا التاريخ - أى متى وأين نشأت هذه الأفكار البشرية - لابد أن نثبت جغرافيتها وتاريخها وبذلك نضفى عليه اليقين عن طريق ما يمكن أن يسمى بالتاريخ والجغرافيا الميتافيزيقية . ان علمنا الجديد يقدم نوعاً من النقد الميتافيزيقى يتناول به مؤسسى الشعوب الأولى الذين سبقوا الكتابة التاريخية بألف سنة على الأقل ، والمعيار الذى يستخدمه نقدنا هو المعيار الذى علمته العناية الإلهية ، وهو معيار مشترك بين كل الأمم ، وهو الحس المشترك بين جميع أفراد الجنس البشرى " .(١) ان فكرة النقد الميتافيزيقى فكرة لا غنى عنها فى منهج فيكو ، فهذا النقد هو الذى يتناول الظروف أو الشروط التى تحدد نظام تطور الأفكار البشرية ، ولعله قد أوضح هذا فى تقديمه لفكرة الكتاب ونكتفى بأن نذكر منها هذا الجزء " يمكننا أن نشير إلى أننا فى هذا الكتاب نلجأ إلى منهج نقدى كان مفتقداً فيما سبق لكى يساعدنا على بحث حقيقة مؤسسى هذه الأمم الأممية ، وبهذا تأخذ الفلسفة على عاتقها دراسة فقه اللغة بدقة (المقصود بفقه اللغة هو نظرية عن جميع التنظيمات التى تعتمد على الاختيار البشرى مثل جميع تواريخ لغات وعادات البشر فى الحرب والسلام) وقد كانت الفلسفة تفزع من تناول فقه اللغة بهذه الطريقة وذلك لغموض الأسباب وتنوع النتائج تنوعاً لا نهائياً ، وبهذا ترده إلى شكل من أشكال العلم عن طريق اكتشافها فيه خطة تاريخ مثالى أبدى مر به فى الزمان تاريخ جميع الأمم ، فبفضل المبادىء الجديدة لعلم الأساطيرالتى كشفنا عنها فى هذا الكتاب فاعتبرناها نتائج لمبادىء جديدة للشعر (التى كشفنا عنها هنا أيضا) بينا أن الأساطير كانت تواريخ حقيقية وموثوقا بها عن عادات وتقاليد أقدم شعوب اليونان . فى المقام الأول كانت أساطير الآلهة تواريخ للأزمان التى اعتقد فيها بشر من البشرية الأممية الموغلة فى الهمجية ، أن جميع التنظيمات الضرورية للجنس البشرى كانت عبارة عن آلهة . وأصحاب هذا الشعر كانوا هم البشر الأوائل الذين

(1) Ibid; par. 348.

أسسوا الأمم الأممية عن طريق أساطير الآلهة . وهنا وبواسطة مبادىء هذا النقد الجديد أمكننا أن نتأمل الأزمنة المحددة والظروف الخاصة التى شعر البشر بضرورتها ومنفعتها وخصوصاً أولئك البشر الأوائل من العالم الأممى " .

وواضح من هذا النص أن ڤيكو يقدم منهجاً نقدياً جديداً يحول فقه اللغة - بالمعنى الواسع الذى وضحه فى النص - إلى علم ، فهذا النقد الجديد يكتشف الأسباب والنتائج التى كانت غامضة ولم تستطع الفلسفة من قبل أن تكشف عنها ، كما أن هذا النقد سيضع هذه الأسباب والنتائج فى صورة تاريخ مثالى أبدى مرت به خلال الزمان تواريخ جميع الأمم ، أى أن الفلسفة ستجعل من فقه اللغة علماً عندما تزوده بمعرفة أسباب التغير التاريخى فى شكل تاريخ مثالى خالد . والجزء الثانى من النص يقدم أمثلة من تطبيق هذا النقد الميتافيزيقى الذي اكتشف ڤيكو بفضله مبادىء علم الأساطير بحيث أوضح أن أساطير الآلهة قد نتجت عن أسلوب فى التفكير جعل البشر يصورون أفكارهم عن الضرورات والمنافع البشرية فى صورة إلهية ، كما أوضح أن هذه الأساطير عن الآلهة والأبطال لم تكن فى الواقع إلا تواريخ حقيقية عن الأبطال أنفسهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وهى شواهد تاريخية تعبر عن القانون الطبيعى للأمم .

والخلاصة أن فقه اللغة يصبح علمياً عندما تفسر الشواهد التاريخية على ضوء نظريات عامة عن مبادىء وأسباب هذه الشواهد ، وفى نفس الوقت تتضمن هذه النظريات التسليم بأن هذه الشواهد نفسها هى نتاج كائن تاريخى واجتماعى معين ، وتعبير عن أفكاره وتصوراته عن الضرورات والحاجات والمنافع ، أى تعبير عن طبيعة بشرية مشتركة بين أفراد الجنس البشرى وخاضعة لقوانين ومبادىء محددة بلورها فى التاريخ المثالى الأبدى .[١]

(1) Pompa, Leon; A study of the New Science; p. 197 - 111.

وعلى الرغم من أن نصوص ڤيكو لا تسمح لنا ببيان موقف محدد يمكن أن نصفه بأنه استنباطي من ناحية او استقرائي من ناحية أخرى ، فيمكن أن نقول أن التاريخ المثالي الأبدى هو نظرية عن الأسباب المحددة لأنواع محددة من الظواهر البشرية . انها من ناحية نتيجة تفكير فلسفي أو عقلاني بدأ بتقديم الأصول والمسلمات والمبادىء ثم نظر في تاريخ البشر الفعلي لتفسيره على ضوئها ، ولكنها من ناحية أخرى لا تهمل النظر في الشواهد التاريخية والاجتماعية ولا تبتعد عن الظواهر العينية بكل ما فيها من تنوع وثراء وتطور . والواقع أننا لا ننصف ڤيكو إذا وصفنا هذا التاريخ بأنه تاريخ فكرى أو نظرى مستنبط على الطريقة الديكارتية التحليلية أو الهندسية ، أو وصفناه من ناحية أخرى بأنه استقرائي قائم على فحص لغوى - بالمعنى الواسع لهذه الكلمات كما ذكرنا من قبل وبقدر ما أتاحت ظروف تطور العلم في عصر ڤيكو - وذلك طبقاً لمنهج بيكون ، وهناك باحثون يؤيدون الرأى الأول مؤكدين أن هذا التاريخ المثالي الفكرى هو بناء نظرى قبلي تأثر فيه بديكارت على الرغم مما صرح به من معارضته لنظرية المعرفة عند ديكارت ولأفكاره الواضحة المتميزة . وهنالك باحثون آخرون يؤكدون أنه اعتمد على منهج بيكون ونقله - كما قلنا - من الظواهر الطبيعية إلى الظواهر البشرية وإن كان قد أكد الجانب النظرى في الاستقراء ربما أكثر مما فعل بيكون نفسه . ويكفي أن نتذكر أن ڤيكو قدم لعلمه الجديد مجموعة من المسلمات التي حللناها في الفصول السابقة فكان بذلك ديكارتياً أو هندسياً بغير شك . كما يكفي أيضا أن نرجع إلى النصوص العديدة التي تكشف عن طبيعة نظرية المعرفة عنده وتؤكد باستمرار أن الإنسان لا يعرف إلا ما يصنع وأن الواقع الفعلي للتاريخ البشرى لا يغيب عنه لحظة واحدة . ان حسم هذه المسألة أمر عسير . ويكفي أن نستشهد أخيراً بالنص المشهور الذى ذكره في المنهج عندما قارن بين علم الهندسة وعلم التاريخ وبين فيه أن الهندسة أيضا يمكن أن تكون علماً انشائياً خلاقاً ، وأن هندسته للتاريخ البشرى في صورة التاريخ المثالي الأبدى أكثر

واقعية من علم الهندسة لأننا نتعامل مع أمور بشرية أكثر واقعية من النقط والخطوط والسطوح والأشكال . " يصور علمنا الجديد التاريخ المثالي الأبدى عبر الزمان ، وهو الذى تسير بمقتضاه تواريخ كل الشعوب ، نشأتها ثم تطورها ونضوجها وتدهورها وأخيراً سقوطها " . والمبدأ الأول الثابت يفترض أن الإنسان بالتأكيد هو الذي صنع عالم الأمم ، والتاريخ يكون أكثر يقيناً عندما يرويه صانع الأحداث نفسها ، وهكذا ينطبق على هذا العلم ما ينطبق على علم الهندسة - وهو أنه يقوم على أساس ما وضعه من مبادىء - ولكن التاريخ بمفهوم العلم الجديد أكثر واقعية من علم الهندسة لأن التنظيمات الإجتماعية والأحداث الإنسانية أكثر واقعية من النقط والخطوط والسطوح والأشكال ، وهذا يقوم على نظرية فيكو فى المعرفة الخلاقة التى تقوم على الخلق والإيجاد والصنع لا المعرفة التى تقوم على التحليل والنظر . ولعل بيان المضمون الاجتماعي والتاريخى للتاريخ المثالى الأبدى أن يكون أهم بكثير من الادلاء برأى نهائى فى موقف ڤيكو الذى يتسم بنوع من الازدواجية .

تنطوى نظرية التاريخ المثالى على التأكيد بأن الإنسان محدد من الناحيتين : الإجتماعية والتاريخية ، فلابد أن يكون هذا التاريخ الأبدى ذا بعدين ، البعد التجريبى الذي يتضمن نظام العلاقات الاجتماعية التى يشترط وجودها فى أى عصر تاريخى ، والبعد النظرى الذى يتضمن نظرية القوانين التاريخية التى يقوم عليها تطور ذلك المضمون التجريبى . بهذا لا يفصل ڤيكو الجانب التجريبى عن الجانب الميتافيزيقى . ومع أن هذه مسألة شائكة وغامضة فقد يمكن أن نوضحها قليلاً إذا رجعنا إلى تلخيص ڤيكو نفسه لمضمون التاريخ المثالى الأبدى كما قدمه فى الكتاب الرابع تحت عنوان مسار الأمم ، حيث نجده يقدم المقولات الميتافيزيقية أو الشروط والمبادىء غير التجريبية التى يقوم عليها هذا المسار . وهو يبدأ بذكر النظريات التاريخية عن الطبائع الثلاث التى تمر بمقتضاها كل أمة بثلاث مراحل متميزة من التطور : " سوف نرى أن الأمم تتطور وفقاً لهذا التقسيم (أى إلى

عصور الآلهة والأبطال والبشر) عن طريق تسلسل ثابت ومتصل للأسباب والنتائج موجود عند كل أمة من خلال ثلاثة أنواع من الطبيعة البشرية وما يتبعها من عادات ثلاث ، وبفضل هذه العادات نلاحظ ثلاثة أنواع مختلفة من القانون الطبيعي للأمم وما يتبع هذا القانون من تنظيم المراحل المدنية ، فكانت الحكومات الثلاث وما يقابلها من لغات ثلاث ، وتشكلت ثلاثة أنواع من الرموز ، كما كانت هناك ثلاثة أنواع من التشريع والسلطة والعقل والأحكام ."[1] إذا تأملنا هذا النص وجدنا أن ڤيكو يميز بين نموذجين أو نظامين مختلفين ؛ فهو في العبارة الأولى من النص يشير إلى نظام تكشف عنه ثلاثة أنواع من الطبيعة البشرية المتحققة في تواريخ كل الأمم ، وهذا النظام بطبيعة الحال هو نظام تاريخي أو تطوري *genetic* ويصفه ڤيكو بأنه نظام سببي أو عِليّ يؤكد شرطاً ميتافيزيقياً وهو أن الماضي البشري محدد بشروط تاريخية . وإذا تأملنا بقية الفقرة السابقة وجدنا أن ڤيكو يشير إلى جانبين من نظام ذي طبيعة مختلفة عن النظام السابق ، فهناك سلسلة من العلاقات الإجتماعية القائمة بين أنواع مختلفة من التنظيمات في أي مجتمع ، وهنا يؤكد الأساس الميتافيزيقي لنظريته عن الشروط الإجتماعية التي تحدد وجود الإنسان ، فالعادات والتقاليد التي يمارسها البشر هي الأصل في التنظيمات الاجتماعية ، وهذه الممارسات تكشف عن نوع معين من القانون الطبيعي . ومن طبيعة هذا القانون أن يتحدد عن طريق الحس المشترك ، أي عن طريق الضرورة والمنفعة التي يحس بها البشر. وهكذا يتوسع ڤيكو في النظرية التي عرضها في الأصول فيذهب مثلاً إلى أن طبيعة الدولة نتيجة مترتبة على طبيعة القانون الطبيعي . كما أن مفهومه عن التنظيمات البشرية يتسع فيستوعب أبعادا جديدة من التنظيم البشري بحيث يشمل اللغة والكتابة والتشريع والسلطة والأحكام والعقل .

أما الجانب الثاني من هذا النظام فهو يؤكد أن أنواع التنظيمات البشرية

---
(1) Vico; N. S; par. 915.

المختلفة لابد أن تنشأ عن الطبيعة البشرية ، وهو فى هذا السياق يشير إلى تحولات العقل البشرى ، أى إلى أعم وأهم خصائص العقل البشرى فى أى مرحلة من مراحل تطوره . وهذا هو ما أكده فى المسلمتين ١٤ و١٥ من وجود تفاعل ضرورى بين هذه التحولات وبين التنظيمات البشرية ، والنظرية التى قدمها ڤيكو فى المسلمات السابقة تقول ببساطة أن الطبيعة البشرية تتكون من أشكال أساسية من التفكير والشعور ، وهذه الأشكال حاضرة أو متمثلة فى كل تنظيم داخل أى مجتمع تاريخى أو فى أى تنظيم بشرى . وهكذا تؤثر الطبيعة البشرية على طبيعة التنظيمات وتلونها بلونها ، فمنها تنشأ أنواع معينة من العادات ، ومن هذه تنشأ أنواع معينة من القانون الطبيعى ، ومن هذه تنشأ أنواع معينة من الدول المدنية ... ألخ . هكذا حاول ڤيكو أن يضمن تاريخه المثالى الأبدى الأسس الميتافيزيقية والفلسفية العامة والمضمون التجريبى للإجتماع البشرى. فمهمة النظرية الميتافيزيقية فى علمه هى تنظيم مادة التاريخ المثالى الأبدى ، ومن ثم تنظيم مادة التاريخ الواقعى كله بحيث نستطيع أن نقول أنه تصور الجانب النظرى تصوراً قبلياً وفعالاً فى نفس الوقت – على نحو ما نتصور الأسس والشروط المعرفية فى فلسفة كانط الميتافيزيقية . فإذا كانت هذه الأسس والشروط قبلية وفعالة فى نفس الوقت (إذ لا قيمة لها إلا إذا طبقت بالفعل على الواقع) فإن نظرية ڤيكو الميتافيزيقية تقوم بدور فعلى وتوجه التاريخ الفعلى وتنظم التجربة الإنسانية ، وتطبيقاته فى العلم الجديد تشهد على هذا . ويكفى أن نتأمل بعض الفقرات الخاصة بالطبيعة الشعرية للبشر الأولين ، فقد كانت هذه الطبيعة شعرية خلاقة تصورت الأشياء المادية فى صورة حية بل جسدتها على هيئة آلهة . لقد كانت طبيعة قاسية ووحشية ، ولكن البشر فى هذه المرحلة كانوا يشعرون بخوف رهيب من الآلهة التى خلقها البشر بأنفسهم . وترتب على هذا أن العادات الأولى كانت كلها ممتزجة بالدين والتقوى كما كان القانون الطبيعى الأول قانوناً إلهياً مقدساً لأن البشر اعتقدوا أن حياتهم وحياة كل تنظيماتهم تعتمد على الآلهة

لأنهم تصوروا كل شيء في صورة إله أو في صورة شيء أوجده إله . أضف إلى هذا أن الحكومات الأولى كانت إلهية مقدسة أو ثيوقراطية يخضع كل شيء فيها لحكم الآلهة . لقد كان هذا العصر هو عصر التنبوءات وهى أول تنظيمات بشرية معروفة في التاريخ . ولا حاجة بنا أن نعيد ما ذكره فيكو عن لغة هذا العصر ولا عن نوع التشريع الذى ساد فيه ، ولا عن نوع السلطات التى حكمت فيه والأحكام[١] ... ألخ .

هذا العرض يلقى الضوء علي مفهوم فيكو عن التاريخ المثالى الأبدى ، إذ يبين كيف ينظم مضمون محدد (وهو العالم الشعرى للإنسان الأول) وفقاً لنظرية اجتماعية صورية تستجيب هى نفسها لمطالب ميتافيزيقية معينة . وهذا المضمون ينظم وفقا للنموذجين اللذين ميزناهما من قبل ، فهو أولاً ينظم وفقاً لنظريات العلاقات الاجتماعية المحددة (الإيمان بأن الآلهة تتمثل فى كل شيء نتجت عنه تنظيمات إجتماعية معينة تمثلت فى اللغة والتشريع ونظام الحكم ... ألخ) إن النظام اللاهوتى للحكم عند الإنسان فى هذه المرحلة الشعرية يعتمد على تصوره للقانون الطبيعى ، وتصوره للقانون الطبيعى يحدده عاداته وهذه بدورها تتحدد برؤيته الأساسية للعالم . أضف إلى هذا كله أن شبكة التنظيمات البشرية بمعناها الواسع تتأثر بالطبيعة البشرية ، فملكات التخيل لهذا الإنسان - وهى ملكات بعيدة عن العقلانية - هى الشرط الذى يحدد عادات هذا الإنسان ودينه ومعتقداته ، كما تحدد أيضا لغته وتصوره للعدل ولنظامه القانونى بوجه عام . وهى تحقق هذا كله عن طريق سلسلة من العلاقات بطريقة تؤكد أن مكونات العالم البشرى مستمدة من طبيعة البشر الذين صنعوا هذا العالم . فإذا تغير البشر وفقاً لتصور فيكو عن تطور الإنسان التاريخى وتغيره فإن مضمون العالم الإنسانى - لا بنيته - لابد أن يتغير تبعاً لذلك . وهكذا يؤكد فيكو من كل ما سبق أن هناك نوعا من الوحدة التى تؤلف بين التنظيمات البشرية فى أى مجتمع تاريخى ، ولكنها ليست وحدة منطقية تصورية ، بل وحدة

---

(١) انظر الفصل الأول - الباب الثانى من هذا البحث .

تقوم على ملكات البشر الذين صنعوا هذه التظيمات وأساليب تفكيرهم أو بمعنى آخر تقوم على وحدة الطبيعة البشرية . والدليل على أن هذه الوحدة ليست نظرية عقلية خالصة وإنما هى وحدة طبيعية واقعية هو تطور التنظيمات البشرية عبر مراحل مختلفة ، وبعض هذه التنظيمات يظل قائماً في مرحلة تالية كان التطور يقتضى اختفاءها . ففى ظل الحكم الاقطاعى تبقى بعض صور الحكم الارستقراطى ، وفى ظل حكم الآباء فى العصر الدينى تبقى بعض صور الطبيعة الوحشية التى كانت تغلب على هؤلاء الآباء قبل انتقالهم إلى المرحلة الدينية ، وفى ظل الحكومات الأرستقراطية بقى لآباء الأسر نفس السلطة المطلقة التى كانوا يتمتعون بها فى الحالة الطبيعية الأولى . وهذا يؤكد ما سبق أن قلناه عن أن فيكو كانت لديه بصيرة صادقة بالواقع ولم تستعبده سلطة النظريات . صحيح أنه يتمسك بالبناء النظرى بوجه عام ويطبقه على الواقع ويحاول أن يبين على الدوام أن تاريخه المثالي الأبدى تاريخ حقيقى ، فالواقع الفعلى نفسه لايغيب عنه لحظة واحدة ، كما أنه لا يتردد عن تأكيد اختلاف هذا الواقع الفعلى فى مرحلة معينة عن مقتضيات البناء النظرى .[1]

ومعنى هذا أن مذهبه يتسع فى وقت واحد للضرورة النظرية وللإمكان الواقعى التاريخى ، فهناك قوانين تحدد نظام تطور الطبيعة البشرية ومبادئها ، ولكن الطبيعة البشرية نفسها تتحرك عبر التاريخ حركة قد تخرج من حين إلى آخر ، ومن مرحلة إلى أخرى عن ذلك النسق النظرى . بل أنه قد فطن إلى هذه الحقيقة وعبر عنها فى إحدى مسلماته " العادات الفطرية لا تتغير كلها دفعة واحدة ولكن تدريجياً وتستغرق فترات طويلة من الزمن " وهذا كله يدعونا أخيراً إلى القول بأن النظر والعمل يتفاعلان فى فلسفة ڤيكو بحيث تبقى مشكلة الازدواجية التى أشرنا إليها مراراً مشكلة قائمة ولا يمكن حسمها لحساب النظر وحده أو العمل وحده . ولعل هذه الازدواجية نفسها أن تكون دليلاً على صدق نظرته وعمق احساسه بالواقع التاريخى

---

(1) Pompa, Leon; Vico. A study of the New Science; p. 112 - 119.

الذي لا يكف عن التغير والتطور . فهو واقع يخضع لقوانين وشروط محددة دون أن يستجيب لها بطريقة حسابية وحتمية خالصة .

إن نموذج التطور الذى حدد به ڤيكو مسار التاريخ ووصفه فى نظريته عن التاريخ المثالى الأبدى هو نموذج تخطيط ثلاثى للتطور ، فهو يميز بين ثلاثة عصور تعبر عن تاريخ كل أمة أو بين ثلاثة طبائع بشرية تحدد هذا التقسيم بحيث يتطور كل نوع من أنواع التنظيمات فى ثلاث مراحل عضوية متتالية . ويصف ڤيكو كل واحد من هذه المراحل بمجموعة من الصفات الأساسية التى تميزها ، فالطبيعة الأولى شعرية أو خلاقة أو إلهية لأنها طبيعة يقوم فيها الخيال بدور رئيسى ويعتمد على رؤية دينية إلى العالم تؤثر على جميع التنظيمات القائمة فيه . أما الطبيعة الثانية فهى بطولية لأنها تعترف بالقوة وتمجدها وتقيم عليها كل الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية والقانونية والسياسية . وأخيراً تأتى الطبيعة الثالثة وهى الطبيعة الإنسانية لأن أصحابها يملكون قدرة على التفكير العقلى فى الأشياء وفهم طبيعتها الحقيقية . ويتطابق مع هذا التقسيم الثلاثى للطبائع تقسيم ثلاثى آخر للعصور الشعرية والبطولية والإنسانية ، وكل عصر من هذه العصور يمثل نسقاً من التنظيمات يتطور تطوراً حتمياً نتيجة للطبيعة البشرية الملازمة لها . وأخيراً فان كل تنظيم بمفرده فى داخل هذه العصور يتطور بدوره تطوراً يعبر عن خصائص الطبيعة البشرية فى كل مرحلة .

ونكتفى بتقديم مثل واحد يعبر عن تصور ڤيكو لهذا التخطيط الثلاثى من خلال التاريخ المثالي للقانون الطبيعى . فالقانون الأول كان قانوناً إلهياً لإيمان البشر بأنهم يعتمدون على الآلهة كما تعتمد عليها كل التنظيمات ، وذلك لأنهم تصوروا كل شىء في صورة إله أو تصوروا أنه من صنع إله . ثم يأتى بعد ذلك القانون البطولى الذى كان قانون القوة التي يتحكم فيها الدين ويضعها فى داخل حدود لا تتعداها حيث تعجز القوانين البشرية عن التحكم فيها . فقد كان الدين فى هذه

المرحلة هو الوسيلة الوحيدة لترويض الطبيعة الوحشية للبشر الأوائل لتعويض عجزهم عن التفكير العقلى . وأخيراً تأتى المرحلة الثالثة وهى مرحلة القانون الإنسانى الذى يمليه العقل المتطور الناضج . هكذا نرى أن طبيعة القانون تتحدد بطبيعة الإنسان ، فهى فى المرحلتين الأوليين طبيعة تتسم بعجز العقل ، ولكنها تتطور إلى مرحلة ثالثة يتم فيها تطور هذا العقل تطوراً كاملاً ، وبذلك يتغير تصور البشر للقانون الطبيعى مع تغير طبيعتهم . ويتناول ڤيكو تاريخ القانون الصارم الذى ساد العصرين الأول والثانى والفرق بينه وبين القانون الرحيم الذى ساد العصر الثالث ، ثم يزيد الفرق بين هذه القوانين الثلاثة وضوحاً فيميز بين قانون يستند إلى السلطة وينفذ بناء على ما فيه من يقين ، وبين قانون تمليه المنفعة الخالصة فى كل حال . وينبغى أن نلاحظ هنا أن التفرقة التى يقيمها ڤيكو بين هذه الأنواع المختلفة من القانون تقوم على طبيعة التفكير البشرى وتطوره من الإحساس والخيال إلى العقل . فالقانون الصارم هو قانون البشر الذين يفتقرون إلى القدرة على التفكير العقلى فى طبيعة الأشياء وفى أنفسهم وفى المجتمع والقانون .. ألخ ولهذا فإنهم يعجزون عن تطبيق القانون على ضوء الفهم الحقيقى لطبيعة الأشياء التى يتعلق بها هذا القانون ، إنهم يطبقون القانون تطبيقاً حرفياً ولهذا فهو قانون قاسى ولكنه يقينى ، وما دام يفتقر إلى فهم طبيعة القانون فهو لا يطبق إلا عن طريق السلطة التى تدعمه وتفرضه ، وهذه السلطة بدورها تعتمد على رؤية دينية أو عقيدة لاهوتية نبعت منها فكرة السلطة نفسها . وهكذا نرى أنه نتاج طبيعة بشرية لم يكتمل فيها تطور العقل . فإذا نظرنا إلى القانون فى المرحلة الأخيرة وهو قانون يتصف بالرحمة والانصاف والعدالة وجدنا أنه يعبر عن الطبيعة البشرية التى اكتمل فيها نمو العقل بحيث أصبح قادراً على فهم طبائع الأشياء . ولم يكن من الممكن أن يبلغ الإنسان مرحلة العقل إلا فى مجتمع اكتمل تطوره التاريخى .

وكل هذا يؤكد أن تطور القانون - كتطور غيره من الأنظمة - يعتمد على مبادىء تطور الطبيعة البشرية نفسها ، فهذه الطبيعة تنتقل من مرحلة تغلب فيها ملكة

الإحساس والتخيل إلى مرحلة تالية تستطيع فيها أن تفهم حاجاتها ومطالبها وأن توجد التنظيمات التى تشبع هذه المطالب والحاجات . وهكذا فإن المبادىء التى توجه التاريخ هى نفس المبادىء التى توجه تطور الطبيعة البشرية . وهذا المثل الذى قدمناه عن تطورالقانون يلخص فى الواقع نظرية ڤيكو العلمية عن التاريخ المثالى الأبدى . وقد يبدو أن المبادىء التى تُسير الطبيعة البشرية هى مبادىء لم تستمد من حركة التاريخ نفسه وأنما فرضها ڤيكو على التاريخ . وحجة الشراح الذين يذهبون إلى هذا الرأى هو أنه إذا كان تاريخ التنظيمات البشرية يتحدد بتطور الطبيعة البشرية ، فإن هذه الطبيعة لا يمكن هى نفسها أن تتحدد تاريخياً ولابد أن يحددها مبدأ ميتافيزيقى متعالى على التاريخ ، ومعنى هذا أن ڤيكو قد وضع هذه المبادىء أو اكتشفها قبل أن يحاول فهم التاريخ نفسه فى حركته الواقعية . وهذا التفسير قد أغرى هؤلاء الشراح بأن يشبهوا نظرية ڤيكو عن السببية التاريخية بفكرة هيجل عن " دهاء العقل " التى تعتبر أن تطور التاريخ والنظم التاريخية يقوم على ضرورة ميتافيزيقية بحتة ، أى على مبدأ متعال يوجه التاريخ من خارجه . وعلى الرغم من التشابه بين تطور الإنسان نحو العقل عند ڤيكو وتطور العقل عند هيجل ، فإن المبادىء التى تحدد تطور الطبيعة البشرية عند ڤيكو هى مبادىء ذات طبيعة تاريخية اجتماعية . ان هذه الطبيعة البشرية تتطور تطوراً عضوياً - وفق النموذج الذى قدمناه - من خلال السياق التاريخى والإجتماعى الذى تتم فيه أفعال البشر . ولابد من القول بأن التطور التاريخى الإجتماعى لتطور العقل عند ڤيكو مختلف كل الاختلاف عن تصور هيجل الذى لاشك أنه تصور ميتافيزيقى متعال على التاريخ . ويكفى أن نقول أن الدور الذى يقوم به العقل مختلف تمام الاختلاف عند ڤيكو عنه عند هيجل ، فالعقل المطلق عند هيجل يتطور - كما هو معروف - تطوراً ذاتياً نحو الوعى بذاته ، أما عند ڤيكو فهو يتطور إلى حد معين ويتعرض للانتكاس والانحراف عن مساره بحيث يرجع إلى عصر البربرية التى ينتهى إليها " التاريخ المثالى الأبدى " ويعود إلى أساليب التفكير الشعرية أو الخيالية التى مر بها فى مرحلة

سابقة على مرحلة التفكير العقلى . ولو آمن ڤيكو أن التاريخ هو نتيجة التطور الذاتى للعقل – كما ذهب هيجل – لكانت عملية التطور بلا نهاية ، فالعقل عنده لا يتطور إلا داخل ظروف تاريخية إجتماعية محددة يكون مشروطاً بها ، والدليل على هذا أنه فى المرحلة البربرية لا ينتكس لأساليب التفكير السابقة – التى كان قد تجاوزها إلى مرحلة التعقل والفهم – وإنما تنتكس معه تلك التنظيمات الإجتماعية التى عبرت عن مرحلة النضج العقلى (من قانون وسياسة واقتصاد ... ألخ) .

نستخلص من هذا أن ڤيكو لم يتصور العقل كماهية مستقلة ولم ينسب له أي قدرة ذاتية على التطور ولم يجعله سبباً من أسباب التطور التاريخى . إن العلة الأساسية للتغير الاجتماعى أو التطور التاريخى عنده هى الطبيعة البشرية نفسها كما تتطور فى ظروف تاريخية واجتماعية محددة ، وهذه الطبيعة البشرية التى ينشأ عنها كل شيء لا توجد منعزلة عن شبكة التنظيمات البشرية التى أوجدتها ، فهى ليست شيئاً متعالياً على عادات البشر وقوانينهم . والبشر أنفسهم فى مرحلة معينة هم التعبير الحى عنها وتاريخهم هو تاريخها . والخلاصة أن نظرية ڤيكو عن الطبائع الثلاث التى تحدد التاريخ المثالى الأبدى لأى أمة ليست نظرية غير تاريخية ولا مبدأ متعالياً على التاريخ تستنبط منه مبادىء التغير التاريخى . أنه في الحقيقة مبدأ تاريخى يعبر عن نظريته عن التطور التاريخى للتنظيمات البشرية . وڤيكو نفسه يؤكد هذا فى الفقرة التى مهد بها للتلخيص الذى قدمه عن التاريخ المثالى الأبدى – والتى ذكرناها من قبل – " .. سوف نرى أن الأمم تتطور وفقاً لهذا التقسيم (أى إلى عصور الآلهة والأبطال والبشر) عن طريق تسلسل ثابت ومتصل للأسباب والنتائج موجود عند كل أمة من خلال ثلاثة أنواع من الطبيعة البشرية " . وواضح من هذه العبارة أنه يوحد بين التطور العِلىّ لأى أمة وبين التطور الثلاثى للطبيعة البشرية ، وهذا يستبعد تماماً أن تكون الطبيعة البشرية بمعزل عن التسلسل المتصل للأسباب والنتائج .(١)

---

(1) Ibid; p. 120 - 125.

ولعل كل ما ذكرناه من قبل عن الطبيعة البشرية يؤكد أنها تتفاعل مع التنظيمات التى تعبر عن مرحلة معينة بحيث أن هذه التنظيمات تعكس أسلوبها فى التفكير والاعتقاد والتقييم ، ثم تعود هذه التنظيمات نفسها فتؤثر على الطبيعة البشرية بحيث تنتقل إلى مرحلة جديدة تعبر عنها مرة أخرى بتنظيمات جديدة .. وهكذا . ولو تأملنا عدداً من المسلمات التى يضع فيها ڤيكو المبادىء التطورية للتاريخ المثالى الأبدى – ابتداء من مسلمة رقم ٦٤ إلى مسلمة رقم ٦٨ لوجدناه يقول فيها صراحة : " ان نظام الأفكار يجب أن يتبع نظام التنظيمات ، لقد كان هذا هو النظام الذى سارت عليه التنظيمات البشرية : فهى تبدأ بالغابات ثم الأكواخ ثم القرى وبعد ذلك تأتى المدن وأخيراً نصل إلى الأكاديميات " .

* " ان طبيعة الشعوب تكون فى البداية فظة ثم تكون قاسية ثم تميل إلى الرحمة والرقة وأخيراً تتفكك وتتحلل " .

* " ان البشر يشعرون فى البداية بالضرورة ثم يبحثون عن المنفعة ثم يميلون إلى الراحة وبعد ذلك يستمتعون باللذات وينغمسون – إلى حد الفساد – فى الترف وأخيراً يستولى عليهم الجنون ويفقدون جوهرهم " .

ومن هذه النصوص يتبين بصورة واضحة أن الطبيعة البشرية تتطور فى إطار السياق التاريخى والإجتماعى وفى داخل التنظيمات الإجتماعية والسياسية ... ألخ التى يوجد فيها البشر أو بالأحرى التى أوجدوها تعبيراً عن طبيعتهم المتطورة ، فكل مرحلة من المراحل التى أشار إليها النص هى شرط ضرورى للمرحلة التالية لها ، لأن البشر يكتسبون فيها قدرات أو استعدادات معينة تصبح بدورها شرطاً لقيام تنظيماتهم فى المرحلة التالية ، ومن المستحيل أن تتطور الطبيعة البشرية بمعزل عن هذه التنظيمات . ومجمل القول أن نموذج التطور الذى قدمه ڤيكو فى صورة التاريخ المثالى الأبدى هو فى الواقع نظرية علمية تاريخية عن سلسلة محددة من

الشروط التى تقوم على أساسها التنظيمات التى لا حياة للإنسان إلا فى ظلها ولا حياة له بغيرها . ففى ظل هذه التنظيمات يمكنه أن ينمى ملكاته وقدراته الإجتماعية التى تكون طبيعته البشرية وتحدد طبيعة تطوره التاريخى .

ننتهى من هذا إلى أن التاريخ المثالى الأبدى الذى قدمه ڤيكو كنظرية علمية فى المعرفة التاريخية ، يتضمن البناء النظرى الميتافيزيقى والمضمون التجريبى معاً ، وأن تصوره للبناء النظرى تصوراً قبلياً وفعالاً فى نفس الوقت ، يشبه إلى حد كبير الشروط القبلية للمعرفة عند كانط . لهذا نبه " ياكوبى " فى كتابه عن الأمور الإلهية والكشف عنها (عام ١٨١١) إلى سبق ڤيكو لكانط فى القول بالمبادىء القبلية فى المعرفة وكتب يقول : " ان لب الفلسفة الكانطية هى الحقيقة التى تقول اننا لانفهم الشىء إلا بقدر ما نستحضر وجوده أمامنا فى الفكر أو بقدر ما نوجده فى الفهم . وقبل كانط بزمن طويل وفى بداية القرن الثامن عشر كتب ڤيكو فى نابولى يقول اننا فى الهندسة نبرهن لأننا نُوجد أو نُبدع ، وقبل أن نبرهن على شىء فى الفيزياء لابد كذلك أن نكون قادرين على الخلق والإبداع ، وهكذا فإن الذين يحاولون إثبات وجود الله بطريقة قبلية يجب أن يوجه إليهم تهمة التطفل والتطاول ، إن وضوح الحقيقة الميتافيزيقية يشبه وضوح النور الذى لا نعرفه إلا عن طريق الأشياء المعتمة لأننا لا نرى النور نفسه وإنما نرى الأشياء التى تعكسه ، إن الأشياء المادية معتمة ولها شكل وحدود وفيها نرى ضوء الحقيقة الميتافيزيقية " .

ان المبدأ الذى تقوم عليه نظرية ڤيكو فى المعرفة يقترب من المبدأ الذى تقوم عليه فلسفة كانط النظرية التى عبر عنها فى مقدمة نقد العقل الخالص بقوله : " عندئذ أشرق شعاع من الضوء على جميع دارسى الطبيعة ، إذ فهموا أن العقل لايدرك (فى الأشياء) إلا ما أنتجه هو وفق خطة من وضعه . وأنه لابد له أن يشق الطريق أولاً بمبادىء أحكامه حسب قوانين ثابتة ثم يضطر الطبيعة اضطراراً أن تجيب عن أسئلته ، وأن عليه ألا يدع الطبيعة تسوقه وكأنها تسحبه وراءها بالحبال ،

إذ لولا ذلك لاستحال على الملاحظات العرضية التى لا تتم وفق خطة سابقة مدبرة أن تنتظم فى قانون ضرورى يسعى إليه العقل ويتطلبه . ولابد للعقل أن يتقدم إلى الطبيعة وهو يضع فى احدى يديه مبادئه التى يمكنها وحدها أن تجعل من الظواهر المتواترة قوانين صادقة ، كما يضع فى اليد الأخرى التجربة التى صاغها طبقاً لتلك المبادىء العقلية . حقاً أن عليه أن يتقدم من الطبيعة لكى يتعلم منها . ولكنه وهو يفعل ذلك لا يكون شأنه شأن التلميذ الذى يصغى لكل ما يشاء المعلم أن يمليه عليه ، وإنما يكون مثل القاضى الذى يرغم الشهود على الجواب عن الأسئلة التى يطرحها عليهم " . (١)

هنا نستطيع أن نقول إنه إذا كان كانط قد قدم نقداً للعقل الخالص ونقداً للعقل العملى فإن ڤيكو قدم نقداً للعقل التاريخى . لقد أراد كانط أن يصل – فى مجال المعرفة – إلى مبادىء قبلية تصور أنها ثابتة ونهائية ومقولات مطلقة لا تتغير ، بينما نجد القبلى عند ڤيكو كامناً فى التاريخ ويتحقق شيئاً فشيئاً مع تطور الوعى الإنسانى وانتقاله من حالة الطبيعة إلى الحالة الإنسانية ، فالقبلى عنده ليس نسقاً لأنه يعمل فى مجال التاريخ الذى هو بطبعه مجال التغير والصيرورة والحركة الدائمة . ولكن هل القول بهذا التشابه يعنى أننا نجد عند ڤيكو مجرد نموذج مثالى أبدى يوجه التاريخ بحيث يكون بلغة كانط هو الشرط القبلى للتاريخ ؟ أم أن هذا النموذج الأبدى مجسد فى التاريخ بشكل واقعى حى ؟ أننا لابد أن نتصوره من الزاويتين معاً بحيث يكون الأبدى شرطاً مسبقاً للفعل البشرى فى التاريخ ويكون التاريخ تجسيداً حياً للأبدى أو للنموذج المثالى الذى حدده ڤيكو . الطبيعة الإنسانية إذن التى هى علة التطور التاريخى ليست جوهراً ثابتاً مطلقاً بل طبيعة متغيرة ومتطورة . وكما تضمن التاريخ المثالى الأبدى فى داخله فهو لا يعلو على الواقع المتغير . وقد رأينا كيف أن

(١) مقدمة الطبعة الثانية لنقد العقل الخالص ١٧٨٧ . (عن ترجمة غير منشورة للدكتور عبد الغفار مكاوى) .

ڤيكو اختبر صدق مبادئه الضرورية على ضوء الواقع التاريخي ، وكما رأينا أن التاريخ الحقيقى للتنظيمات البشرية هو نشأتها من تحولات العقل البشرى . ومن تطور هذه التنظيمات يكون هناك دائماً مجال للابداع والابتكار والتغير ، فعندما تنهار هذه التنظيمات فى آخر مرحلة من مراحل تطورها تعود لتبدأ من جديد . ولكنها لا تعود أبداً بنفس الطريقة . والتاريخ لا يعيد نفسه ولا يتحرك بشكل دائرى منتظم وإنما يتحرك بشكل حلزونى لولبى . والدورات التاريخية تأتى دائماً بالجديد فتظهر الحروب والثورات من حين لآخر فى التاريخ ، ولكن كل حرب مخالفة لما قبلها ، وكل ثورة فيها الجديد طبقاً لما تعلمته البشرية من الماضى . والتطور التاريخى عند ڤيكو ليس دائماً تطوراً إلى الأمام . وقد عرضنا فى الباب الثانى نصوص ڤيكو الأصلية عن عودة مسار الأمم ورأينا أن هناك عصور انهيار وتدهور فى مسار التاريخ يعقبها عصورازدهار من جديد ، فالبشرية التى تتردى فى هاوية البربرية ، لا تسقط فى نفس البربرية الحسية الأولى بل فى بربرية يمكن أن توصف بأنها بربرية عقلية يكون فيها العقل قد فقد مضمونه الحي وأصبح شكلاً أجوف . وهذه فكرة مختلفة عن فكرة التقدم كما سادت فى عصر التنوير وهو نفس العصر الذى ينتمى إليه ڤيكو وأن اختلفت نظرته إلى التقدم عن نظرة فلاسفة هذا العصر .. ولكى نوضح هذا التباين لابد أن نلقى الضوء على نشأة هذه الفكرة – فكرة التقدم – فى نهاية القرن السابع عشر حتى سادت وانتشرت بين الأغلبية العظمى من فلاسفة القرن الثامن عشر ، ولابد أن نعرف هل كان لدى ڤيكو تقدم تاريخى بمفهوم ذلك العصر؟

رابعاً : ڤيكو وفكرة التقدم :-

فى أواخر القرن السابع عشر وطوال القرن الثامن عشر أخذ الفكر الحديث يؤكد ثقته بالأسس العقلية والمنهجية التى عمل على ارسائها خلال القرنين السادس

عشر والسابع عشر ، وتزايد وعيه باختلافه عن الفكر القديم ، وبقوته وسلطته في مواجهة القيم التى ظلت حية عبر القرون . وارتفعت الأنساق الفلسفية والرياضية التى تطمح للكمال ، وراح كل فيلسوف يبنى مذهباً يزيح المذهب السابق عليه ليحتل مكانه . وشعر أقطاب العلم الجديد الشامل بتفوق معرفتهم على معرفة القرون السابقة وباختلاف تصورهم للعلم عن التصور المسيحى والمدرسى له . وهكذا أصبحنا ازاء فكر جديد وعلم جديد يؤكد اختلاف العقل عن الوحى والعلم عن الإيمان . ويبدأ الشك فى الوقوف من التصورات المسيحية بوجه عام موقف النقد كما فعل من قبل فى مواجهة العلم المدرسى . ويظهر الاعتزاز بالتقدم والتطور ، ويصبح الشك الذى مارسه ديكارت من قبل كتمرين على العودة لليقين والإيمان مراناً مستمراً وعملاً دائباً يفضح كل ما هو عرضة للشك . وتتعدد طرق البحث الدائب ، فبجانب الشكاك والنقاد نجد المؤمنين بالعلم وبالتقدم إيماناً ربما بلغ حد الجنون ، فقد بدأت فكرة التقدم فى الازدهار من نهاية القرن السابع عشر عندما أعلن فونتنل *Fontenelle* (١٦٥٧ - ١٧٥٧) أنه لا نهاية للتطور البشرى .

كل هذه الاتجاهات المتعددة اندرجت تحت عنوان " التنوير " ، وهى الصياغة الإجتماعية للنور الفطرى الذى تحدث عنه ديكارت واسبينوزا من قبل . لقد ظل النور الفطرى فى القرن السابع عشر منهجاً للمعرفة وأصبح فى القرن الثامن عشر ثورة اجتماعية بعد أن أصبح الفكر موجهاً للواقع . وطالب فلاسفة النور الفطرى بحق الفكر ، وطالب فلاسفة التنوير بحق الفكر فى توجيه الواقع ، وبأن يعيشوا فى عالم يحكمه الفكر[١] . وكانت السمات الأساسية للتنوير هى الاعتزاز بالمعرفة ، والإيمان بالعقل ، والأمل في القادم الجديد ، هذا هو الرباط الذي كان يوحد ذلك العصر على الرغم مما ساده من تنوع مجالات المعرفة ، فقد ازدحم عصر التنوير بالمتطلعين إلى المعرفة ، نذكر منهم على سبيل المثال " ليبنتز " الذى أخذ يسعى فى

---

(١) د . حسن حنفى ، قضايا معاصرة ، جـ ٢ ، ص ١٠١ .

نهم شديد إلي المعرفة الموسوعية ولا يقل عنه " بييربايل " الفيلسوف الناقد ، كذلك جون لوك الطبيب والفيلسوف والمربى والمفكر السياسى ، فهو واحد من هؤلاء الموسوعيين أصحاب الجوانب الكثيرة المتعددة . أنهم جميعاً قد حاولوا بدرجات متفاوتة من التوفيق أن يوحدوا أشتات معارفهم ، ولا يقل عنهم فولتير الذي جمع بين الأدب والفلسفة والتاريخ . وكما تنوعت المعرفة ازداد تنوع العلوم الجزئية وتخصصها خاصة العلوم الطبيعية . لقد نهض الفلك فى القرن السابع عشر وبجانبه الفيزياء والميكانيكا والكيمياء ، وراح العقل يعزل الأشياء ويحللها ويستخلص تصوراتها المجردة . وإلى جانب الفكر التحليلى سادت روح النقد العصر كله وكثرت محاولات إبراز المتناقضات التى حفلت بها المعرفة القديمة والجديدة .

وينمو فى هذا العصر - عصر التنوير - وعى متفائل بالتقدم ، سعيد بالمعارف الجديدة المتنامية . ولعل هذا الوعى السعيد المعتز بما توصل إليه من علم ومعرفة ، المستبشر بمستقبل الإنسانية العاقلة العالمة ، هو أهم ما يميز عصر التنوير ، لقد أحس فيه الإنسان بأنه بلغ سن الرشد وجاوز المرحلة التى كانت تفرض فيها الوصاية عليه ، وشعر هذا الإنسان بأنه يحيا فى عصر يفوق سائر العصور السابقة بما فيه من أنوار .

والإيمان بالنزعة العقلية من أهم مايميز عصر التنوير ، ولعل تمجيد العقل لم يبلغ عند أى مفكر من مفكرى هذا العصر مثل ما بلغه عند الفيلسوف الألمانى كرستيان فولف (١٦٧٩ - ١٧٥٤) الذى يرى أن الإنسان لم يتلق من الله شيئاً أروع من العقل ، ويستحق الإنسان أن يُسمى إنساناً بقدر ما تزداد قدرته على استخدام قواه العقلية . ويتفوق " عقل العصر " ونقصد به فولتير على معاصره الألمانى فى تمجيد العقل وتحرير الوعى ، ويتغنى فى كتبه بتقدم العلم والفن . ولكن مع ذلك لا يغيب عنه أن السعادة بالتقدم مجاورة للشقاء والالام التى تسببها حروب العصر واضطراباته " ان الفضل فى هذا التقدم كله يرجع لبعض المفكرين والعباقرة

المنتشرين بأعدادهم القليلة فى مختلف أنحاء أوربا ، وقد ظلوا مجهولين زمناً طويلاً وكثيراً ما لاحقهم الاضطهاد . لقد أضاءوا العصر بأنوارهم وعزوه عن آلامه فى الوقت الذى كانت فيه الحروب تخربه " . أن السعادة بالمعرفة التى يحسها العقل قد مازجها الشعور بالتناقض والتمزق والشك . يقول فولتير فى قاموسه الفلسفى تحت مادة التناقض : " كلما أمعن الإنسان النظر فى العالم أدرك أنه ملىء بالمتناقضات والغرائب ، ان العالم لا يتركب إلا من متناقضات ومن الضرورى تخليصه منها " ان تمجيد العقل والتفاؤل بالتقدم على كل لسان ، ومع ذلك تسرى نغمة حزينة خاصة حين يتعرض هذا العقل للقيم التقليدية والحقائق الكبرى . يقول فولتير فى قاموسه السابق الذكر تحت مادة الروح " أننى أومن بوجود كائن عاقل ، وأومن بوجود الله ، أما فى كل ما عدا ذلك فأننى أتعثر فى الظلام ، أسلم اليوم بفكرة ، وأشك فيها فى الغد ، وأنكرها بعد الغد ، وفى كل يوم أتعرض للخطأ والضلال ، ولقد صارحنى جميع الفلاسفة الأمناء بأن حالهم فى ذلك لا تختلف عن حالى " .

وعلى الرغم من إيمان فولتير بالتقدم اللامحدود لمستقبل البشرية ، إلا أننا نجد عنده أيضا ما يشير إلى انحراف مسار التقدم عندما اعتقد أن المصادفة تتحكم فى الأحداث حين لا تكون خاضعة بوعى للعقل الإنسانى ، وعنصر المصادفة واضح فى التشريع " أن كل القوانين تقريباً قد وضعت لمواجهة حاجات عابرة ، كالأدوية التى تستعمل عشوائياً فتشفى أحد المرضى وتقتل آخرين " . وتبعاً لهذه النظرية ، كان من المستطاع انحراف تقدم الإنسانية فى أى لحظة واتباعها طريقاً مختلفاً ، ولكن بغض النظر عن أى طريق ستتبعه فإن طبيعة العقل الإنسانى كفيلة بأن تحقق تقدماً فى الحضارة . ويكشف بيرى عن طبيعة التقدم عند فولتير فيقول ان قارىء " المقال " وعصر لويس الرابع عشر " ربما شعر بعد قراءته للكتابين بهشاشة التقدم وعشوائيته . فلو صح القول بأن المصادفة تتحكم فى الأحداث ، أو أن أحداثاً عارضة هى التى تتحكم فى نهوض الامبراطوريات وسقوطها وتعاقب الأديان وثورات الدول ومعظم التحولات الكبرى فى التاريخ – فهل يكون هناك أى

أسـاس مفـحم للاعتـقاد بأن العقل الإنساني - وهو الذى نسب إليه فولتير تقدم الحضارة - سيسود فى المدى الطويل ؟ لقد انتظمت الحضارة هنا وهناك فكانت هناك عصور من التقدم السريع . ولكن كيف نستطيع الاطمئنان إلى أن هذه الأحداث ذاتها ليست عابرة أيضاً بعد أن جاء التدهور فى أعقاب الازدهار ، والنكوص فى أعقاب التقدم ؟ فهل يستطاع القول بأن التاريخ مؤيد للقول بنهوض العقل إلى درجة تحول دون قيام المصادفة بتهديد ارادته ؟ وهل يزيد مثل هذا الاستدلال عن مجرد أمل لا تؤيده وقائع التجارب الماضية ، أنه مجرد خاطر يتمشى مع روح التنوير .[(١)]

لقد احتشد العصر بالعديد من فلاسفة التقدم أمثال " تورجو " الذى حاول تتبع مصير الجنس البشرى على ضوء فكرة التقدم ، واتفق مع فولتير فى تصورهما للتقدم التدريجي للبشرية نحو حالة من التنوروالمعقولية . وكذلك كوندورسيه الذي وضع تصميماً لتاريخ الحضارة على ضوء فكرة التقدم وألف " صورة تاريخية لتقدم العقل البشرى " وأكد حدوث تقدم غير محدود وموثوق به فى التنور وفى المجتمع ، وعمد إلى التفكير فى طبيعته واستبصار اتجاهه وتحديد هدفه ، وأصر على الكتابة عن التوقعات المنتظرة فى المستقبل البعيد ، ومضى يثبت أن حركة التقدم لن تعود للوراء قط ما دامت الأرض تشغل مكانتها الحالية فى نظام الكون ، فالتقدم ليس مشروطاً بأية شروط سوى بقاء الأرض ، فلن يحدث أى نكوص إلى الهمجية .[(٢)] هذا بالإضافة إلى ظهور الموسوعة الفرنسية عام ١٧٥٠ تحت إشراف ديدرو ودالمبير فجمعت بين دفتيها مفكرين وكتاباً يمجدون العقل وينظرون إلى التقدم فى المعرفة كمسلمة بديهية ، فقامت الموسوعة بتجميع المعرفة الجديدة ومحاربة المعرفة القديمة ورفع رايات التقدم والإيمان بالعقل الشامل .

والجدير بالذكر أن هذه النظرة المتفائلة التى سادت عصر التنوير تمركزت فى

---

(١) بيرى ، ج . ب . ، فكرة التقدم ، ترجمة د . أحمد حمدى محمود ، ص ١٣٧ .
(٢) المرجع السابق . ص ١٨١ - ١٨٤ .

المجتمع الفرنسى وتغنى بها فلاسفة التنوير الفرنسيون إبان حكم الملك لويس الرابع عشر حيث الحياة الرغيدة والاستغراق فى الترف . ومع ذلك ارتفعت بعض الأصوات المحتجة على فكرة التقدم العقلى ، فرجال الدين كالعهد بهم لا يخفون سخطهم على العقل ، وقد رأينا " باسكال " لا يعترف بسلطته ، كما سمعنا لوثر يحكم عليه حكمه القاسى " ان العقل الذى أصابه مس من الشيطان يؤذى الأمور الإلهية أعظم الأذى ، وكلما ازداد حظه من العلم والبراعة ازداد ضرره "[1] هذا بينما نجد الأقلية مثل كانط يبحثون عن حدود المعرفة ويحاولون تعيينها بالدراسة الهادئة لملكات العقل وطاقاته والتوفيق بين هذه الملكات والطاقات . وحاول روسو أن يثبت حدوث نكوص فى التاريخ عندما أعلن أنه " تتعرض أرواحنا للفساد فى نفس الوقت الذى تتقدم فيه علومنا وفنوننا تجاه الكمال " ، والواقع أن قلة ضئيلة من المجتمع الفرنسى هى التى استفادت من تقدم المعرفة وازدياد سيطرة الإنسان على الطبيعة ، وكشف روسو عن التباين بين فخامة قصور فرنسا وترف المنعمين وتنور أولئك الذين أتيحت لهم فرصة التعليم ، وبين ما تعانيه كتل الفلاحين من جهالة . فلو صح أن هذه الحالة هى ثمرة الحضارة والتقدم فهل تكون هناك أية قيمة لهذا التقدم ؟ ان ما يدعى بالتقدم مرادف بلا جدال للنكوص .

هذا بينما لم يتحمس الفكر الانجليزى لفكرة التقدم ربما لاستقرار الأوضاع السياسية والإجتماعية والرغبة فى الحفاظ على هذا الاستقرار ، مما جعل المفكرين حذرين فى الأخذ بالتقدم ، فنجد هيوم يؤكد أن العلم يجب أن يمر بمراحل مختلفة من الطفولة والنضج ثم الكهولة والشيخوخة ، وأن يشارك الإنسان فى كل هذه الأطوار ، وتزدهر العلوم والفنون من حين لآخر ثم تتعرض مرة أخرى للذبول . وان كانت هذه الحجج لم تحل دون اعترافه بتفوق الحضارة الحديثة على القديمة .[2]

---

(١) لوثر ، خطب المائدة ، طبعة ركلام ، ص ٧٩ (ترجمة عن الألمانية) .

(٢) بيرى ، ج . ب . ، فكرة التقدم ، ترجمة د . أحمد حمدى محمود ، ص ١٦١ - ١٩١ .

وعلى الرغم من كل المحاذير والتحفظات والانتقادات التى أبداها البعض لفكرة التقدم فإن الاكتشافات والاختراعات العلمية الكبرى التى تمت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر جعلت الثقة فى قدرات العقل البشرى ثقة مطلقة لا رجوع فيها . فهذا التقدم العلمى الهائل جعل الفلاسفة ينظرون إلى فكرة التقدم كضرورة حتمية فى التاريخ ، وتخيلوا أن بوسعهم أن يحققوا تقدماً لا نهائياً فى الحضارة ، وبالتالى بدأوا التخلى عن فكرة الفساد والتدهور . وتمخض عن هذا التقدم تاريخ تخمينى افتراضى – ساد فى القرن الثامن عشر – يبحث من خلال العقل عن القوانين الطبيعية للتطور وتقدم الجنس البشرى ككل . واعتقد مفكرو ذلك العصر أن التقدم ليس شيئاً عرضياً ولكنه ضرورة تاريخية . إنه تقدم لا يعتمد كما عند أوجست كونت على سجلات الأحداث الفعلية فى التاريخ ولكن على استعمال العقل ، ولا يُفهم إلا من خلال التفكير الديكارتى ، وتحولت فكرة التقدم فى القرن التاسع عشر إلى نظرية فى التطور الإجتماعى ، ونظرية فى فلسفة التاريخ .

إن مفهوم التقدم فى عصر التنوير كما نجده عند تورجو وكوندورسيه وفولتير وزعماء الثورة الفرنسية وسان سيمون وكونت وغيرهم ، مفهوم لا نجده عند ڤيكو ، فالتقدم لديهم تقدم علمى يسير فى خط مستقيم حاولوا إثباته بطريقة استنباطية عقلية ورياضية ، وهو تقدم تنتهى فيه الحروب ويسود السلام . مثل هذه النظرة المتفائلة لفكرة التقدم لا نجدها عند ڤيكو ، وليس التقدم عنده كما هو عند هيجل في تقدم الوعى بالحرية أو فى وعى الفكرة بذاتها ، وليس كما عند ماركس تقدماً نحو مجتمع اشتراكى تذوب فيه الطبقات ، وليس كما عند آدم سميث تقدماً نحو نتائج سعيدة تحقق الانسجام للأفراد عن طريق نشاطهم وتنافسهم وتحقيقهم لغاياتهم الخاصة ، وليس كذلك من نوع التقدم الذي نجده عند اليوتوبيين المثاليين أو الاشتراكيين المثاليين فى القرن التاسع عشر . إن التقدم بكل هذه المعانى السابقة ليس موجوداً عند فيلسوفنا . ولكن مما لا شك فيه أن مشكلة التقدم كانت من أكثر

المشاكل التى تناولها بالدراسة العميقة واهتم بالظروف التى تسبب التقدم العقلى فى التاريخ البشرى ، كما اهتم أيضا بالظروف التى تنحدر به نحو الفساد . فلم يتغن ڤيكو بفكرة التقدم بل تناولها بالبحث من خلال التاريخ الحى للأمم ، وكان أعمق وأكثر أصالة من فكرة التقدم كما جاءت فى عصر التنوير وفى القرن التاسع عشر . ويتمثل هذا فى مبدأين أساسيين : المبدأ الأول ان مفهوم التقدم عند الفلاسفة السابقين هو تقدم يسير فى خط واحد فى الزمان . ولمحاولة إثبات ضرورة التقدم قاموا بتصنيف الشعوب بشكل عقلانى ، فلم يكن لديهم إدراك للتنوع والاختلاف بين الشعوب والأحداث بل وضعوا كل شيء في خط احادى لإثبات ضرورة التقدم نحو جنس بشرى مستنير . فهذا التنوع والاختلاف لم يظهر فى أعمال كوندورسيه وكونت وسبنسر وغيرهم ممن قاموا ببناء نظريات تطورية على أساس فكرة التقدم . بينما نجد الأمر مختلفاً عند ڤيكو الذى ركز على هذا التنوع . فقد بحث فى التاريخ الفعلى للشعوب وكانت مادة دراسته هى التاريخ الحى . ولم يتناول البشرية كوحدة واحدة بل تناول شعوباً وحضارات مختلفة كما نجد فى اللوحة التاريخية وأحداثها وأماكنها وتواريخها مثل العبرانيين والكلدانيين والمصريين والأغريق والرومان وغيرهم . ولم يحصر الجنس البشرى فى مبدأ الوحدة كما فعل فلاسفة عصر التنوير ، ولم ينظر للتقدم كضرورة تاريخية يفرضها تقدم العقل ولكنه أيضا لم ينظر للتاريخ وكأنه خاضع للمصادفة أو الاتفاق العشوائي مثلماً قال بعد ذلك رانكه فى القرن التاسع عشر . كما أنه لم يقلل من شأن الأحداث ولم يستنكر التعددية ، بل بحث من خلال الدراسة المقارنة للسجلات التاريخية والأحداث عن تعميمات علمية . ولاشك أنه وجد لكل شعب شخصيته وفرديته . ومن الدراسة الدقيقة للعديد من تواريخ الشعوب نجد خطاً مشتركاً للتغير التاريخى من النشأة إلى التطور والتقدم ثم التدهور والسقوط فى نزعة بربرية جديدة . تاريخ ڤيكو إذن ليس أحادياً ولا يسير فى خط واحد ، لأن تعدد الشعوب هو الأساس الذى قام عليه قانون التطور عنده ،

هنا يتضح عمق نظرة ڤيكو في الطبيعة البشرية من رؤيته لتواريخ العديد من الشعوب ، فغالباً ما نرى السقوط والانهيار كما نرى التقدم والتطور ، والتاريخ الفعلى يثبت لنا أن الحضارة الإنسانية لا تسير في خط مستقيم ، بل هناك ثغرات وعثرات تسقط فيها البشرية . وهناك عصور تتدهور فيها الحضارة وتسقط ثم تعود لتبدأ من جديد . فالتدهور والانهيار مرحلة من مراحل التطور التاريخى ، والعناصر العقلية التى سببت التقدم فى البداية هى نفسها التى تسبب التدهور .(١)

والمبدأ الثانى الذي يوضح الاختلاف بين مفهوم ڤيكو عن التقدم عنه عند فلاسفة التنوير هو أن التقدم هو غاية التاريخ عند هؤلاء الفلاسفة بحيث أصبح التقدم العلمى رمزاً ونموذجاً لتقدم الإنسانية وغاية للتاريخ . أننا لا نجد عند فيلسوفنا غاية للتاريخ ، ربما يقال أن العناية الإلهية عنده هى غاية التاريخ ، ولكننا نقول أن فكرة العناية الإلهية المتعالية التى توجه البشر فى الأمم الأممية يمكن حذفها من فكره دون أن تتأثر مبادئه وأفكاره بهذا الحذف . وفى رأينا أن فكرة العناية الإلهية تنطوى على ازدواجية لا يمكن انكارها ، إن ڤيكو كمسيحى مؤمن يقول بالعناية الإلهية في التاريخ ، ولكن ليس عنده رؤية لغاية التاريخ ، فلا يمكن أن نتدخل فى معرفة الخطة الإلهية فى التاريخ لأن هذا يفوق العقل البشرى ، وهى فكرة لا يمكن البرهنة عليها ولكن لابد أن نؤمن بها . صحيح أن العناية الإلهية تهدف دائماً إلى خير الجنس البشرى ، إلا أن ڤيكو لم يحدد هذا الخير على أنه تقدم مستمر نحو الخير ، فهناك عوائق فى تقدم الحضارة ، وهناك حروب ودمار وانهيار تتعرض له البشرية فى مسارها التاريخى ثم تعود وتبدأ من جديد . ومن هنا نستطيع أن نقول أن مفهوم ڤيكو عن التقدم كان أعمق نظراً وأكثر بصيرة بطبيعة الجنس البشرى التى يتخللها الصراع والتعارض . والأهم من هذا أنه جعل هذا الصراع هو القوة الديناميكية المحركة للتغير التاريخى ، فهو أكثر فهماً للطبيعة البشرية من فلاسفة عصر التنوير .

(1) Nisbet, Robert; Vico and the Idea of Progress; in Vico and Contemporary Thought; p. 235 - 240.

ويحاول بعض الباحثين أن يقابل فكرة العناية الإلهية عند ڤيكو بفكرة دهاء العقل عند هيجل واليد الخفية عند آدم سميث ، ولكنها فى الواقع تختلف عنهما . حقاً أن العناية الإلهية تحفظ المجتمعات البشرية وتعمل على تطورها ، ووسائلها فى هذا هى فاعلية العواطف البشرية ورغبات ورذائل الجنس البشرى التى تحولها إلى فضائل إجتماعية ، وهذه هى المادة نفسها التى استخدمها هيجل عن طريق الفكرة لتصل إلى غاياتها أو نهايتها . فدهاء العقل عند هيجل هو الذى يوجه أفعال الأبطال دون أن يدروا إلى الهدف النهائى عندما تصل الفكرة إلى الوعى بذاتها . واليد الخفية عند آدم سميث تحقق الانسجام والنتائج السعيدة عن طريق نشاط الأفراد الذى يكون الدافع إليه هو العقل . غير أن رؤية ڤيكو للتاريخ مختلفة . فالبشر يحققون اراداتهم لا بالمناهج العقلية ولا بدافع عقلى ولكن بدافع من المنفعة والحاجة والطموح والرغبة فى البقاء والأمان ، والحاجة إلى الفهم والتعبير والاتصال والسيادة والطاعة والحب والكراهية والأنشطة الخلاقة التى أوجدت التوتر الإجتماعى الذى شكل حياتهم وأفكارهم وجعلهم يبدعون أشكالاً جديدة للحياة الاجتماعية .

التقدم عند ڤيكو إذن مرحلة متتابعة فى حياة كل حضارة مستقلة . إنه تقدم يصل أحياناً إلى أعلى قمم العظمة والقوة ، وفى عصور أخرى ينحدر إلى فقدان التضامن البشرى واغتراب الأفراد والجماعات وتفكك النسيج الإجتماعى والضعف والتحلل والكارثة . ومراحل هذا النظام تحددها العناية الإلهية لكل مجتمع أممى ، لكن ليس هناك غاية نهائية وليس هناك رؤية لمسيرة الجنس البشرى كله إلى كمال نهائى .[١] ومع ذلك كله نستطيع أن نقول أن نظرية التعاقب الدورى لمراحل التطور عند ڤيكو لا تحول دون التقدم ، على أن نفهم التقدم - كما ذكرنا من قبل - فهماً مختلفاً عن فلاسفة التنوير ، ذلك لأن الدورات التاريخية لا تعود بشكل دائرى بل تعود فى شكل حلزونى متقدم بحيث يمكن القول بأن اطلاق اسم النظرية الدورية على

---

(1) Berlin, Isaiah; Vico and the Idea of the enlightenment; in Vico and Contemporary Thought; p. 262.

نظرية ڤيكو هى تسمية غير دقيقة لأن مفهوم النظرية الدورية يعني أن يعيد التاريخ نفسه وأن يبدأ من نفس البداية التى انطلق منها . ولكن الأمر مختلف عند فيلسوفنا . فالتاريخ لا يسير فى خط دائرى وإنما في شكل حلزونى صاعد بحيث تأتى كل دورة تاريخية بالجديد . ولا حاجة بنا إلى ذكر ما سبق أن فصلناه عن عودة مسار الأمم ، ولكن يكفى الاشارة إلى هذا النص الذى ذكره ڤيكو عن عودة النظام الاقطاعى فى العصور الوسطى الأوربية . " كان من الطبيعى أن يعود المجتمع البشرى إلى النظام الاقطاعى لما وجد فيه من منافع ومكاسب تتطلبها الحياة المدنية . عاد اقطاع العالم الأول - متخذاً بداية جديدة - من الاقطاعات الريفية التى انتشرت في كل الشعوب القديمة "[1] ألا يكفى الاعتراف بالتقدم أن تكون المرحلة الإنسانية هى آخر مراحل التطور التاريخى عند ڤيكو وهى مرحلة مرتبطة بتطور الوعى ونمو العقل ؟ صحيح أن هذه المرحلة - بعد أن تبلغ قمة النضج والتطور والازدهار - تضعف وتضمحل وتسقط فى البربرية مرة أخرى ، ولكنها بربرية تأمل وفكر (حيث مازالت السيطرة للفكر) تختلف كل الاختلاف عن البربرية الحسية الأولى . ولكن الفكر فى هذه المرحلة فكر أجوف لم يعد قادراً على الابداع والابتكار . والسقوط لا يحمل فى طياته إلا العزم على النهوض مرة أخرى من جديد من نقطة أكثر تقدماً . فالتاريخ لا يعيد نفسه بل يأتى دائماً بالجديد ، والبربرية المسيحية - على سبيل المثال - تختلف عن البربرية الوثنية الأولى .

هذه النظرة للتقدم إن دلت على شىء فإنما تدل على فهم عميق للطبيعة البشرية المتغيرة على الدوام . حقاً أن كل الأمم تهدف إلى الوصول إلى حالة من الرفاهية وتحقيق سبل الراحة والسعادة لأفرادها ، ولكن هل يتجه التاريخ بصفة دائمة فى الاتجاه الصحيح لتحقيق هذا الهدف ؟ أن التاريخ يحقق تقدماً إذا سار فى الاتجاه الصحيح الذى حدده له البشر . أما إذا ضل الطريق وانحرف عن المسار

(١) انظر عودة مسار الأمم . الفصل الثانى . الباب الثاني من البحث .

فلا يكون هناك ثمة تقدم ، بل تراجع وارتداد . فالتقدم إذن لا يمكن أن يستدل عليه استدلالاً عقلياً لأنه يخضع لعوامل كثيرة . أننا لا ننكر ما حققه التقدم العلمى والعقلى الهائل من انجازات عظيمة أفادت الجنس البشرى وحققت له الرفاهية ويسرت له سبل الراحة في جوانب كثيرة ومختلفة من حياته . ولكننا من جانب آخر لا نستطيع أن ننكر صدق حدس ڤيكو في الطبيعة البشرية المتغيرة والمنطوية على الصراع ، فلم تنته الحروب من العالم ولم يسد السلام الدائم كما تصور فلاسفة عصر التنوير - والواقع التاريخى يشهد بانفجار الحروب فى مناطق متعددة من العالم ، وموت آلاف بل ملايين الضحايا الأبرياء من ويلات الحروب . ومما لاشك فيه أنه لو قدر لفلاسفة عصر التنوير أن يشهدوا ويلات الحربين العالميتين لكان لهم رأى آخر ومفهوم آخر عن التقدم اللامحدود للبشرية .

ولهذا نستطيع أن نختتم حديثنا عن التقدم بالقول بأن مفهوم ڤيكو عنه كان أكثر عمقاً واقتراباً من الواقع التاريخى . ولو بعث ڤيكو حيا فى أيامنا هذه التى يسودها القلق على الجنس البشرى من أخطار حرب نووية تهدده كل لحظة فلربما وصف هذه المرحلة التاريخية التى نعيشها اليوم بأنها مرحلة سقطت فيها البشرية العاقلة المتقدمة فى بربرية عقلية جديدة . وربما نستطيع أن نقول أخيراً أن ڤيكو قد نظر إلى مفهوم التقدم فى التاريخ نظرة جدلية قبل اكتشاف قوانين التفكير الجدلى بوقت طويل . فقد رأى أن التقدم يمكن أن ينطوى على بذرة التخلف ، كما أن الازدهار ينطوى على بذرة الفناء . ولعل هذا أن يكون دليلاً على حدس غامض بالروح الجدلية ، ولكنه حدس صادق ينمُّ عن بصيرة نافذة بالواقع المتغير والمتطور على الدوام .

الفصـــل الثاني

أثر فيكو
فى الفكر الفلسفى الغربى

الفصل الثانى

" أثر ڤيكو فى الفكر الفلسفى الغربى "

عرضنا فى البابين السابقين منهج ڤيكو وفلسفته معتمدين على النصوص الأصلية بصورة أساسية وبخاصة كما جاءت فى كتابيه " العلم الجديد " و " السيرة الذاتية " . وقد حاولنا أن نقدم الجوانب الأساسية من فلسفته ابتداء من عناصر العلم الجديد ومبادئه ومنهجه إلى ما استخلصه من قانون لتطور الأمم ومحاولة تطبيقه لهذا القانون على الأشكال المختلفة للتنظيمات الإجتماعية فى تطورها عبر العصور التاريخية . ثم تناولنا فى الفصل السابق نظرية المعرفة التاريخية بالتقييم وإلقاء الضوء على جوانبها المختلفة ، وعلينا الآن أن نعرض أثر هذه المعرفة التاريخية فى الفكر الفلسفى الغربى وبخاصة لدى فلاسفة التاريخ اللاحقين لڤيكو .

ويلاحظ مدى كثافة المادة التى قدمها ڤيكو لتدعيم آرائه ومدى غناها وامتداد جذورها فى علوم وفنون وتنظيمات وأشكال مختلفة تؤلف ما نسميه اليوم باسم الحضارة البشرية . لقد كان العلم الجديد كما تركه ڤيكو أشبه بغابة كثيفة تنوعت أشجارها وتشعبت مسالكها وتعقدت دروبها بحيث استعصى على معاصريه أن يهتدوا إلى سبل السير فيها . ولهذا كان من الطبيعى أن تمر سنوات طويلة وتتعاقب أجيال مختلفة قبل أن يفطن الباحثون إلى أهمية ڤيكو وعظمة اكتشافه الذى توصل إليه بعد أن ظل محجوباً خلف تلك المادة الغزيرة التى لم يكن من السهل تبين خيوطها ومعالمها الأساسية . ولما كان اكتشاف ڤيكو على حقيقته قد استغرق زمناً طويلاً واشترك فيه عدد لا يحصى من المؤرخين والفلاسفة وعلماء اللغة والاجتماع والأدب .. الخ مما يصعب تتبعه بصورة دقيقة ، فسوف نكتفى فى هذا الفصل ببيان مدى تأثيره على عدد من أصحاب الاتجاهات المتميزة فى فلسفة التاريخ والاجتماع مع

علماً بأن البحث الوافى لتأثير فيكو على كل واحد من هؤلاء يحتاج إلى دراسة مستقلة ، ومع إدراكنا فى الوقت نفسه بأن محاولتنا لبيان هذا التأثير هو نوع من الاجتهاد ، إذ لم يثبت من كل ما اطلعنا عليه أنه كان تأثيراً مباشراً ومؤكداً اللهم إلا فى الحالات النادرة التى اعترف فيها أصحابها بذلك اعترافاً صريحاً . وسوف نبدأ هذا العرض بالحديث عن تأثيره فى وطنه الأصلى ثم نتتبع هذا التأثير على أبرز فلاسفة التاريخ الذين يُرجح معظم الباحثين أنهم قد اطلعوا على بعض كتاباته أو أعجبوا بها أو قدموها لقرائهم أو أخذوا منها قليلاً أو كثيراً . وسوف نكتفى هنا بالكلام عن تأثير فيكو على كل من هردر وميشليه وكونت وماركس .

✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪

أولاً : فيكو فى الفكر الإيطالى :-

لا نستطيع القول بأن تأثير فيكو فى عصره كان تأثيراً عميقاً . فقد عاش مجهولاً خارج ايطاليا حتى القرن التاسع عشر ، كما لقى التجاهل فى ايطاليا نفسها بحيث لم تتعد شهرته حدود نابولى ، بل لقد جحدته بلدته ومسقط رأسه فتجاهله كل من أهدى لهم العلم الجديد وكأنه كان يدفع الثمن الذى لابد أن يدفعه كل رائد يسبق عصره .

ولا عجب أن يكون مثل هذا المفكر الذى كانت لديه ثروة زاخرة من الأفكار – عجز فى نفس الوقت عن عرضها عرضاً واضحاً منسقاً – لا عجب أن يكون رائداً لكثير من الآراء الجريئة التى قدمها بعض المفكرين المتأخرين الذين فاقوه شهرة . ففى القرن الذى تلا وفاته عبر مفكرون آخرون عن أفكار مشابهة لأفكاره تعبيراً أفضل دون أن يذكره أحد ، إذ جنى عليه غموض أفكاره وصعوبة أسلوبه وغزارة التفاصيل المرهقة التى حشد بها فلسفته ، ولهذا لم يفطن معظم شراحه إلى أصالة

آرائه وتفردها حتى فى عصره . وفى هذا المعنى كتب بول هازار يقول : " لو أن ايطاليا قد استمعت إليه ، ولو أنها - كما حدث فى عصر النهضة - كانت مرشداً لأوروبا ، أفما كان مصيرنا العقلى يمكن أن يكون مبايناً لحالته الراهنة ؟ أجل لو كان الأمر كذلك لما كان أجدادنا أهل القرن الثامن عشر قد صدقوا أن كل ما كان واضحاً كان حقاً ، ولما كانوا صدقوا أن العقل الذى أتى متأخراً ، لم يصنع أكثر من أنه جفف نفسنا ، فقد يكون من الممكن أنهم قد أسفوا على فراديسنا المفقودة ، ولم يصدقوا أنه كان ينبغى أن تنار الأرض فوق سطحها ، بل لآمنوا على الضد بأن ايضاح الأشياء آت من أعماق الزمن ، ولما صدقوا بأننا كنا نتجه نحو مستقبل أفضل ، بل آمنوا على الضد بأن الدول كانت خاضعة لتغيرات متعاقبة تخرجها من البربرية إلى المدنية وتعيدها من المدنية إلى البربرية . وبالإجمال لو كان الأمر كذلك لكانت جميع أفكارهم قد انقلبت كإداركهم للعالم " . ويستطرد بول هازار قائلاً : " ينبغى الاعجاب بهذا البطل من أبطال الفكر، هذا العبقرى المبتدع ، هذا الرجل الذى كان من الممكن أن يمنح نهر العصر مجرى جديداً . عبثاً حاول ڤيكو أن يتجه إلى العلماء وإلى مواطنيه النابوليين . ولكن أوروبا بقيت صماء وأولاها ايطاليا . لم تسمع هذه الدعوة ولم تقبل إلا فيما بعد فقط . أما فى آونتها فقد ظلت بلا صدى ، لأن هذا المجدد لم يكن له تلاميذ ، ولأن فكره كان بلا عمل ، بل أن عشيرته نفسها لم تكن لتستجيب له " .(١)

بدأ الاهتمام بفكر ڤيكو فى ايطاليا فى الربع الأخيرمن القرن الثامن عشر ، فكان كيوكو *Cuoco* أول المبشرين بفكره فى الشمال الايطالى بعد اخفاق الثورة فى نابولى . وقد كانت نتيجة ذلك أن بدأت تظهر سلسلة من طبعات العلم الجديد . ويبدو أن تأثير هذا الكتاب قد تغلغل إلى وعى المثقفين ، فأخذ رواد حركة البعث القومى

(١) بول هازار ، الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر ، ترجمة د . محمد غلاب ، جـ ١ ، ص ٤٧ - ٤٩ .

الايطالى يهتمون بأفكار ڤيكو اهتماماً خاصاً ، وتحمس له الديمقراطيون تحمساً شديداً واعتبروه مؤرخ الشعب . وبعد اكتشاف أمته أنه واحد من أعظم المفكرين ، أساء بعض المفسرين فهم مذهبه ، واختلفت الآراء حول بعض أفكاره بين مؤيد ومعارض وخاصة فيما يتعلق بالأصول الوحشية للأمم الأمية ، كما رأى البعض أن تطور المجتمع كما تصوره ڤيكو بفعل " الدياليكتيك "[١] أو الجدل الداخلى قد عرض البناء الكامل للفكر الكاثوليكى للخطر . أما البعض الآخر فقد رأى أن نظريته فى أصل العقيدة نظرية تنتسب للوكريتوس ولا تمت بصلة للمسيحية ، وأن تحليله لشخصية هوميروس والشخصيات البطولية الأخرى يمكن أن يكون مقدمة خطيرة لتحليل شخصية موسى والأنبياء وآباء الكنيسة تحليلاً يتعارض مع مفهومها الدينى .[٢] وقد عانت أفكار ڤيكو من المبالغة التى بلغت أحياناً حد التعسف فى تفسيرها ، فلم يستطع الفكر الإيطالى فى زمانه أن يتحرر من النزعة العقلية السائدة ليفهم أفكاره ككل حى متكامل لا تستعبده الصيغ المجردة الجوفاء التى استعبدت العقليين . وقد بدأ الاهتمام الحقيقى بفلسفة ڤيكو على يد كروتشه *Croce* وجنتيله *Gentile* ونيكولينى *Nicolini* . وكان كروتشه صاحب الفضل الأكبر فى احياء فكره فى العقد الأول من القرن العشرين ، كما كان له الفضل فى ذيوع شهرته خارج ايطاليا . نشر كروتشه كتابه عن فلسفة ڤيكو سنة ١٩١١ ، وهى السنة التى نشر فيها سيرته الذاتية ، وقام قبل ذلك بعمل ببلوجرافيا عنه استمرت من عام ١٩٠٤ إلى ١٩١٠ . وقد زعم كروتشه أن فيكو هو مكتشف " علم الاستاطيقا " ، قبل باومجارتن . وإذا كانت كلمة الاستاطيقا نفسها لم ترد على لسانه فقد نطقت بها

---

(١) على الرغم من أن ڤيكو لم يذكر كلمة الدياليكتيك ، إلا أن أفكاره عن تطور المجتمع البشرى بفعل الصراعات الداخلية تمثل بشكل أو بآخر نوعاً من الدياليكتيك . وربما يكون هذا هو السبب الذى جعل بعض المفكرين يعتبرونه مبشراً بالفكر الألمانى ، بل ربما يكون هذا أيضا هو سبب استقبال الايطاليين للنزعة الدياليكتيكية الهيجيلية وكأنها نابعة من داخلهم .

(٢) كما يرى Bergin & Fisch فى مقدمتهما للسيرة الذاتية لڤيكو .
انظر Vico; Autobiography; p. 63 .

آراؤه عن الشعر ، وفكرته الرئيسية عن الطبيعة البشرية التى هى بالفطرة طبيعة شاعرية ، وإيمانه العميق بأن أول شكل من أشكال التفكير كما ظهر عند الإنسان البدائى كان هو التفكير بالصور الخيالية الشعرية . وقدم كروتشه العلم الجديد كفلسفة للروح ، فبعد أن هبط أفلاطون بالشعر وطرد الشعراء من جمهوريته ، رفعه ڤيكو وجعله أساس الروح ، بل جعله يمثل مرحلة كاملة من مراحل تطور البشرية .

لقد تحدثنا في فصل سابق عن سوء الحظ الذى لازم ڤيكو فى حياته ، ولكن سوء حظه لازمه مرة أخرى بعد مماته عندما اعتبره بعض المفكرين أحد المبشرين بالفاشية ، وهذه جناية السياسة وزعمائها على المفكرين حين تتخذ من أفكارهم ستاراً تخفى وراءه نزعات الطغيان وفساد الأنظمة وتجرِّد من سوء تفسير آرائهم سلاحاً للاستبداد وتبريراً للظلم ، وأغلب الظن أن هؤلاء لم يطلعوا على الكتاب الأصلى واكتفوا بالاطلاع على مصادر ثانوية مما نتج عنه سوء فهم فلسفته . لذلك كان لابد من تحقيق أعمال ڤيكو تحقيقاً علمياً من واقع الأصول . وهذا ما فعله " نيكولينى " فى ايطاليا ليمهد لدراسة فلسفته دراسة نزيهة بعيدة عن أى غرض فى توجيهها طبقاً للأهواء الشخصية ، وهذا مافعله أيضاً كل من الأستاذين فيش *Fisch* وبرجين *Bergin* فى ترجمتهما للعلم الجديد والسيرة الذاتية التى بذلا فيها جهداً واضحاً وأضافا لكل منهما مقدمة مستفيضة .

وقبل أن نتعرض لتأثير أفكار ڤيكو فى الفكر الأوروبى خارج ايطاليا نود أن نقول أن فكره وفلسفته يمثلان منجماً كبيراً يمكن أن يجد فيه الباحثون ألواناً مختلفة من المعرفة ، كما يمكنهم أن يجدوا لديه أسس أفكار متباينة واتجاهات متنوعة . لقد قدم ڤيكو أفكاراً رائدة طورت فيما بعد وأصبحت مذاهب كاملة . وأثار مذهبه قضايا وثيقة الصلة بمشاكل مازالت موضع نقاش بين المفكرين ولم تحسم حتى يومنا هذا ، ومن ذلك مشكلة الجدل القائم حول طبيعة الدراسات الإنسانية بصفة عامة ، وطبيعة

الدراسات التاريخية بصفة خاصة ، والكثير من القضايا المتعلقة بالماضي التاريخي والاجتماعية . فهناك مثلاً من يؤكد تأثيره على المثالية الألمانية ، والوضعية الفرنسية ، ورواد الانثروبولوجيا الإجتماعية ، والتراث الماركسي ، بجانب أثره على الأبحاث الفيلولوجية ، وعلى علماء القانون وفقهائه . واهتمامه بالبنية الحضارية فى دراسة التاريخ يعد جانباً اهتمت به الفلسفة البنيوية الحديثة ، كما كانت له آراء جديدة فى القانون الطبيعي والتشريع وعلم اللغة المقارن والأدب والأساطير والاثنولوجيا .

وعلى الرغم من أن فيكو لم يكتشف خارج ايطاليا إلا بعد ما يقرب من قرن من وفاته ، وعلى الرغم من إنكار الكثير من الفلاسفة معرفتهم بفلسفته ، فقد كشف كل من *Fisch* و *Bergin* النقاب عن معرفة العديد من المفكرين بكتاب " العلم الجديد " واقتناء بعضهم له أثناء زيارتهم لايطاليا - إذ كانت هذه الأخيرة قبلة المثقفين فى ذلك الزمان - أو عن طريق الاهداء . وسنعرض فى هذا الفصل أثر فيكو على بعض المفكرين الغربيين ، ومن الطبيعى أن نبدأ بالمفكرين الألمان الذين كانوا أول من اكتشفه ، كما كانت لغتهم هى أول لغة يُنقل إليها كتابه الأساسى عن العلم الجديد .

✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪

ثانياً : فيكو فى الفكر الألمانى :-

كان هامان[١] (١٧٣٠ - ١٧٨٨) أول مفكر ألمانى اكتشف فيكو أثناء بحثه فى الاقتصاد السياسى عام ١٧٧٧ ، فقد وجد فى أحد الكتب الايطالية اشارة إلى العلم الجديد وظن أنه سيجد فى هذا الكتاب ما يبحث عنه فى موضوع الاقتصاد ،

(١) هامان *Hamman* مفكر صوفى نشأ فى عصر عقلانى ويطلق عليه اسم " ساحر الشمال " وكان خصماً لعصر التنوير وفلسفة كانط والنزعة العقلانية بوجه عام .

فسعى للحصول على نسخة من فلورنسا ، وأثناء تناوله للكتاب وجد أن فقه اللغة هو الطابع الغالب عليه ، وقد عبر عن هذا فى أحد رسائله لتلميذه هردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣) مؤكداً أنه لم يجد ضالته المنشودة فى الاقتصاد بل وجد فقه لغة .

وقد كان جوته - شاعر ألمانيا الأكبر - من الشخصيات الألمانية التى تعرفت على الكتاب فى وقت مبكر أيضا حيث أهدى له أحد الأصدقاء الايطاليين العلم الجديد أثناء زيارته لنابولى في مارس ١٧٨٧ ولكنه لم يبذل جهداً حقيقياً فى قراءته ، وقد كتب عن ڤيكو سطوراً لا تدل على أنه عرفه على حقيقته أو بذل جهداً فى الاطلاع على الكتاب ، إذ وصفه بأنه مؤلف عميق لا يسبر غوره ، وأن رجال القانون فى ايطاليا يرجعون إليه بحماس شديد ويعتبرونه آباهم الأكبر . ويبدو أن جوته قد ألقى نظرة خاطفة على الكتاب الذى قدمه له أصدقاؤه الايطاليون كأنه كنز ثمين وسجل رأيه - فى يومياته بتاريخ ٥ مارس ١٧٨٧ من رحلته فى ايطاليا - فى قوله " لقد رأيت أنه يحتوى تكهنات عن الخير والعدل الذى سوف يتحقق أو ينبغى أن يتحقق ، وهى تكهنات تقوم على تأمل جاد للحياة والتراث ، وأنه لمن حسن حظ شعبه أن له أبا كبيرا مثله " . وعاد جوته بالكتاب إلى ألمانيا وأعاره عام ١٧٩٢ لياكوبى الذى حرص على الحصول على مؤلفات ڤيكو الأخرى ، ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أنه أطلع على كتاب ڤيكو عن " الحكمة الايطالية القديمة " فوجد فيه فقرة اعتبرها ارهاصاً لفلسفة كانط فى المعرفة وسبقا فى الاهتمام بالجانب القبلى للمعرفة . وقد ترجم ف . أ ڤيبر *W. E. Weber* العلم الجديد إلى اللغة الألمانية عام ١٨٢٢ وطبع مرة أخرى فى ميونخ عام ١٩٢٤ .

هذا بالاضافة إلى أن هردر رحل إلى ايطاليا عام ١٧٨٩ ومكث فى نابولى ثمانية أيام حصل خلالها مادة فلسفته التاريخية - فجمع من الوثائق ما أفاده فى اثبات الوقائع التاريخية - أكثر من المادة التى حصلها من زيارته لروما التى استغرقت ما يقرب من ثلاثة أو أربعة شهور - ولنا عند هردر وقفة فمن المرجح أنه

قد عرف ڤيكو قبل الشروع فى كتابة مؤلفه " أفكار عن فلسفة تاريخ الجنس البشرى " الذى بدأ فى كتابته عام ١٧٨٤ وصدر ١٧٩١ ولكنه لم يذكر ڤيكو صراحة إلا فى كتابه " رسائل عن تنمية النهوض بالنزعة الإنسانية " الذى كتبه فيما بين عامى عامى ١٧٩٣ و١٧٩٧ وقد كتب هردر فلسفته التاريخية فى كتابين صدر الأول عام ١٧٧٤ تحت عنوان " فلسفة أخرى للتاريخ " وقدم فيه صورة عقلية لفهم فلسفة التاريخ متجنباً الوثائق التاريخية ، وصدر الكتاب الآخر عام ١٧٩١ تحت عنوان " أفكار عن فلسفة تاريخ الجنس البشرى " حاول فيه أن يقدم فلسفة التاريخ على أساس علمى معتمداً على الوثائق والوقائع التاريخية .

لسنا بصدد عرض أو تقييم لأفكار هردر التاريخية ، ولكننا سنعرض لتلك الأفكار التى يمكن أن يكون قد تأثر فيها بأفكار ڤيكو . مما لاشك فيه أننا لمحنا عند ڤيكو الرؤية الانثروبولوجية فى تناوله للتاريخ من خلال البحث فى أصل الجنس البشرى وتطور تنظيماته وعاداته وتقاليده ومعتقداته وتشريعاته ... ألخ وقد استقى هذه الأصول مما خلفته الشعوب من تراث شعبى وأساطير ، وهى المادة التاريخية التى توفرت فى عصره ، ولكن الدراسات الانثروبولوجية تطورت بعد ذلك وتشعبت فكانت مادة خصبة قدم هردرد من خلالها أنواعا جديدة من البحوث الانثروبولوجية بعد أن استفاد من الدراسات الغزيرة والمتنوعة التي توفرت فى عصره عن أثر البيئة الجغرافية على السلوك والعادات البشرية وأثرها أيضا على مراحل النمو والتطور الإنسانى وبالتالى نمو الحضارة وتطورها . وتناول كل من ڤيكو وهردر ما يسمى الآن بمشكلة الحضارة الإنسانية ابتداء من الأشكال التعبيرية الأولى للمجتمعات البشرية القديمة كاللغة والأسطورة والفنون ، وهى مشكلة الأصول التاريخية أو بمعنى آخر مشكلة أصول تكوين المجتمع المدنى ، فلابد من العودة إلى هذه الأصول لمحاولة فهم العقول البدائية للبشر الأولين ، ولابد من التعرف على التنظيمات المختلفة التى أسسها الإنسان الأول والتى انتقل بفضلها من حالة البربرية والتوحش إلى مرحلة الإنسانية التى هى هدف التطور التاريخى .

وقد رأينا كيف تناول ڤيكو الأصول التاريخية وأرجع أشكال التعبير المختلفة إلى أصولها الحسية عند الأمم القديمة ، وكيف كشف عن اشتقاقات الكلمات من أصول حسية فى حياة البشر الأولين .(١) ونسأل الآن كيف تناول هردر هذه الأصول التاريخية ؟ لقد اهتم اهتماماً خاصاً باللغة وهى أول شكل من أشكال التعبير البشرى وقدم أبحاثاً فى أصل اللغة الألمانية - مثلما قدم ڤيكو أبحاثاً فى اللغة اللاتينية ووجه دعوة لكل الشعوب لعمل أبحاث فى أصل لغاتها للكشف عن أصولها التاريخية - وأسفرت أبحاث هردر عن تأكيد نتيجة سبق لڤيكو أن أكدها وهى أن الشعر هو اللغة الأم التى سبقت النثر . لقد عبر الإنسان الأول عن احتياجاته اليومية بشكل شاعرى تلقائى فنشأت الأغانى الشعبية للشعوب القديمة وهى - كما يرى هردر - أول شكل من أشكال التعبير اللغوى . ويرى أن هنالك أيضاً شكلاً آخر من أشكال التعبير الأولى وهو الأسطورة ، فقد كانت الشعوب القديمة تتحدث بالشعر وتفكر بالأساطير ، ولم تكن الأساطير حكايات خرافية يقول بها الإنسان الأول ، بل كانت الأسطورة رمزاً يعكس الحياة العقلية والاجتماعية لهؤلاء البشر ، فكل الشعوب البدائية فى محاولتها لفهم العالم رسمت صورة للكون على هيئة أساطير اصطبغت بلون من ألوان اللاهوت . يترتب على هذا أن العصور التاريخية الأولى لا تفهم بالتحليل العقلى بل بالتعاطف الوجدانى ، ولا تفهم بالتحليل المنطقى بل بالحدس ، ولابد للمؤرخ أن يكون فناناً يتمتع بالحس التاريخى والخيال الخصب والبصيرة النفاذة ليلتمس طريقه إلى الحياة الداخلية لهذه الشعوب القديمة التى لم تصل بعد إلى مرحلة النمو العقلى . لذا حذر هردر - كما سبق وحذّر فيكو - المؤرخين من الحكم على العصور التاريخية المبكرة على أساس ثقافة عصرهم ، وحثهم على ما سماه بالتعاطف مع هذه العصور ومشاركتهم أفكارهم البدائية مشاركة وجدانية : " ادخل فى صميم العصر وفى جغرافيته وتاريخه كله واشعر بأنك تعيش فيه حقاً " .(٢)

---

(١) انظر المنطق الشعرى (الفصل الثانى - الباب الثانى من هذا البحث)

(٢) ايمرى نف ، المؤرخون وروح الشعر ، ترجمة ، د . توفيق اسكندر . ص ٣١ .

وعلى الرغم من انتماء كل من فيكو وهردر إلى عصر التنوير - هذا العصر الذى سادت فيه النزعة العقلية التى بلغت حد اخضاع النصوص الدينية للنقد العقلى - إلا أنهما رفضا النظر إلى الإنسان من جانب واحد أو من حيث هو ملكة واحدة وهى العقل . ففى مقابل هذا العقل توجد ملكة أخرى لا تقل عنه أهمية وهى الخيال ، بل والأبعد من ذلك تأكيدهما أن نشأة التنظيمات البشرية كانت بملكة الخيال وحده ، وقبل أن تتطور الملكة العقلية . لقد عبر الإنسان الأول عن نفسه من خلال انفعالاته وعواطفه لا عن طريق التفكير العقلى المنطقى : " بما أن العقل المجرد قد أدى وحده إلى مغامرات فاشلة كثيرة ، أو لا يحسن أن ندعو إلى نجدته الخيال والشعور والدافع إلى العمل حتى نشرك الإنسان كله بعد أن قصرت حركة الاستنارة موارده على ملكة واحدة ؟ ان الابداع الشعرى والفنى لا يأتى وحده من أركان النفس المظلمة " .(١)

هناك جانب آخر يرجح أن يكون هردر قد تأثر فيه بأفكار فيكو ، وهو أن كليهما يقول بالنظرية الدورية فى التاريخ . يرى فيكو أن التاريخ يتطور من خلال مراحل ثلاث : المرحلة الإلهية ، المرحلة البطولية ثم المرحلة البشرية ، كما شرحنا ذلك بالتفصيل في قانون تطور الأمم . ويرى هردر أن التطور التاريخى يمر بمراحل أربع هى نفس المراحل التى يمر بها تطور الفرد وهى : الطفولة ، والشباب ، والرجولة وأخيراً الشيخوخة ، وهذه المراحل الأربع تتتابع بشكل دورى متصل ، فكل دورة منها تفضى إلى الأخرى ، أى أن التطور لا يسير فى خط مستقيم ، بل فى خط دائرى ، وهناك تشابه فى بعض المراحل التاريخية المتماثلة إلا أنه ليس تشابهاً مطلقاً لأن كل مرحلة لها طابعها المتفرد . ويسيرالتطور التاريخى دائماً نحو التقدم رغم ما تمر به الدورات التاريخية من فترات ضعف وانحلال وسقوط ، ولكنها تعود لتبدأ من جديد بصورة أكثر تقدماً ، فالتاريخ لا يعيد نفسه . نلحظ هنا الفارق بين

---

(١) المرجع السابق . ص٥٤ .

نظرة كل من ڤيكو وهردر للدورة التاريخية ، فالدورة عند هردر دورة حيوية على غرار الدورة العضوية ، وهو يشبه التطور التاريخى بصورة من الحياة النباتية مثل حياة الشجرة التى تنبت ثم تشب ثم تترعرع ثم تذبل ، والدورة لا تنتهى بالانحلال وإنما تبدأ من جديد ، فعادة تتساقط البذور من الشجرة عند ضعفها وتبدأ دورة الحياة النباتية من جديد . وهكذا تتوالى الدورات التاريخية عند هردر ، بينما لا نرى هذه النظرة الحيوية عند ڤيكو بما تتسم به هذه النظرة من ضعف . فليس صحيحاً لأن الدورة التاريخية تشبه الدورة العضوية النباتية لاختلاف طبيعة كل منهما من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن هذا التشبيه يناقض ما قال به هردر عن تقدم التاريخ ، فمن الطبيعى عندما تتساقط بذور الشجرة عند ضعفها وتبدأ دورة الحياة النباتية من جديد ، من الطبيعى أن تعود هذه الدورة كما كانت تماماً وليس فيها جديد لأنها تبدأ من نفس النقطة الأولى وتنتهى إلى نفس النهاية ، فالدورة النباتية تعود كما هى ولا تأتى بجديد ، وهذا يناقض تماماً الدورة التاريخية التى لا تبدأ من نفس البداية ولكن من نقطة أكثر تقدماً ، فهناك تجدد بصفة دائمة فى مجال التاريخ .

ويطبق هردر قانون التطور على تاريخ الحضارات ، فيرى أن الشعوب الشرقية القديمة تمثل طفولة الجنس البشرى فهم رحل لا يعرفون الاستقرار ولا القانون ، ويحترفون الرعى وتسود بينهم السلطة الأبوية والاستبدادية ، وتمثل الحضارة المصرية القديمة مرحلة الشباب وقد تميزت بالاستقرار والخضوع للقوانين واحتراف السكان للزراعة ، وعاش الفينيقيون فى نفس المستوى الحضارى من حيث الانتظام فى العمل فى البحار ، وتواصل البشرية تقدمها وتأتى المرحلة الثالثة من التطور وهى مرحلة الرجولة والنضج الحضارى ويمثلها العصر اليونانى الذي يرتقى بالفكر والحضارة الإنسانية مُعبراً عنها فى فنون تمثلت فى ثلاث كلمات : الحياة والايحاء والحركة . فالفن اليونانى يتطور مع الحياة ويتميز بالحركة لأنه فن يعبر عن حياة كلها أمل وحرية ، ثم تأتى المرحلة الرابعة وهى الشيخوخة وتمثلها الحضارة

الرومانية حيث استبد الحكام وحققوا انتصارات زائفة واستعبدوا الشعوب المهزومة وانغمسوا فى مظاهر الترف إلى أن انهارت وسقطت الامبراطورية الرومانية ، بهذا انتهت دورة من التطور وقام على أنقاضها عالم جديد . وبدأت دورة جديدة تبدأ المرحلة الأولى منها من الغزوات البربرية الجرمانية للأمبراطورية الرومانية ، ولم تتقدم المعرفة الإنسانية فى هذه المرحلة ولكن هردر يعلى من شأنها ويرى أن بفضلها سادت بعض الفضائل مثل الشجاعة والقوة ويقظة الضمير . وتمثل القرون الوسطى الأوربية المرحلة الثانية وفيها ساد الدين المسيحى وتحول المجتمع إلى مجتمع اقطاعى زراعى ، وكانت البطولة والحروب هى الصفات المميزة لهذه المرحلة ويعدُّها مرحلة انسانية حية تتميز بالقوة والحركة وتمهد لمرحلة ثالثة هى فترة الاصلاح الدينى ، وهى الفترة التى ازدهرت فيها الحضارة والعلوم والفنون والآداب - على حد تعبير هردر - ويمثل القرن الثامن عشر المرحلة الرابعة من مراحل التطور وهى الشيخوخة ، وفى هذه المرحلة الأخيرة سادت الروح المادية والروح الاستعمارية وعدم احترام القيم الإنسانية ، فقد تحولت بعض الدول الأوروبية - مثل فرنسا - إلى دول استعمارية ، وتحول الرق من استعباد للأفراد إلى استعباد للشعوب(١) وهذا موقف مناقض لعصر التنوير الذى ينتسب إليه هردر ، فبينما يرى فلاسفة التنوير أن القرن الثامن عشر هو عصر ازدهار وتقدم لا محدود ، يرى هردر أنه عصر أفول وتدهور للحضارة ، ولكن ليست هذه هى آخر مراحل التطور فالشيخوخة تبشر دائماً بالأمل فى ميلاد جديد لأن الدورات التاريخية دائمة التجدد .

وهناك جانب أخير يرجح أن يكون هردر قد تأثر فيه بأفكار ڤيكو ، فقد اتفق كلاهما فى القول بالعناية الإلهية ، ووصف ڤيكو علمه الجديد بأنه " لاهوت عقلى مدنى فى العناية الإلهية " كما شرحنا ذلك من قبل فى الفصول السابقة وبينا أن العناية الإلهية تتدخل تدخلاً غير مباشر في مسيرة الأمم الأممية . ومع أن أقوال

(١) د . عبد العزيز عزت ، فلسفة التاريخ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٨ .

هردر عن العناية الإلهية تفتقر بوجه عام إلى الاتساق وتختلف من كتاب إلى آخر ، فيمكننا أن نقول بوجه عام أنه يرى أن الله موجود في الطبيعة والتاريخ ، وأن الله - الذى يريد دائماً خير الجنس البشرى - نظم التاريخ تنظيماً دقيقاً ، وأن التاريخ البشرى وكذلك التاريخ الطبيعي مظهران على وجود الله " أن الله الذى أبحث عنه فى التاريخ لابد أن يكون هو الله نفسه الموجود فى الطبيعة لأن الإنسان ليس إلا جزءاً صغيراً من الكل ، وتاريخه كتاريخ الدودة نسج من النسيج الذى يعيش فيه " .(١) لقد وضع الإنسان فى مقابل الطبيعة ، فإذا كان نيوتن استطاع أن يكتشف قوانين العالم الطبيعى فإن العالم الإنسانى يحتاج إلى من يكتشفه أيضاً . ويبدو هنا أن هردر أسند لنفسه نفس المهمة التى أعلن فيكو أنه سيقوم بها وهى اكتشاف عالم التاريخ ، وإذا كان بيكون قد وجه الاهتمام للطبيعة الكونية فأنه أخذ على عاتقه اكتشاف الطبيعة البشرية ، وإذا تأملنا كلام هردر نجده يقوم بنفس المهمة وإن استبدل باسم بيكون اسم نيوتن ، وبذلك ينقل فكرة التطور الخاضع للقوانين الطبيعية إلى مجال التاريخ الذي يتصوره فى صورة " تاريخ طبيعي للقوى والأفعال والدوافع البشرية حسب المكان أو الزمان " .(٢)

وحد هردر بين العناية الإلهية والتقدم فى التاريخ ، فهى عناية مباطنة للتاريخ ولكنها لا تسيره لأنه يخضع لقوانين حتمية مثله فى ذلك مثل العالم الطبيعى ، ويعمق هردر فكرة التقدم المألوفة فى عصر التنوير تعميقاً جدلياً ويبين تناقض التطور الاجتماعى مؤكداً قيمة كل عصر تاريخى فى ذاته وقيمة انجازاته الحضارية المتفردة . وتحقيق الإنسانية هو النتيجة التى تتمخض عن هذا التطور الذى يخضع لقوانين ضرورية ، إذ تنمو هذه الإنسانية عبر التاريخ لتحقيق الغاية النهائية منه وهى إنسانية الجنس البشرى ، وتتمثل فى صورة واقعية تاريخية فى زيادة سيطرة الإنسان على الطبيعة وتطور التقنية والعلوم والفنون ، وتحرر الإنسان من بعض

---

(١) كتاب الأفكار . جـ ١ . فصل ١٤ . ص٢٤٤ (عن معجم الفلاسفة ، برلين ، ١٩٨٣ ، ص ٣٨٦) .
(٢) المرجع السابق . جـ ١ . فصل ١٤ . (المصدر السابق) .

أشكال الحكم التى تعوق النمو الحر لطاقاته وملكاته الأساسية . هنا يبدو الأمر مختلفاً عما ذهب إليه ڤيكو ، فعلى الرغم من قوله بالعناية الإلهية فى التاريخ ، وعلى الرغم من أن هذه الفكرة يشوبها الغموض ، إلا أنه لم يجعلها غاية التاريخ . وقد فرّق بين عناية متعالية على التاريخ عند الأمم الأممية ، وعناية مباطنة للتاريخ كما فى التواريخ المقدسة ، لذلك استبعد التاريخ المقدس من دائرة بحثه ولا يمكن أن يعد من أصحاب التاريخ الكنسي كبوسويه وأوغسطين ، وربما كان استبعاده للتاريخ المقدس ليؤكد بحرية كاملة وبعيداً عن سلطة الكنيسة مبدأه الأساسى وهو أن الإنسان يصنع التاريخ وفى أثناء صنعه له يصنع انسانيته ويؤكدها ، فالإنسان هو موضوع التاريخ وهدفه . هذه الفكرة المحورية لانجدها عند هردر ، ومع ذلك لا نريد الآن أن نقطع برأى عن موقفه من العناية الإلهية لعدم اتساق أفكاره فى هذه المسألة ، إذ يتردد فى كتاباته بين التأليه ووحدة الوجود والقول بأن الألوهية لا تعدو أن تكون إلا التقنين الذى يسير الطبيعة والتاريخ . وفى النهاية نقول أن هذه بعض الأفكار الرئيسية لفلسفة هردر التاريخية دون الافراط فى التفاصيل لأنها ليست مجال بحثنا ، وقد عرضنا فقط لتلك الأفكار التى بدت لنا مشابهة إلى حد كبير لأفكار ڤيكو . وعلى الرغم من انكار هردر معرفته بڤيكو إلا بعد عشرين عاماً من وضعه لفلسفته التاريخية ، إلا أن الأستاذين *Bergin & Fisch*[1] يؤكدان معرفته له قبل الشروع فى كتابة مؤلفه " أفكار عن فلسفة تاريخ الجنس البشرى " . وعلى الرغم من تأثر هردر بفكر وفلسفة ڤيكو فمازال هذا التأثر يفتقر حتى الآن إلى الدليل المادى ، ومع ذلك فإننا نجد الدليل الفكرى فى آرائه فى التاريخ التى تطابقت وتشابهت إلى حد بعيد مع فلسفة ڤيكو الذى سبقه على الطريق الذى تصور هردر أنه لم يسبقه أحد فى السير عليه .

✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪✪

---

(١) فى دراسة دقيقة قاما بها فى مقدمة ترجمة سيرة ڤيكو الذاتية ، وتتبعاً فيها رحلة الكتاب أى " العلم الجديد " فى معظم الدول الأوروبية من خلال رسائل غير منشورة متبادلة بين كبار المفكرين .

ثالثاً : ڤيكو فى الفكر الفرنسى :-

لو اتجهنا الآن للفكر الفرنسى لوجدنا تأثير ڤيكو على اثنين من أعلام الفكر الفرنسى وهما المؤرخ الكبير ميشليه ، مؤرخ الثورة الفرنسية ، ومؤسس الفلسفة الوضعية أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) وقبل أن نتعرض لهما بالتفصيل ، نود ألا نغفل ما يرجحه بعض الباحثين من تأثر فيلسوف " روح القوانين " مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٩) وفيلسوف العودة للطبيعة روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) بفيلسوفنا الايطالى ، وان كان كلاهما لم يذكره صراحة فى كتاباته . فقد زار الأول ايطاليا عام ١٧٢٨ وكان كتاب روح القوانين لازال يتخلق فى عقله ولم ير النور بعد ، وفى البندقية أخبره صديقه أنطونيو كونتى بأهمية كتاب ڤيكو وأهم أفكاره الرئيسية وحثه على اقتناء نسخة من الكتاب . وحصل مونتسكيو بالفعل على نسخة من الطبعة الأولى للعلم الجديد ومازالت هذه النسخة موجودة فى مكتبة *La Bréde* . ولعل التشابه الكبير بين مبادئه وأفكار ڤيكو فى خضوع المجتمع المدنى لقوانين قد أقنعت بعض الباحثين أنه لابد قد اطلع على الكتاب ، خاصة فى محاولته اخضاع العلوم الإنسانية لقانون محكم فى كتابه " روح القوانين " ، فضلاً عن أن اهتمامه بالبيئة الجغرافية والبيئة الإجتماعية وما تشمله من عادات وتقاليد ، وتنظيمات سياسية واقتصادية ودين وقانون وأخلاق ، كعوامل مؤثرة فى نشأة المجتمعات البشرية ، دعا بعض الباحثين للاعتقاد بأن مونتسيكو قد اطلع ولو بصورة عابرة على العلم الجديد .

أما عن روسو فقد عمل فى ايطاليا بين منتصف عام ١٧٤٣ ومنتصف عام ١٧٤٤ لمدة ثمانية عشر شهراً سكرتيراً للسفارة الفرنسية فى البندقية ، وكانت فى ذلك الوقت أكبر سوق تجارى للكتاب فى ايطاليا ، ومن المرجح أن روسو حصل على نسخة من الطبعة الثالثة للعلم الجديد التى ظهرت فى فترة وجوده فى ايطاليا ، وهى أيضا الفترة التى وضع فيها التصور الكامل لخطة كتابه الهام " التنظيمات السياسية " . وفى عام ١٧٤٩ بدأ بحثه عن أصل اللغات ، وفى الأجزاء الستة الأولى

منه أعاد الأفكار الرئيسية لنظرية ڤيكو فى أصل اللغات الصامتة والهيروغليفية ، وسبق الشعر للنثر ، وأن اللغة المتخيلة أسبق فى الوجود من اللغة المجردة النقية ، ومن المرجح أن تكون فكرته الرئيسية عن أصل اللغة كمفتاح للمجتمع المدنى مأخوذة من ڤيكو بالرغم من عدم الاشارة إليه فى أى موضع . وإذا اتجهنا إلى ميشليه (١٧٩٨ - ١٨٧٤) المؤرخ الفرنسى الشهير وجدناه على النقيض يعترف فى مقدمة كتابه " تاريخ فرنسا " بفضل الفيلسوف الايطالى ويقول " ليس لى أستاذ غير ڤيكو " . لقد اكتشفه ميشليه فى يناير ١٨٢٤ أثناء قراءته لأحد الكتب المترجمة ووجد فيه جزء عن ڤيكو شجعه على معرفة المزيد عنه ، وفى يوليو من العام نفسه تعلم ميشليه الايطالية ليطلع على النص الأصلى . أعجب ميشليه بالفكرة الرئيسية عند ڤيكو ألا وهى أن الطبيعة البشرية تصنع نفسها بنفسها وتحمس لها فجعلها محور تفسيره لتاريخ فرنسا ، فهذه الفكرة تتضمن أن الحضارة بما تشمله من أدب وفن ودين وقانون واقتصاد وسياسة هى نتاج جماعى للإنسانية ، وأن تطور التاريخ والإجتماع ليس إلا سجلاً لمحاولة البشر للخروج من حالة التوحش الأولى إلى الحالة الإنسانية . فالتاريخ ليس إلا سجلاً للصراع اللامتناهى للإنسان ضد الطبيعة ، والروح ضد المادة ، والحرية ضد الهمجية ، هذه النظرة للتاريخ كصراع الحرية ضد الهمجية يتطابق فيها ميشليه مع تصور ڤيكو للإنسان كصانع لتاريخه وأصبحت هى الفكرة السائدة فى مؤلفه الكبير " تاريخ فرنسا " . وفى عام ١٨٢٤ ترجم ميشليه " مختارات من العلم الجديد " ، وأعيد طبع هذه الترجمة عام ١٨٣٥ ومعها ترجمة لسيرة ڤيكو الذاتية وبعض من أعماله الأخرى وخطاباته ، فاهتم الفكر الفرنسى بأفكاره وحاز اعجاب الأدباء والمفكرين من أمثال شاتو بريان وكوزان فى منتصف القرن التاسع عشر . وقد كتب روبرت فلنت عام ١٨٤٤ عن هذه الترجمة فقال : " لا يوجد مكان خارج ايطاليا درس فيه ڤيكو بتعاطف مثلما حدث فى

فرنسا ، وهو يدين بالشهرة التى يتمتع بها فى أوربا لكتاب ميشليه " مختارات من العلم الجديد " فقد حاول فى ترجمته أن يستشف بتعاطف واخلاص روح مؤلفه وجوهره ، ونجح فى هذا إلى حد أن أصبحت الترجمة الفرنسية أكثر تشويقاً وفائدة من النص الأصلى ، فكانت الترجمة نفسها عملاً عبقرياً " .

ولعل أهم اتجاه ظهرت فيه أفكار ڤيكو واضحة وخاصة فيما يتعلق بقانون تطور الأمم هو الاتجاه الوضعى الذى يمثله أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) ، فإذا كان ڤيكو يمثل عقل عصر النهضة المتأخر فهو أيضا يعد رائداً لمفكرى القرن التاسع عشر ، لقد كان أثره عميقاً على المدرسة الوضعية الفرنسية بزعامة أوجست كونت الذى اعترف فى أحد خطاباته لجون ستيوارت مل أنه قرأ ڤيكو ورأى فى بعض مسلماته - على حد قوله - خطوة أولى نحو التطور الحقيقى للمجتمع ، وأن أفكاره أيدت رأياً كان قد أبداه فى كتابه " الفلسفة الوضعية " ، بل واعترف بتفوقه على كوندورسيه ، ورأى كونت أن القيمة الحقيقية لفلسفة ڤيكو تكمن فى الفهم العميق الصحيح - فى معظم الأحيان - للفلسفة التاريخية للغة ، ومنذ ذلك الحين أصبح كتاب ڤيكو من الكتب التى يتناولها الوضعيون بالدراسة . ولسنا بصدد عرض لفلسفة أوجست كونت الوضعية ولكننا سنلقى الضوء على الجوانب المشابهة لفلسفة ڤيكو التاريخية وهى الأفكار الخاصة بقانون الأحوال الثلاثة لتطور المجتمعات ، فكلاهما استخلص قانوناً من ثلاث مراحل لتفسير التغيرات التاريخية . تنقسم فلسفة كونت إلى قسمين : القسم الأول خاص بدراسة قوانين حركة المجتمعات البشرية وهو ما يسميه بالديناميك الإجتماعى *Social Dynamics* الذى يكشف عن تقدم الإنسانية وتطورها ، ويتناول القسم الثانى دراسة المجتمعات البشرية فى حالة استقرارها وثباتها فى فترة معينة من تاريخها وهو ما يطلق عليه الاستاتيكا الإجتماعية *Social Statics* وسنلقى الضوء على القسم الأول لما وجدنا فيه من تشابه كبير بين ما يتناوله كونت فى هذا القسم وبين ما انتهى إليه ڤيكو من دراسة

أصول المجتمعات البشرية القديمة ، فقد انتهى هذا الأخير إلى قانون يحكم تطور المرحلة البطولية وأخيراً المرحلة البشرية ، وهذا يذكرنا بقانون الأحوال الثلاثة الشهير لاوجست كونت. ومن المعروف أن هذا القانون الأخير يبدأ بالمرحلة اللاهوتية ثم المرحلة الميتافيزيقية وأخيراً المرحلة العلمية ، ولما كان كونت قد اطلع على " العلم الجديد " كما ثبت ذلك من خطابه لجون ستيوارت مل ، فمن المرجح أن يكون قد تأثر بفيلسوفنا كما يتضح ذلك من القسم الأول من فلسفة كونت الذى يتناول البحوث الديناميكية الإجتماعية التى تدور حول نظريتين أساسيتين هما : نظريته فى قانون الأحوال الثلاثة ، ونظريته فى تقدم الإنسانية . فقد انتهت دراسته للديناميك الإجتماعى إلى الكشف عن قانون عام يحكم تطور المجتمعات وهو قانون من أحوال ثلاثة يتتبع تطور العقل البشرى فى إدراكه لفروع المعرفة ، الحالة الأولى هى الحالة اللاهوتية أى المرحلة الدينية التى اعتمد فيها الإنسان على تفسير الظواهر تفسيراً غيبياً ونسبتها إلى قوى خارجية كالآلهة . والحالة الثانية هى الحالة الميتافيزيقية التى تطور فيها العقل إلى مرحلة أرقى من الأولى وفسر الظواهر بنسبتها إلى معان مجردة أو قوى ميتافيزيقية لا يقوى على اثباتها . وأخيراً الحالة الثالثة وهى المرحلة العلمية التى تطور فيها العقل تطوراً علمياً فى تفسيره للظواهر ونسبتها إلى القوانين التى تحكمها والأسباب المباشرة التى تؤثر فيها . ولقد شبه كونت تطور العقل البشرى بالتطور العضوى للفرد ، فالمرحلة اللاهوتية أو الدينية تمثل مرحلة الطفولة ، والمرحلة الميتافيزيقية تمثل مرحلة الشباب ، أما المرحلة العلمية أو الوضعية وهى آخر مراحل التطور فتمثل مرحلة الرجولة والنضج .

ويستدل كونت على صحة قانونه بالرجوع إلى تاريخ العلوم من ناحية وتاريخ الإنسانية من ناحية أخرى متمثلاً فى تاريخ الفنون والنظم والقانون والسياسة والأخلاق وتاريخ الحضارة بوجه عام ، فكل تطور عقلى لابد أن يتبعه تطور فى جميع الأنشطة البشرية ، كما أن كل تطور فى الحياة الاجتماعية لابد أن يصاحبه

تطور عقلى . وهكذا يكون التطور أو التقدم كما يعنيه كونت متجهاً إلى هدف معين ، وفى سبيل تحقيق هذا الهدف لابد أن يخضع هذا التقدم لقوانين . فانتقال الإنسانية من مرحلة إلى مرحلة لابد أن يكون تقدماً نحو ما هو أفضل ، ويتضح هذا التقدم فى مظهرين : تقدم فى الحالة الإجتماعية وهو ما يسميه بالتقدم المادى ، وتقدم فى الطبيعة البشرية وهو ما يسميه بالتقدم العقلى ، أي أن التقدم لابد أن يسير على مستويين ، تقدم مادى يصاحبه ارتقاء فى المعايير العقلية والأخلاقية والجمالية وما إليها من المعنويات التى لا غنى عنها فى الحياة الإجتماعية ، وإذا كان التقدم يسير فى خط مطرد فإنه يتخلله الكثير من الصعاب وتعترضه الأزمات ، ولكن لابد من التدخل الإنسانى لتحقيق تقدم أسرع ليعجل بمجىء مرحلة من المراحل كان لابد لها أن تأتى حتى ولو لم يتدخل الإنسان .[1]

وكما درس كونت الحياة البشرية فى حركتها الديناميكية فقد عرض أيضا لدراسة حالتها الاستاتيكية وهى القسم الثانى من فلسفته الذى تناول فيه دراسة المجتمعات الإنسانية فى حالة استقرارها باعتبارها ثابتة فى فترة معينة من تاريخها . وشملت دراسته الجوانب السياسية والاقتصادية والأخلاقية والدينية ، والهدف من هذه الدراسة هو الوقوف على القوانين التى تحكم تماسك هذه المجتمعات ، والنقطة الأساسية التى بدأ منها هى حقيقة هامة ، وهى ان الإنسان كائن اجتماعى بالفطرة . لذلك نقد نظريات التعاقد الاجتماعى ، فحالة الاجتماع هى الحالة الطبيعية الأولى للإنسان . والمهم فى هذا السياق أن كونت أكد أن الإنسان كائن اجتماعى بالفطرة ، وهذا ما سبق أن أكده فيكو تأكيداً واضحاً فى " العلم الجديد " ، ويكفى أن نرجع للمسلمة رقم (٨) التى تنص على " أن الجنس البشرى كان منذ بدايته الأولى يحيا حياة اجتماعية ، فالإنسان كائن اجتماعى بطبيعته " . ومنهج كونت فى دراسة المجتمع البشرى هو المنهج العلمى التجريبى الذى يعتمد على

---

(١) د . مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، ص ٢٣٩ – ٢٤٢ .

الملاحظة والتجربة ثم يتبع المنهج المقارن والمنهج التاريخى . والملاحظة الإجتماعية ليست كالملاحظة العلمية مقصورة على الإدراك والوصف المباشر ، ولكن هناك دراسة العادات والتقاليد والآثار ومظاهر التراث الأخرى ، وتحليل ومقارنة اللغات والوثائق والسجلات التاريخية ، ودراسة التشريعات والنظم السياسية والإقتصادية وما إليها ، فلاشك أن هذه المصادر تقدم مواد غنية نافعة تساعد على الكشف العلمى . وتقوم التجربة على دراسة ظاهرتين متشابهتين فى كل الأحوال ومختلفتين فى حالة واحدة لاستنتاج أثر هذه الحالة التى تسببت فى اختلاف الظاهرتين ومدى تأثيرها فى الظواهر الأخرى . ثم يتبع كونت المنهج المقارن الذى يقوم على مقارنة المجتمعات البشرية بعضها ببعض لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف بينها ، وقد تكون المقارنة فى نطاق المجتمع الواحد وقد تتخذ المقارنة صورة أعم وأشمل وهى مقارنة جميع المجتمعات البشرية ككل بالإنسانية ذاتها فى مرحلة أخرى للوقوف على مبلغ التقدم الذي تخطوه الإنسانية فى كل طور من أطوار تقدمها . ويعتبر كونت المنهج التاريخى هو آخر حجر فى بناء المنهج الوضعى ، ويسميه بالمنهج السامى أى المنهج الذى يكشف عن القوانين الأساسية التى تحكم التطور الإجتماعى للجنس البشرى باعتبار أن هذا الجنس وحدة واحدة تنتقل من مرحلة إلى أخرى أرقى منها .[1] ومن الواضح أن منهج كونت فى دراسة المجتمع البشرى ليس بالمنهج الجديد ، فقد سبقه ڤيكو إلى هذا المنهج بأكثر من قرن من الزمان عندما أعلن من البداية أنه ينتهج المنهج العلمى التجريبى على غرار منهج بيكون ، واستخدم أيضاً كل الوثائق والسجلات التى خلفتها الأمم القديمة واعتمد على فقه اللغة للكشف عن حياة المجتمعات الأولى من تطور الاشتقاقات اللغوية فى عصر لم تتوفر فيه المادة التاريخية الكافية ولم يتقدم علم الآثار ليكشف عن حضارات فى طى النسيان ، فلا عذر إذن لفلاسفة ومفكرى القرن التاسع عشر الذين وجدوا فى متناول يدهم التاريخ الحقيقى للحضارات التى اكتشفها علم الآثار . وإذا كان كونت قد زعم أنه استخدم المنهج

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٥ - ٢٣٨ - ٢٣٩ .

المقارن فإنه منهج مقارن بالاسم فقط لا بالفعل ، لأنه صنف الشعوب ورتبها من البسيطة إلى الأكثر تقدماً ، وكونت مثله مثل فلاسفة عصره الذين حاولوا بأساليب عديدة إثبات ضرورة التقدم فى التاريخ بتصنيف الشعوب بشكل عقلانى ، فجاءت فكرة التقدم لديه مستنبطة من العقل الديكارتى لا بالاستناد إلى التاريخ الحى ، فقد أكد فى أكثر من موضع أن التاريخ بلا أحداث فالتاريخ الكامل ليس به أسماء ولا شخصيات ولا أحداث ولا أماكن ولا تواريخ ، وأن السجلات التاريخية كشاهد على مسار الأحداث بين الشعوب والأمم لا تثبت مبدأ التقدم ، وأقر بحقيقة المبدأ الأكبر للتقدم وأنه لم يكن ولن يكون أبداً فى تواريخ فعلية لشعوب منفردة ، وهذه النتيجة التى انتهى إليها كونت عكس ما انتهى إليه ڤيكو الذى كان أكثر واقعية فى نظرته لتفرد الشعوب والحضارات واهتمامه بالخصائص النوعية لكل حضارة ولكل أمة على حدة .

من هذه اللمحة السريعة عن فلسفة كونت فى تطور المجتمعات البشرية نجد أن فكرة قانون الأحوال الثلاثة الذى يزعم كونت أنه من اكتشافه هى فكرة ليست بالجديدة ، فقد سبقه ڤيكو بقانون تطور الأمم وهو القانون الذى يفسر التغيرات التاريخية ، وإن كان أكثر منه حساً بالتاريخ عندما فسر المجتمعات البشرية كمجتمعات متفردة جزئية ، بينما عرض كونت للإنسانية بوصفها كلاً لا يتجزأ فلم يستطع أن يتخلص من تأثير العقلانية الديكارتية ، وكان أميل إلى التعميم والتجريد فى تناوله للإنسانية ككل بدلاً من تناول ظواهر حضارية نوعية ومتنوعة كما فعل ڤيكو من قبله ، والواقع أنه ليس هناك إنسانية بل مجتمعات إنسانية أى مجتمعات جزئية مختلفة ، وهكذا تصور كونت التاريخ تصوراً مجرداً ووصفه بأنه تصور علمى ووضعى ، ودافع عن فكرة التقدم فى التاريخ الإنسانى شأنه شأن فلاسفة عصر التنوير ، أى التقدم الذى يسير فى خط مستقيم لأنه تصوره تصوراً عقلياً قبل كل شىء .

٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

رابعاً : ڤيكو فى التراث الماركسى :-

تكلمنا فى الفصول السابقة عن المبدأ الأساسى فى نظرية المعرفة عند فيكو وهو أن البشر لا يعرفون إلا ما يصنعون ، وأن الإنسان كائن تاريخى لأنه صانع هذا التاريخ . وقد تحدثنا فى الفصل السابق بشىء من التفصيل عن نظرية المعرفة ، ونود أن نشير هنا اشارة موجزة عن تأثيرها على التراث الماركسى ولا سيما أن كارل ماركس قد أشار إلى أهمية فيكو في أحد هوامش الجزء الأول من "رأس المال" فكتب يقول : " لقد أثار داروين اهتمامنا بتاريخ التكنولوجيا الطبيعية أى بتطور أعضاء النباتات والحيوانات باعتبارها أدوات منتجة تحافظ على حياة هذه الكائنات ، ألا يستحق تاريخ الأعضاء المنتجة للإنسان فى المجتمع - أى هذه الأعضاء التى هى الأساس المادى لكل نوع من أنواع التنظيم الاجتماعى - ألا تستحق هى أيضا مثل هذا القدر من الإهتمام ؟ ولما كان أساس التمييز بين التاريخ البشرى والتاريخ الطبيعى كما يقول فيكو هو أن الأول من صنع الإنسان على حين أن الثانى ليس كذلك ، ألا تكون كتابة تاريخ التكنولوجيا البشرية أسهل بكثير من كتابة تاريخ التكنولوجية الطبيعية ، وأن التقنية عندما تكشف عن تعامل الإنسان مع الطبيعة وعن الأنشطة الإنتاجية التى تحفظ عليه حياته ، إنما تكشف فى نفس الوقت عن علاقاته الاجتماعية والتصورات الذهنية التى تنبثق عنها "[1] ، وقد أكد بول لافاش - زوج ابنة ماركس فى كتابه "الحتمية الاقتصادية والمنهج التاريخى عند كارل ماركس" (عام ١٩٠٧) - أكد أن مفهوم ماركس عن التاريخ مستمد من نظرية ڤيكو عن المعرفة . كما أكد الماركسى الايطالى انطونيو لابريولا - وهو أحد الذين كانوا يراسلون انجلز - فى مقالاته عن التصور المادى للتاريخ : " ان ڤيكو هو أحد رواد التصور المادى للتاريخ " .

---

(١) ماركس ، كارل ، رأس المال ، الطبعة الشعبية ، برلين وموسكو عام ١٩٢٢ ، جـ ١ . ٣٨٩ هامش ٨٩ (*Bergin & Fisch* عن السيرة الذاتية لڤيكو ص ١٠٥) .

وقبل أن نتعرض للحديث عن أثر ڤيكو على الماركسية ، نود أن نقصر حديثنا على الجوانب التى يبدو فيها أثر ڤيكو واضحاً وتتلخص فى ثلاث أفكار رئيسية ، الفكرة الأولى هى أن البشر هم صانعو التاريخ ، والثانية هى تأكيد ڤيكو أهمية التنظيم الاقتصادى وجعله أساس التنظيم السياسى ، والثالثة هى تأكيد دور الصراع الطبقى فى تطور التاريخ . وإذا كانت المادية التاريخية قد انطلقت من عكس الدياليكتيك الهيجلى ، إلا أنها ارتكزت على نظرية المعرفة عند ڤيكو ومحورها الأساسى " أن الإنسان هو صانع التاريخ لأنه لا يعرف إلا ما يصنع " وهذه العبارة التى تحوى بذور فلسفة العمل أو الفعل كانت تأكيداً للفكرة الجوهرية التى انطلقت منها المادية التاريخية وبلغ كل من ماركس وانجلز بهذه الفكرة مرحلة النضج ، فقال ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) : " ان مفتاح كل تاريخ للمجتمع هو النمو التاريخى للعمل " لأن ماهية الإنسان لا تتحقق إلا بالعمل ، كما يؤكد ماركس : " ان البشر يصنعون تاريخهم الخاص باتباع كل واحد منهم الغايات التى يرغب فى تحقيقها بصورة واعية ، ونتيجة هذه الإرادات العديدة التى تعمل فى اتجاهات مختلفة ، وكذلك نتيجة آثارها على العالم الخارجى هى التى تشكل التاريخ .

أما عن الفكرة الثانية وهى تأكيد أهمية التنظيم الإقتصادى كأساس للسلطة السياسية ، فقد أكد ڤيكو أن المجتمعات البشرية بمعناها التام لا تنشأ إلا بظهور طبقة العبيد ، فينقسم المجتمع إلى طبقتين : طبقة النبلاء ملاك الأرض ، وطبقة العبيد الذين يحرثون الأرض ويفلحونها ، ويتحول المجتمع الأسرى إلى مجتمع اقطاعى . وبعد فترة طويلة من الزمن يبدأ تمرد العبيد على النبلاء للمطالبة بالمساواة معهم فى الحقوق المدنية مما اضطر النبلاء إلى توحيد صفوفهم لمواجهة ثورة العبيد فنشأت الحكومات الارستقراطية التى كانت أول شكل من أشكال الحكم فى العالم .[١] هكذا جعل ڤيكو النظام الاقتصادى أساسا للنظام السياسى ، وهى نفس

(١) انظر شرحنا بالتفصيل فى الاقتصاد الشعرى والسياسة الشعرية (انظر الفصل الثانى من الباب الثانى من هذا البحث) .

النتيجة التي توصل إليها كل من ماركس وانجلز من أن التاريخ محكوم على الدوام بقوانين خفية ، وهذه القوانين تكون في آخر المطاف قوانين اقتصادية وهو مايقود إلى حتمية تاريخية . وإذا كان فيكو قد تصور العملية التاريخية بأسرها في صورة نمو عضوى يسير إلى التفكك والتحلل ثم يعود إلى النمو من جديد بحيث تكون كل الجوانب الحضارية في كل مرحلة من هذه المراحل - كالعادات والأخلاق والقانون والحكومة واللغة والفن والعلم والدين والفلسفة - ذات شكل وخصائص مختلفة عن شكلها وخصائصها في المرحلة السابقة عليها ، فإن ماركس وانجلز جاءا ليميزا بين أنواع النشاط البشرى من أنشطة أولية وأخرى ثانوية أو بالتعبير الماركسي بين البناء التحتى والبناء الفوقى . ولكي يصنع الإنسان تاريخه لابد من توافر المأكل والمشرب والملبس والمأوى ، هذه هى الأنشطة الأولية - البناء التحتى - وتتضمن علاقة مادية اجتماعية مزدوجة ، فأساليب الإنتاج تتميز بأسلوب معين من التعاون أو بمرحلة اجتماعية معينة ، ويستحوذ كل جيل على النظام الإنتاجى الذى اكتسبه من الجيل السابق عليه ويستخدمه كمادة خام تصلح لانتاج من نوع جديد . فأساليب الإنتاج تربط بين مراحل التاريخ المختلفة وتشكل تاريخ البشرية ، وعلاقة البشر بوسائل الانتاج شرط كل علاقاتهم الأخرى ، فهى تنعكس فى وعيهم وتفكيرهم ولغتهم وتكوين نظمهم السياسية والقانونية والأخلاقية والدينية . وهذه الأنشطة الثانوية - البناء الفوقي- ليس لها تاريخ مستقل خاص بها ولا تُفهم بمعزل عن الأنشطة الأولية لأنها انعكاس وتفسير وتبرير لهذه الأخيرة وربما تكون فى بعض الأحيان محاولة لاخفائها وحجبها . وهكذا فإن جوهر المادية التاريخية يقوم على أن التاريخ الاقتصادى هو المجرى الأساسي العميق فى نهر التاريخ ، ولابد من سبر أغوار هذا المجرى ودراسته دراسة متعمقة لكى نفهم تياراته السطحية ومده وجزره فهماً كافياً . ويكفى الاشارة إلى هذه العبارة من بيان الحزب الشيوعى (عام ١٨٤٨) " إذا نظرنا إلى عصر من عصور التاريخ رأينا أن الأسلوب السائد فى الانتاج الاقتصادى والتبادل

وما يترتب عليه من تنظيم إجتماعى هو الأساس الذى يقوم عليه ويفسر بواسطته التاريخ السياسى والعقلى لهذا العصر " .

وواضح من هذا أن الماركسية تجاوزت مفهوم ڤيكو عن النظام الاقتصادى ، ولكنها فى رأى بعض الشراح الماركسيين قد سارت خطوات بعيدة فى نفس الاتجاه الذى قطع فيه ڤيكو شوطاً طويلاً . وإذا كان ڤيكو قد أكد أن النظام الاقتصادى هو أساس النظام السياسى ، فان الماركسية قد توسعت فى هذه الفكرة بغير شك وجعلت البنية الفوقية بأسرها لا السياسة وحدها انعكاساً للبنية التحتية أو البنية الاقتصادية ، ومع ذلك يمكننا أن نقول أن ڤيكو نظر إلى التاريخ نظرة أكثر شمولاً وعمقاً لتناوله التاريخ البشرى من كل جوانبه الحضارية من اقتصاد وسياسة وفن ودين وقانون ... ألخ وأعطى لكل جانب من هذه الجوانب نفس القدر من الأهمية حيث تتفاعل مجتمعة لتصنع التاريخ البشرى ، بينما تناولت الماركسية التاريخ من بعد واحد وهو البعد الاقتصادى وكأنه المؤثر الوحيد فى تطور التاريخ فجعلت التطور السياسى والقانونى والفلسفى والأدبى يرتكز على التطور الاقتصادى . وعلى الرغم من أن انجلز أكد رداً على خصوم الماركسية أن العامل الاقتصادى ليس هو العامل الوحيد فى تطور التاريخ ولكنه أهم العوامل ، وان العناصر المختلفة التى تتكون منها البنية الفوقية لها أثرها فى الصراع التاريخى وأحياناً تكون لها الغلبة فى شكل هذا الصراع ، ويقصد بهذه العناصر المظاهر السياسية لصراع الطبقات ونتائجه ، وهذه هى الفكرة الثالثة التى كان لفيكو السبق فيها ، فقد قدم أعمق تحليل للصراع الطبقى قبل الماركسية ، وظهر هذا الصراع عندما بدأ العبيد فى التمرد فكانت ثورتهم ضد الأبطال ويستمر صراع النبلاء والعامة فقد أقسم النبلاء على العداء الأبدى للعامة ، ويتابع ڤيكو مراحل هذا الصراع بتفاصيله حتى يحصل العامة على كافة حقوقهم المدنية والسياسية وتتحول نظم الحكم من الارستقراطية الاقطاعية إلى

نظم ديمقراطية شعبية حرة.[١] وجاءت الماركسية فيما بعد لتؤكد أن تاريخ كل مجتمع هو تاريخ الصراع بين الطبقات ، فكان من أهم الأفكار التى يتضمنها القسم الأول من البيان الشيوعى تأكيد أن الصراع الطبقى هو لب التاريخ البشرى ، وأن الدولة نظام يعبر عن إرادة الطبقة المسيطرة اقتصادياً ، وهكذا كانت الفكرة الأساسية التى وردت فى مقدمة بيان الحزب الشيوعى التى وضعها انجلز : " أن التاريخ البشرى - منذ انحلال المجتمع الطبقى البدائى الذى تملك فيه الجماعة الأرض ملكية مشتركة - عبارة عن تاريخ منازعات بين الطبقات ، أى بين الطبقات التى تستغل غيرها والطبقات التى تكون موضع الاستغلال أو بين الحاكم والمحكومين ، وتاريخ صراع الطبقات سلسلة من عمليات التطور وفيها أدركنا اليوم مرحلة لن يكون فى وسع الطبقات التى تنوء تحت نير الاستغلال ، وهى البروليتاريا ، ان تحرر نفسها من سيطرة الطبقات التى تحكمها وتستغلها وهى البرجوازية دون أن تحرر فى الوقت نفسه وبصفة نهائية المجتمع بوجه عام من جميع ألوان الاستغلال والظلم ، والفوارق والمنازعات بين الطبقات ".[٢] وقد صدق كروتشه عندما قال فى كتابه عن فلسفة ڤيكو ان ماركس وسوريل قد طورا فكرة ڤيكو عن صراع الطبقات وتجدد شباب المجتمع عن طريق العودة إلى الحالة البدائية للعقل وإلى البربرية الجديدة . بهذا نكون قد حاولنا أن نجتهد فى بيان أثر ڤيكو على أصحاب الاتجاهات الكبرى فى فلسفة التاريخ والإجتماع ، ونقول اجتهدنا مع علمنا بأن مثل هذا الموضوع يحتاج إلى دراسات أوفى وأعمق ، وبحوث مستقلة تخرج بنا عن حدود هذا البحث . وكل ما نرجوه أن نكون قد وفقنا على طريق البحث المتعمق لفلسفة ڤيكو المتشعبة الجوانب ، وأن يكون هذا البحث بداية بحوث مقبلة تضاف بإذن الله إلى المكتبة العربية .

---

(١) تفاصيل هذا الصراع فى السياسة الشعرية (الفصل الثانى من الباب الثانى من هذا البحث) .

(٢) د . راشد البراوى ، المذاهب الاشتراكية المعاصرة ، ص ٤٩ .

خـــاتمـة

بانتهاء الفصل الثانى من الباب الثالث تكون قد اكتملت فصول هذا البحث ، ويبقى أن نلقى نظرة عامة ونهائية على أهم النتائج التى استخلصناها منه . فبعد أن تناولنا النصوص الأصلية بالتفسير والتحليل في البابين الأولين ، وتعاطفنا مع تفكير ڤيكو واقتربنا منه ، كان لزاماً علينا فى الباب الثالث أن نبتعد عنه قليلاً لنتمكن من تقييم مذهبه وخاصة نظرية المعرفة التاريخية التى هى لب فلسفته التاريخية . وقد تعرضنا لجوانبها المختلفة ، كما بينا أثر هذه النظرية على أهم فلاسفة التاريخ فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وسوف نحاول فى هذه الخاتمة أن نلقى الضوء على أهم النتائج التى توصلنا إليها فى هذا البحث ، مع علمنا بأنه ليس هناك مذهب فلسفى يخلو من جوانب نقص أو لا يقع فى متناقضات . بيد أن هناك أفكاراً أساسية فى كل مذهب فلسفى لابد أن تكون مترابطة ترابطاً منطقياً ، وهذه الأفكار هى التى نخصها بالتقييم . وإذا حاولنا أن ننظر إلى مذهب ڤيكو من هذه الزاوية أمكننا أن نبرز أهم الجوانب الإيجابية على النحو التالى :-

١ - يمكن القول أن ڤيكو امتداد أمين ووفى لرواد النزعة الإنسانية فى عصر النهضة . لقد جعل الإنسان محور الدائرة ومركزها ، فإذا كان الله هو خالق الطبيعة ، فالإنسان هو صانع التاريخ - وهذا هو الجانب المشرق والمضىء فى فلسفة ڤيكو - والإنسان هو موضوع المعرفة وهدفها ، وموضوع التاريخ وغايته ، وبمعنى آخر أصبح صانع التاريخ هو ذاته موضوع التاريخ ، بحيث يمكن القول أن صنع الإنسان للتاريخ من أوضح وأهم الأفكار فى فلسفة ڤيكو .

٢ - إذا كنا قد اقتصرنا فى بحثنا هذا على فلسفة التاريخ عند ڤيكو ، إلا أنه يمكن استخلاص العديد من الدراسات المتنوعة من مجالات مختلفة من فكر

فيلسوفنا . فعلى سبيل المثال يمكن استخراج دراسة جمالية من نظرية ڤيكو فى اكتشاف حقيقة هوميروس ومن نظريته فى أصل الشعر ، وهى مشكلة شغلت العديد من المفكرين فى القرن التاسع عشر . ومن نظريته فى أصل اللغات والحروف ودراساته فى الاشتقاقات اللغوية يمكن لعلماء اللغة أن يتناولوه من زاوية فقه اللغة ، ومن دراسته لعادات وتقاليد الشعوب ، وهى الدراسة التى انتهت به إلى وضع مبادىء علمه الجديد التى تقوم على ثلاثة تنظيمات إجتماعية أساسية وهى الدين والزواج ودفن الموتى إذ لا توجد أمة إلا ولديها هذه التنظيمات الأساسية - ، من هذه المبادىء يمكن استخلاص دراسة فى الفولكلور والانثروبولوجيا الإجتماعية . كما يمكن استخلاص دراسة فى القانون الرومانى والتشريع وتطورهما (وقد قام فيش *Fisch* بدراسة بعنوان " ڤيكو فى القانون الرومانى ")[1] ، كما يمكن لفقهاء القانون أن يجدوا مادة خصبة لدراسة القانون الطبيعى للأمم . ولا تخفى أهمية فلسفة ڤيكو على المهتمين بالفلسفة السياسية فى تحليله لنشأة المجتمعات السياسية وتطور نظم الحكم فيها ، ولا أهميته بالنسبة لعلماء الاقتصاد فى تحليله لنشأة النظم الاقتصادية وتطورها نتيجة تطور الصراع الطبقى ، إذ كان النظام الاقتصادى كما رأينا فى الفصل الثانى من الباب الثانى هو أساس النظام السياسى . وهكذا يمكن استخلاص دراسات متنوعة من فلسفة ڤيكو ، ونرجو أن يفيد هذا البحث فى توجيه نظر الباحثين إلى المزيد من الاهتمام بفكره .

٣ - أضف إلى ماسبق أن ڤيكو يعدُّ مؤسس فلسفة التاريخ فى الفكر السياسى الغربى أو بالأحرى مؤسس علم التاريخ . فعلى الرغم من المادة الكثيفة التى حشدها فى كتابه الأساسى فقد استطاع أن يستخلص البنية النظرية للتاريخ . لقد أراد للتاريخ أن يكون علماً على نمط العلوم الطبيعية ، فأقام الجانب النظرى لعلم التاريخ ووضع المسلمات والفروض التى لابد من التسليم بصحتها منذ البداية ، ثم

---

(1) Fisch, M. H; "Vico on Roman Law".

قام بدراسة كل ما يتعلق بالمجتمعات البشرية فى ضوء هذه الفروض والمسلمات من تنظيمات أو مؤسسات اجتماعية وقانون ولغة وفن وسياسة واقتصاد .. ألخ واستخلص فى النهاية القانون العام الذي يحكم مسار التاريخ وتطوره . وقد حاولنا أن نبرز الأساس النظرى فى الباب الأول من البحث ، ثم الجانب التطبيقى التجريبى فى الباب الثانى ، وتناولنا فى الباب الثالث تقييم نظرية المعرفة التاريخية مع الإهتمام بوجه خاص بتأكيد النسق المعرفى الذى يقوم عليه علم التاريخ ، أو إذا شئنا استخدام لغة كانط الشروط القبلية فى المعرفة التاريخية . وبهذا حاولنا أن نحل المشكلة التى ما تزال تشغل الباحثين : هل تعد فلسفة ڤيكو من قبيل الفلسفة العقلية الصرفة ؟ أم هى فلسفة تجريبية صرفة ؟ وقد توصلنا - كما رأينا فى الباب الأخير من البحث - إلى أنه جمع بين الجانبين : بين القبلى والبعدى ، وبين المثالية والتجريبية .

٤ - استحدث ڤيكو نظرة جديدة للتاريخ . فبعد أن كان التاريخ يقتصر على الأحداث السياسية والمعارك الحربية وسير الأبطال ، أصبح يهتم بمشكلة أصول تكوين المجتمع المدنى ويتناول البنية الحضارية للمجتمع البشرى بما تشمله من تنظيمات سياسية واقتصادية وفن وقانون ولغة إلى سائر التنظيمات الإجتماعية الأخرى. وإذا كان فولتير هو أول من استحدث اسم فلسفة التاريخ فان ڤيكو هو أول من تناول بالدراسة مادة فلسفة التاريخ ذاتها فتعرض للتاريخ الحضارى للمجتمعات البشرية دون أن يدرك التسمية الكامنة وراء هذه النوعية من دراسة التاريخ .

٥ - على الرغم من اعتماد ڤيكو على الأساطير اليونانية والرومانية اعتماداً كبيراً فى تفسيره لتطور التنظيمات الإجتماعية من خلال هذه الأساطير - وهى تمثل معظم المادة التاريخية التى كانت متوفرة فى عصره - إلا أنه استطاع أن يصوغ قواعد منهجية علمية اشترط على المؤرخين والدراسين لتطور المجتمعات البشرية أن يتبعوها .

٦ - أن بحث ڤيكو فى نشأة المجتمعات الإنسانية وتطورها أكثر واقعية من فلاسفة عصره . فهو لم يبحث تطور الإنسانية بحثاً نظرياً مجرداً كما فعل بعض فلاسفة القرن الثامن عشر وكما نجد عند أوجست كونت وغيره فى القرن التاسع عشر بحيث أصبحت فكرة الإنسانية عند هؤلاء الفلاسفة فكرة نظرية لا وجود لها إلا فى عقول من أبدعوها . إن الإنسانية فى نظر ڤيكو هى شعوب متعددة ومتنوعة لها وجودها فى الزمان والمكان . وهو بإدراكه لهذا التنوع والتعدد كان أكثر وعياً بالواقع التاريخى من فلاسفة عصره ، إذ قام بدراسة التاريخ دراسة حية من خلال المستندات والوثائق وما خلفته الشعوب القديمة فى آدابها وأشعارها وأساطيرها ، ومن خلال ما تركته من آثار كالنقود والميداليات والأوسمة والنياشين والدروع والصور والنقوش ... ألخ وربما كان بذلك أول من تنبه إلى أهمية الآثار والحفريات فى البحث التاريخى فى عصر كان فيه علم الآثار ما يزال يخطو خطواته الأولى .

٧ - يرى ڤيكو أن الأمم تتطور عبر مراحل ثلاث ، المرحلة الإلهية ، والمرحلة البطولية ثم المرحلة البشرية . وقد استقى هذا القانون - كما رأينا فى الفصل الأول من الباب الثانى (قانون تطور الأمم) - من تقسيم المصريين القدماء للعصور التاريخية . ولكن لماذا تمسك ڤيكو بهذا القانون الثلاثى على وجه التحديد ؟ لقد قال بعض الفلاسفة أن التاريخ يتطور عبر مراحل أربع مثل هردر . وهناك من قال أن التطور يكون من خلال عشر مراحل مثل كوندورسيه . وأيا ما كان الرأى فى عدد المراحل التاريخية التى يجتازها التطور ، فهى ليست بالشىء الهام الذى نقف أمامه ونقول لماذا هى ثلاث عند ڤيكو وأربع عند هردر وعشر عند كوندورسيه ... إن الأهم من ذلك هو عودة هذه المراحل مرة أخرى ومدى تطابق هذا مع الواقع التاريخى ، فالدورات التاريخية عند كل من ڤيكو وهردر تعود مرة أخرى بصورة أكثر تقدماً . ولكنها عند كوندورسيه - على سبيل المثال - لا تتكرر . فالتقدم يسير فى خط مستقيم ويبلغ مداه ولا يتراجع إلى الوراء مرة أخرى . وهنا لابد أن نتساءل :

هل هذه النظرة للتاريخ تصدق على الواقع التاريخى الفعلى ؟ الحق أن التقدم لايسير دائماً فى خط مستقيم . فعلى الرغم من التقدم العلمى الهائل الذى حققته البشرية ومازالت تحققه إلا أن هناك مراحل تدهور ثقافى وحضارى وإنسانى . ولا شك فى أن نظرة ڤيكو للتاريخ كانت نظرة أكثر واقعية وأكثر فهماً للطبيعة البشرية ، وقد ناقشنا هذه الفكرة فى الفصل الأول من الباب الثالث .

تلك هى بعض الأفكار الإيجابية التى يجب أن نشيد بها ونلقى عليها الضوء فى فلسفة ڤيكو . غير أن هذا البناء الشامخ الذى شيده ڤيكو فى العلم الجديد من أجل إعادة بناء التاريخ لا يخلو من بعض جوانب الضعف والقصور التى ناقشناها فى ثنايا الرسالة ونود أن نجملها فى النقاط التالية ، وقد القت هذه الجوانب على مذهبه ظلال التناقض أحياناً والغموض أحياناً أخرى الأمر الذى حال دون فهمه فهماً واضحاً وتمثله على الوجه الصحيح .

١ - اعتمد ڤيكو على الحضارتين اليونانية والرومانية واستقى منهما مادته التاريخية . وقد يؤخذ عليه اقتصاره على هاتين الحضارتين دون سائر حضارات الشعوب الشرقية والوسيطة . ولكن يجب أن نأخذ فى اعتبارنا أمرين هامين . الأول أن الثقافة الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) كانت هى الثقافة السائدة فى عصره ، فكان من الطبيعى أن يستمد مادته التاريخية منها لاسيما أنه كان مختصاً بدراسة البلاغة عند الرومان وتدريسها . أضف إلى هذا أنه لم تتوفر المادة التاريخية الكافية فى عصر ڤيكو ولم يدون التاريخ العالمى بصورة علمية منظمة ، لأن الدراسات التاريخية لم تتبلور بالشكل الواضح إلا فى القرن التاسع عشر ، وهو القرن الذى وُصف بحق بأنه عصر التاريخ ، لهذا لم يستطع أن يطبق مبادىء علمه الجديد على كل الحضارات إذ لم تكن هذه الحضارات قد عُرفت فى عصره معرفة كافية . أضف إلى هذا أن علم الحفريات لم يكن قد تقدم بعد ولم تكتشف حضارات الشعوب الشرقية القديمة مثل الحضارة المصرية القديمة - التى لم تُكتشف إلا فى القرن

التاسع عشر وبعد اكتشاف حجر رشيد الذى مكن العلماء من فك رموز اللغة الهيروغليفية - وكذلك لم تُكتشف الحضارات البابلية والأشورية إلا بعد ذلك التاريخ . ربما أمكننا لكل هذه الأسباب أن نلتمس لڤيكو العذر فى اقتصاره على دراسة الحضارتين اليونانية والرومانية ، فلم يصله إلا القدر الضئيل من المعلومات المشوهة عن تاريخ الحضارات القديمة . لكن الميزة الكبرى لفيلسوفنا أنه وضع المبادىء النظرية لعلم التاريخ وعهد إلى الأجيال التالية أن تستكمله وأن يقوم كل شعب بتطبيقه على حضارته . فالعلم الجديد - كما صرح هو نفسه - لم يستكمل بعد وما يزال قابلاً للتطوير . والأمر الثانى أن الاستشهاد بالتاريخ اليونانى والرومانى - كما يؤكد ڤيكو نفسه فى هذا النص : " لم يكن الهدف منه سرد التاريخ الخاص لهذه الشعوب وعاداتها وتقاليدها وقوانينها ، بل كان الهدف هو إلقاء الضوء على التاريخ المثالى الذى يعبر عن القوانين الأبدية التى تحكم أعمال جميع الأمم والتى ستظل تحكم كل تواريخ الشعوب فى نشأتها وتطورها ونضجها ثم انحلالها وتدهورها وسقوطها ، فهناك جوهر واحد وراء تنوع وتطور أشكال الحكومات هو القانون المثالى الذى يحكم أعمال البشر وتاريخ الأمم إلى الأبد "[1] . وقد تناولنا بالتفصيل نظرية ڤيكو فى التاريخ الأبدى فى الفصل الأول من الباب الثالث موضحين أنها لب فلسفته فى التاريخ لأنها تمثل النسق المذهبى الذى يقوم على أساسه البناء التاريخى كله .

٢ - لاشك أن هناك بعض الأفكار التى توحى بالازدواجية فى بناء ڤيكو المذهبى ، وهى تتجلى واضحة فى فكرتين أساسيتين : **الأولى هى نظرية التاريخ المثالى الأبدى** الذى صرح أنه استخلصه من معارضته لمنهج ديكارت الاستنباطي ، واتباع منهج بيكون الاستقرائي . وقد رأينا فى الفصل الأول من الباب الأخير أنه جمع بين الطابع الاستنباطى الديكارتى والطابع الاستقرائي

(1) Vico; N. S. par. 1096.

البيكونى ووضع البناء النظرى الميتافيزيقى في مقابل الجانب التجريبى التطبيقى . ومن العسير أن نحكم أيهما أسبق فى الوجود من الآخر وإن كنا نرجح أنه استخلص البناء النظرى بعد دراسة الواقع التجريبى وتحليله . **الثانية فكرة العناية الإلهية** وهى من أكثر الأفكار غموضاً في فلسفة فيكو وتبدو فيها الأزدواجية واضحة ، بل وتبدو متناقضة مع فكرته الأساسية التى تقوم عليها فلسفته التاريخية وهى أن الإنسان هو صانع التاريخ . فكيف يتفق صنع البشر لتاريخهم مع تأكيد دور العناية الإلهية فى توجيه التاريخ ؟ لا يمكن أن يفسر هذا التعارض إلا على أنه نوع من الإزدواجية التى يتسم بها فكر فيكو ، فهو من ناحية فيلسوف يحمل فى عقله مبادىء وأفكار علم جديد سابق على عصره ومخالف للفكر السائد فيه ، ومن ناحية أخرى لايمكن اغفال الظروف التاريخية التى عاشها فى ظل محاكم التفتيش ، ولابد أنه سمع عن المصير الذى انتهى إليه برونو وكامبا نيلا وجاليليو ، فكان لابد من إخفاء آرائه الجريئة وراء فكرة العناية الإلهية التى أخذ يؤكدها فى كل صفحة من صفحات العلم الجديد . وربما يكون هذا السبب نفسه هو الذى جعله يستبعد التراث العبرى والمسيحى من نطاق العلم الجديد ويكتفى بالحديث عن الأمم الأممية فى الحضارتين اليونانية والرومانية ، لذلك لا نستطيع أن نقول أن التاريخ المثالى الأبدى تجسيد للعناية الإلهية وتحقيق لخطتها حتى لو قال فيكو بذلك ، لأن هذا يتعارض مع تأكيد صنع البشرية لذاتها . أضف إلى هذا أن قوله بالعناية الإلهية لا يجعله بالضرورة من أصحاب التفسير اللاهوتى للتاريخ كما ذهب إلى ذلك بعض الدارسين . ويجب ألا ننسى أن الأهم من قوله بالعناية الإلهية هو قوله بالتاريخ المثالى الأبدى . وهذا ما حاولنا التركيز عليه فى الفصل الأول من الباب الأخير لاثبات أن نظريته فى التاريخ المثالى الأبدى يمكن أن تفهم فهماً علمياً خالصاً بعيداً عن الفهم اللاهوتى ، بحيث لو استبعدنا فكرة العناية الإلهية لما تأثرت تحليلاته العلمية لنشأة المجتمعات البشرية وتطورها من خلال الصراع الطبقى بين النبلاء والعبيد وتكوين الأنظمة الاقتصادية والسياسية .. إلى آخر التنظيمات البشرية .

٣ – على الرغم من عبقرية ڤيكو التى لاشك فيها إلا أن طريقته فى طرح أفكاره وترتيبها لا تساعد على فهمها بسهولة . فهناك بعض العقبات التى تحول دون ذلك نذكر منها :-

أ – تميل أفكاره إلى الغموض والابهام الأمر الذى تسبب فى عدم الإقبال على قراءته فى عصره .

ب – الاكثار من التفاصيل الجزئية المرهقة إلى حد كبير والتى كان من الممكن الاستغناء عنها دون المساس بالأفكار الرئيسية لمذهبه .

جـ – الاسهاب في تفاصيل القانون الرومانى ابتداء من قانون الألواح الاثنى عشر وتطور هذا القانون عبر العصور التاريخية بحيث يصعب على قارىء العلم الجديد متابعة الكتاب ان لم يكن لديه إلمام كاف بالقانون الرومانى .

د – كثرة التحليلات اللغوية للعبارات والأمثال والكلمات اللاتينية التى اعتمد عليها ڤيكو كثيراً فى تفسيره لتطور المجتمعات البشرية من خلال تطور معانى الكلمات والاشتقاقات ، مما أوحى للقارىء المتسرع للعلم الجديد أنه ليس إلا كتاباً فى فقه اللغة والبلاغة اللاتينية القديمة ...

وفى ختام هذا البحث نود أن نكون قد ألقينا الضوء على أهم الجوانب الرئيسية فى فلسفة ڤيكو ألا وهى فلسفته التاريخية ، ونقول أهم الجوانب لأن هناك العديد من الجوانب التى لم يتطرق إليها البحث لأنها تخرج عن حدوده . ومازال ڤيكو فى حاجة إلى العديد من البحوث والدراسات التى تستوفى كل جوانب فكره . وبحثنا هذا ليس إلا بداية على الطريق لفيلسوف بخسه التاريخ حقه ، وجنى عليه سبقه لعصره ، وظلمه مواطنوه ومعاصروه . ولقد توالت الدراسات الجادة عنه فى النصف الثانى من القرن العشرين ونرجو أن يكون هذا البحث المتواضع بداية لبحوث أخرى من الدارسين العرب فى المستقبل بإذن الله .

مراجع البحث

أولاً : المراجع الأجنبية

١ – مؤلفات ڤيكو :

1 - Vico, G. B. : New Scienece; trans. by Thomas Goddard Bergin and Harold Fisch; New York; Cornell University Press; 1969.

2 - Vico, G. B. : The Autobiography; trans. by Fisch, M. H. and Bergin, T. G. I thaca, New York; Cornell University Press; 1962.

3 - Vico, G. B. : on the study Methods of our time; trans. by Elio Gianturco; New York; 1965.

٢ – مؤلفات عن ڤيكو :

4 - Adams, H. P : the Life and Writings of G. B. Vico; London; 1935.

5 - Berlin, Sir Isaiah : Vico and Herder. New York; 1976.

6 - Berlin, Sir Isaiah : Vico and Idea of the Englightenment, in : Vico and Contemporary Thought; edited by Giorgio Tagliacozzo and others; New York; 1976.

7 - Child, A. H : Making and Knowing in Vico and Dewey; University of California Press; 1953.

8 - Haddock, B. A : Vico and the Problem of historical reconstruction; in : Vico and Contemporary Thought; edited by Giorgio Tagliacozzo and others; New York; 1976.

9 - Haddock, B. A : Vico : The Problem of interpretation; in : Vico and Contemporary Thought; edited by Giorgio Tagliacozzo and others; New York; 1976.

10 - Kelly, D. R : In Vico Veritas : The True Philosophy and the new Science; in : Vico and Contemporary Thought; edited by Giorgio Tagliacozzo and others; New York; 1976.

11 - Michelet, J : Oeuvres choisies de Vico; Paris; Ernest Flammarion Editeur; S. D.

12 - Mc Mullin, E : Vico's Theory of Science; : in : Vico and Contemporary Thought; edited by Giorgio Tagliacozzo and others; New York; 1976.

13 - Nisbet, Robert : Vico and Idea of Progress; in : Vico and Contemporary Thought; edited by Giorgio Tagliacozzo and others; New York; 1976.

14 - Pompa, Leon : Vico. A study of New Science; Cambridge University Press; 1975.

15 - Pompa, Leon : Human Nature and the concept of Human Science; in : Vico and Contemporary Thought; edited by Giorgio Tagliacozzo and others; New York; 1976.

16 - Rubinoff, Lionel : Vico and the verification of historical Interpretation; in : Vico and Contemporary Thought; edited by Giorgio Tagliacozzo and others; New York; 1976.

٣ - مراجع عامة فى فلسفة التاريخ :

17 - Beck, L. W : Eighteenth - Century Philosophy. New York, The Free Press, 1966.

18 - Walsh, W. H : An Introduction to Philosophy of history, London, 1951.

٤ - مراجع عامة ومعاجم :

19 - Bréhier, É : Histoire de la Philosophie; Tome II La Philosophie Moderne, Paris, Presses Universitaires de France, 1947.

20 - Edwards, Paul : The Encyclopedia of Philosophy, Vol 8, New York, London, Macmillan Publishing, 1972.

21 - Flew, Antony : A dictionary of Philosophy, London, 1979.

22 - Irmscher, Johannes (Hrsg.) Lexikon) der Antike Leipzig, VEB Biliographisches Institut, 1972.

23 - Lange, Erhard and Alexander, Dietrich (Hrsg.); Philosophen - Lexikon. Berlin, Dietz Verlag, 1983.

ثانياً : المراجع العربية

ترجمـات ودراســات :-

١ - أحمد محمود صبحي : فى فلسفة التاريخ . الإسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، د . ت .

٢ - أوسينوبوس ، لانجلو وآخرون : النقد التاريخي (مختارات من النصوص) ترجمة د . عبد الرحمن بدوى . الكويت ، وكالة المطبوعات ط٣ ، ١٩٧٧ .

٣ - بليخانوف ، ج : تطور النظرة الواحدية إلى التاريخ . ترجمة محمد مستجير مصطفى . القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ .

٤ - بوبر ، كارل : عقم المذهب التاريخي . ترجمة عبد الحميد صبرة ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٥٩م .

٥ - بيارجريمال : الميثولوجيا اليونانية . ترجمة . هنرى زغيب ، منشورات عويدات بيروت ، باريس ، ط١ ، ١٩٨٢ .

٦ - بيرى ، ج . ب : فكرة التقدم . ترجمة د . أحمد حمدى محمود ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢م .

٧ - تشايلد ، جوردن : التاريخ . ترجمة عدلى برسوم عبد الملك . القاهرة ، الدار المصرية للكتب ، د . ت .

٨ - تشايلد ، جوردن : التطور الاجتماعى . ترجمة لطفى فطيم . القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ،١٩٦٦م .

٩ - حسن حنفى : قضايا معاصرة . جـ ٢ ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٧م .

١٠ - حسن حنفى : دراسات اسلامية . القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨١م .

١١ - راشد البراوى : المذاهب الاشتراكية المعاصرة . ط٢ القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٠م .

١٢ - رسل ، برتراند : تاريخ الفلسفة الغربية . الكتاب الثالث . ترجمة . د . محمد فتحى الشنيطى . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧م .

١٣ - رسل ، برتراند : حكمة الغرب ، جـ ٢ ترجمة د . فؤاد زكريا . الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٨٣م .

١٤ - روز ، هـ . ج : الديانة اليونانية القديمة . ترجمة . رمزى عبده جرجس . القاهرة ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٥م .

١٥ - عبد الباسط عبد المعطى : اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع . الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٨١م .

١٦ - عثمان أمين : ديكارت . القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٦ ، ١٩٦٩م .

١٧ - عبد العزيز عزت : فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع . القاهرة ، مكتبة الفكرة ، ١٩٥١ .

١٨ - عبد المعطى شعرواى : أساطير أغريقية . ط١ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢م .

١٩ - فرجيليوس : الانيادة . ترجمة د . عبد المعطى شعرواى وآخرين . جـ ١ القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١م .

٢٠ - فرجيليوس : الانيادة . ترجمة د . عبد المعطى شعرواى وآخرين . جـ ٢ القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١م .

٢١ - كاسيرر ، ارنست : فى المعرفة التاريخية ، ترجمة أحمد حمدى محمود . القاهرة ، دار النهضة العربية القاهرة . د . ت .

٢٢ - كاسيرر ، ارنست : الدولة والأسطورة . ترجمة د . أحمد حمدى محمود ط٢ . القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

٢٣ - كانط ، امانويل : المدخل إلى نقد العقل الخالص . ترجمة وتعليق د . عبد الغفار مكاوى . كتاب غير منشور .

٢٤ - كولنجوود ، ر . ج : فكرة التاريخ . ترجمة محمد بكير خليل . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ .

٢٥ - كوبلاند ، ج . وآخرين : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا . ترجمة محمد مصطفى زيادة . ط ٣ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ .

٢٦ - لسنج : تربية الجنس البشرى . ترجمة وتعليق وتقديم د . حسن حنفى . ط١ . دار الثقافة الجديدة القاهرة ، ١٩٧٧م .

٢٧ - مارو ، هـ . أ : من المعرفة التاريخية ، ترجمة جمال بدران . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م .

٢٨ - محمد عبد المنعم بدر وعبد المنعم البدراوى : مبادىء القانون الرومانى . القاهرة مطابع دار الكتاب العربى ، ١٩٥٦م .

٢٩ - محمد فتحى الشنيطى : دراسات فى الفلسفة الحديثة .

٣٠ - مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه . الكتاب الأول ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨١م .

٣١ - نف ، ايمرى : المؤرخون وروح الشعر . ترجمة توفيق اسكندر ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٤٧م .

٣٢ - هازار ، بول : الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر . جـ ١ ترجمة د. محمد غلاب . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٨م .

٣٣ - هازار ، بول : الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر . جـ ٢ . ترجمة د . محمد غلاب . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٥٩م .

٣٤ - هاوزر ، أرنولد : الفن والمجتمع عبر التاريخ . جـ ١ . ترجمة د . فؤاد زكريا . القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧م .

٣٥ - هرنشو : علم التاريخ . ترجمة عبد الحميد العبادى . القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧م .

٣٦ - هورس ، جوزف : قيمة التاريخ . ط٢ منشورات عويدات . بيروت ، ١٩٨٢م .

٣٧ - هوميروس : الألياذة . ترجمة أمين سلامة (ج ١ ، ٢ ، ٣) مطبوعات كتابى . د . ت .

٣٨ - هوميروس : الأوديسة . ترجمة عنبرة سلام الخالدى . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٠م .

٣٩ - ويد جيرى ، اليان . ج : المذاهب الكبرى فى التاريخ . ترجمة نوقان فرقوط . بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٢ .

٤٠ - ويلسون ، كولن : سقوط الحضارة . ترجمة أنيس زكى حسن . بيروت ، منشورات دار الآداب ، ط ٢ سنة ١٩٧١ .

دوريـــــات :-

- أحمد حمدى محمود : العلم الجديد لڤيكو . مجلة تراث الإنسانية المجلد السادس .

- د . حسن حنفى : فلسفة التاريخ عند ڤيكو . مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس . العدد السابع ١٩٨٣ - ١٩٨٤م .

- د . حسن حنفى : متى تموت الفلسفة ومتى تحيا . مجلة عالم الفكر . المجلد الخامس عشر - العدد الثالث أكتوبر . نوفمبر . ديسمبر . ١٩٨٤م .

- د . عزمى اسلام : فى فلسفة العلوم الإنسانية . مجلة عالم الفكر . المجلد الخامس عشر - العدد الثالث أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٤م .

رقم الإيـــداع

٩٧/٥٣٠٥

الترقيـم الدولـي

977 - 03 - 0323 - 2



المندرة قبلي خلف ٦٩ ش
د . النبوى المهندس - اسكندرية

☎ ٥٢٤٤٠٧٨